الرواية الأكثر مبيعاً على قائمة نيويورك تايمز

كارين م. ماكمنوس

Karen M. McManus









رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



الأقرباء

كارين م. ماكمنوس

Karen M. McManus

الأقرباء

The Cousins

رواية

ترجمة

زينة إدريس

THE COUSINS

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

The COUSINS

by Karen M. McManus

الطبعة الأولى: أيار/مايو 2022 م - 1443 هـ

ردمك 9786140268449

جميع الحقوق محفوظة للناشر:

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

إصدار

الدار العربية للعلوم ناشرون م م ح

التوزيع في المملكة العربية السعودية

دار إقـــراء للـنــشـــر

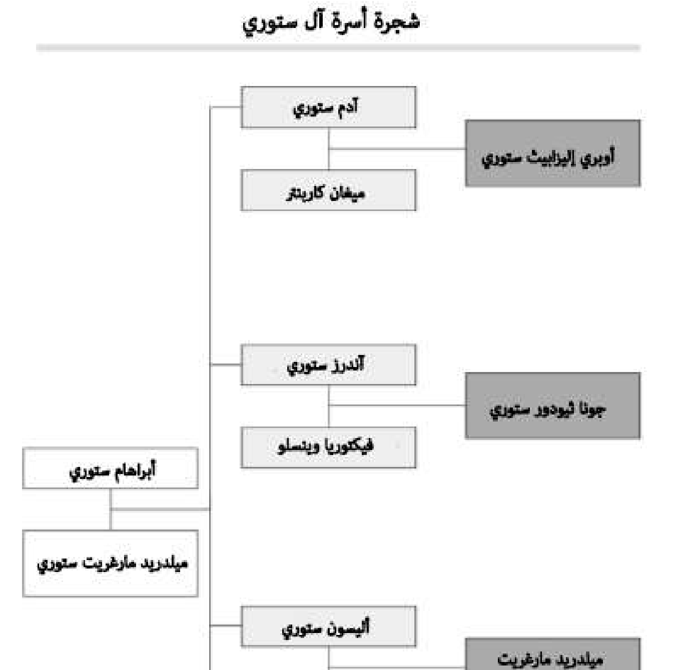
مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر
المنطقة الحرة، الشارقة
الإمارات العربية المتحدة
جوال: 585597200 971+ - داخلي: 0585597200
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic twitter.com/ASPArabic www.aspbooks.com asparabic

تصميم الغلاف: علي القهوجي

إهداء إلى لين

شجرة أسرة آل ستوري



الفصل الأوّل

ميلي

لقد تأخّرتُ على العشاء مجدّداً، لكن هذه المرّة لم يكن الذنب ذنبي، بل كان ثمّة متبجّح في طريقي.

"ميلدريد؟ إنّه اسم جدّة، وليس حتّى جدّة عصرية". قال ذلك وكأنّه يعتبر نفسه ذكيّاً. طيلة أعوامي السبعة عشر، لم يلاحظ أيّ شخص آخر على الإطلاق أنّ اسمي ليس من النوع الكلاسيكي العصري. واحتاج الأمر إلى مصرفيّ استثماري في وول ستريت، أملس الشعر، يضع خاتماً في خنصره، ليبدي هذا التعليق الاجتماعي.

ارتشفتُ بقيّة المياه الغازية قائلة: "لقد أُطلق عليّ هذا الاسم في الواقع تيمّناً بجدّتي".

كنت في مطعم يقدّم شرائح اللحم في وسط المدينة، وكانت الساعة السادسة من إحدى أمسيات شهر أبريل الممطرة، أبذل قصارى جهدي للاختلاط بحشد ساعة الحسومات تلك. إنّها لعبة نمارسها أنا وصديقاتي أحياناً. إذ نذهب إلى بارات المطاعم، لكي لا يتمّ التحقّق من سنّنا عند الباب. فنرتدي أبسط فساتيننا، ونبالغ في استخدام مساحيق التجميل. نطلب المياه الغازية بالليمون - "في كوب صغير، من فضلك، فأنا لست عطشانة

جدّاً" - ونبتلعها دفعة واحدة بحيث لا يتبقّى شيء منها تقريباً. ثمّ ننتظر لنرى ما إذا كان أحدهم سيعرض علينا مشروباً.

ودائماً ما يفعل شخص ما ذلك.

ابتسم صاحب الخاتم وومضت أسنانه تقريباً في الضوء الخافت. لا شكّ أنّه يأخذ نظام تبييض الأسنان على محمل الجدّ. "يعجبني ذلك. يا له من تناقض بالنسبة إلى شابّة جميلة مثلك". اقترب منّي، وصاحبت حركته نفحة من الكولونيا القويّة المسبِّبة للصداع. "مظهرك مثير للاهتمام. من أين أنت؟".

آه. هذا أفضل إلى حدّ ما من ما أنت؟ وهو سؤال يُطرح عليّ في بعض الأحيان، لكنّه يبقى فظّاً. أجبت بوضوح: "نيويورك، وأنت؟".

أوضح قائلاً: "أعني في الأصل". انتهى الأمر، لقد اكتفيت.

كرّرت: "نيويورك"، ثمّ نهضتُ عن مقعدي. من حسن حظّي أنّه لم يتحدّث معي إلّا عندما أوشكت على المغادرة، لأنّني لم أكن مولعة بتناوُل الكوكتيل قبل العشاء. التقت نظراتي بنظرات صديقتي كلوي عبر الغرفة، فلوّحتُ مودّعة، ولكن قبل أن أتمكّن من الانسحاب، أمال صاحب الخاتم كأسه نحوي قائلاً: "هل يمكنني أن أقدّم لك كأساً آخر من هذا الشراب، أيّاً يكن؟".

"كلّا، شكراً، لديّ موعد مع أحدهم".

تراجع، بجبين عابس، عابس جدّاً. كانت التجاعيد ظاهرة أيضاً على خدّيه وحول عينيه. كان أكبر من أن يحاول إغرائي، حتّى لو كنت الطالبة الجامعية التي أتظاهر أنّني

عليها أحياناً. قال متذمّراً: "لماذا تضيعين وقتي، إذاً؟" وبدأت نظراته تجول من فوق كتفي.

تحبّ كلوي لعبة ساعة الحسومات، لأنّ شباب المدارس غير ناضجين، على حدّ قولها. وهذا صحيح. لكن في بعض الأحيان أعتقد أنّنا قد نكون أفضل حالاً إذا لم نعرف إلى أيّ مدى يمكن أن يكونوا أسوأ.

أخرجتُ قطعة ليمون من شرابي وعصرتها. ومع أنّني لم أكن أستهدف عينيه بالضبط، لكنّني شعرت مع ذلك بخيبة أمل عندما لم يبلغ الرذاذ سوى ياقته. قلت بنبرة معسولة: "أنا آسفة"، وأسقطتُ قطعة الليمون في الكوب ثمّ وضعته على البار. "عادة، لا أزعج نفسي. لكنّ هذا المكان مظلم للغاية. عندما أتيتَ في البداية، ظننتك أبي".

مستحيل، فأبي أكثر وسامة منه بكثير، كما أنّه ليس مخيفاً. فغر صاحب الخاتم فاه دهشة، لكنّني تجاوزته وخرجت من الباب قبل أن يتمكّن من الردّ.

كان المطعم الذي أقصده يقع على الجانب الآخر من الشارع. عندما عبرت الباب، ابتسمت المضيفة وسألتني: "هل يمكنني مساعدتك؟".

"أنا على موعد مع إحداهنّ، أليسون؟".

خفضت نظرها إلى دفتر أمامها وظهرت تجعيدة صغيرة بين عينيها. "أنا لا أرى-"

"ستوري-تاكاهاشي؟" كان طلاق والديّ ودّياً على نحو غير عادي، وبحسب الملحق (أ) من اتّفاقية الطلاق، تستمرّ أمّي باستخدام كلتا الشهرتين. إذ قالت قبل أربع سنوات عند انتهاء إجراءات الطلاق: "حسناً، لا تزال هذه شهرتك، كما أنّني اعتدت عليها".

ازدادت التجعيدة بين عينَي المضيفة عمقاً. "لم أجد هذا الاسم أيضاً".

"ستوري فقط، إذاً؟".

زال العبوس عن وجهها وقالت: "أوه! نعم، وجدته. من هنا".

حملت قائمتَي طعام وشقّت طريقها بين الطاولات المغطّاة بالأبيض، إلى أن وصلنا إلى مقعد على شكل زاوية. كان الجدار خلفه مكسواً بمرآة، وكانت المرأة الجالسة هناك ترتشف كأساً من الشراب الفرنسي الأبيض بينما تتفقّد خلسة انعكاس صورتها، وتسوّي ما أفلت من كعكة شعرها الداكن، عيوب صغيرة لا يراها أحد سواها.

جلستُ على المقعد المقابل بينما وضعَت المضيفة قائمتي طعام حمراوين كبيرتين أمامنا. سألتُها: "إذاً، شهرتك ستوري الليلة؟".

انتظرَت والدتي حتّى غادرت المضيفة لتجيب متنهّدة: "لم أكن في مزاج لأكرّر نفسي"، فرفعتُ أحد حاجبَيّ استغراباً. عادة ما تحرص أمّي على الردّ على كلّ من يتصرّف وكأنّه لا يعرف كيفية تهجئة أو نطق شهرة أبي اليابانية.

"لماذا؟" سألتها ذلك، مع أنّني كنت أعلم أنها لن تخبرني. فثمّة مستويات عدّة ينبغي عبورها أوّلاً من شخصية ميلي الميّالة إلى النقد.

وضعَت الكأس من يدها، وسبّبت حركتها اهتزاز عشرة أساور ذهبية تقريباً في معصمها. فوالدتي نائبة رئيس العلاقات العامّة في شركة مجوهرات، ويُعتبر التزيّن بآخر مبتكرات الموسم أحد امتيازات وظيفتها. رمقتني من رأسي إلى أخمص قدميّ، وركّزَت على زينة وجهي المبالغ بها وفستاني الكحلي. "أين كنتِ بكلّ هذه الأناقة؟".

في البار المقابل. كذبتُ مجيبة: "في معرض مع كلوي". تملك والدة كلوي معرضاً

فنّياً في البلدة، ونمضي أنا وصديقاتي هناك كثيراً من الأوقات المزعومة.

تناولت أمّي كأسها مجدّداً. أخذت رشفة، ثمّ حوّلت نظرها إلى المرآة، وملّست شعرها. عندما تفرده، يسترسل في تموّجات سوداء، ولكن، وكما تحبّ أن تخبرني، غيّر الحمل قوامه من أملس إلى خشن. أنا واثقة من أنّها لن تسامحني أبداً على ذلك. "ظننت أنّك كنت تدرسين للامتحانات النهائية".

"كنت، قبل ذلك".

ابيضّت عقد أصابعها حول الكوب، وترقّبتُ جملتها. ميلي، لا يمكنك الخروج من صفّك بنتيجة دون جيّد جدّاً. فأنت على شفير الرسوب، وقد استثمرنا أنا ووالدك الكثير جدّاً لكي تضيّعي فرصتك بهذا الشكل.

لو كانت لديّ بعض الميول الموسيقية، لأسّست فرقة تسمّى شفير الرسوب تكريماً لتحذير أمّي المفضّل. فأنا أسمع نسخة من هذا الخطاب منذ ثلاث سنوات. إذ تخرّج أكاديمية بريسكوت طلّاب آيفي ليغ مثل مصنع للدم الأرستقراطي الأزرق. ومأساة والدتي أنّني أحتلّ دائماً مرتبة ثابتة في النصف السفلي من صفّي.

لم تعظني على الرغم من ذلك، بل مدّت يدها الخالية وربّتت على يدي. كانت حركتها متصلّبة، كما لو أنّها دمية يحرّكها مبتدئ. "حسناً، تبدين جميلة جدّاً".

سرعان ما اتّخذتُ موقفاً دفاعياً. من الغريب أساساً أن ترغب والدتي في مقابلتي على العشاء، فما بالك بمجاملتي، أو حتّى لمسي. بدا لي كلّ ذلك فجأة وكأنّه إعداد لشيء أفضّل عدم سماعه. سألتها: "هل أنت مريضة؟ هل أبي مريض؟".

رفّت عينيها وسحبت يدها. "ماذا؟ كلّا! لماذا تسألين؟".

"لماذا إذاً-" قطعتُ جملتي عندما ظهر نادل مبتسم بجانب الطاولة، وبدأ يملأ كوبَينا بالماء من إبريق فضّي.

"كيف حالكما أيّتها السيّدتان هذا المساء؟ هل ترغبان في التعرّف على عروضنا الخاصّة؟".

تأمّلتُ أمّي سرّاً من فوق قائمتي، بينما راح النادل يثرثر بالقرب منّا. كانت متوتّرة بلا شكّ، ولا تزال قابضة على كوبها شبه الفارغ بأصابعها الشاحبة، لكنّني أدركت الآن أنّني أخطأت بتوقّع الأخبار السيّئة. فقد كانت عيناها الزرقاوان ساطعتين، وزاويتا فمها مرتفعتين إلى الأعلى تقريباً. بدت متلهّفة لأمر ما، وليست خائفة. حاولت أن أتخيّل ما الذي قد يجعل والدتي سعيدة عدا تفوّقي بطريقة سحرية في أكاديمية بريسكوت.

إنّه المال. هذا السبب الوحيد المحتمل. فحياة أمّي تدور حوله - أو بالأحرى، حول عدم امتلاكها ما فيه الكفاية منه. يشغل كلا والداي وظيفة جيّدة، وعلى الرغم من زواج أبي مجدّداً، إلّا أنّه كان كريماً دائماً على صعيد النفقة. وكانت زوجته الجديدة، ثريّا، نقيض زوجة الأب الشرّيرة تماماً، بما في ذلك في الأمور المالية. فهي لم تحسد أمّي يوماً على الشيكات الكبيرة التي يرسلها كلّ شهر.

لكنّ ذلك لا يفي بالغرض عند محاولة العيش في مانهاتن. وهذا ليس ما نشأت عليه والدتي.

قرّرتُ أخيراً أنّ المسألة لا بدّ وأن تكون ترقية وظيفية. وهذا خبر ممتاز، باستثناء الجزء الذي ستذكّرني فيه أنّها نالت تلك الترقية بالعمل الجادّ، وبالمناسبة، لماذا لا أعمل

بجدّ أكبر في كلّ شيء؟

قالت أمّي: "سآخذ سلطة سيزر مع الدجاج، ومن دون صلصة الأنشوفة". قالت أمّي ذلك وهي تناول النادل قائمتها من دون النظر إليه حقّاً. "وكأساً آخر من لانغلوا شاتو، من فضلك".

"حسن جدّاً، والشابّة؟".

قلت له: "ضلع مشوي غير ناضج، مع طبق كبير من البطاطس المشويّة". يمكنني على الأقلّ الحصول على وجبة جيّدة من هذه الجلسة، أيّاً يكن الغرض منها.

عندما انصرف، أفرغت والدتي كأسها وشربت أنا الماء. كانت مثانتي ممتلئة أساساً من المياه الغازية التي شربتها في البار، وكنت على وشك الاستئذان لدخول الحمّام عندما قالت: "لقد تلقّيت أغرب رسالة اليوم".

ها هي ذا. "أوه؟" انتظرتُ، ولكنّها لم تتابع، فحثثتها قائلة: "مِن؟".

صحّحت لي تلقائيّاً "ممّن". تتبّعت أصابعها قاعدة الكأس بينما ارتفعت زاويتا فمها قليلاً بعد. "من جدّتك".

نظرت إليها متسائلة: "من بابا؟" ولماذا يستحقّ الأمر كلّ هذا الإعداد، لم أفهم. صحيح أنّ جدتي لا تتّصل بأمّي كثيراً، ولكنّ هذا ليس غريباً عليها. فبابا تحبّ إرسال المقالات التي قرأتها لكلّ مَن تعتقد أنّه قد يكون مهتمّاً، وما زالت تفعل ذلك مع أمّي بعد الطلاق.

"كلّا، بل جدّتك الأخرى".

الآن ارتبكتُ فعلاً. "ماذا؟ هل وصلتك رسالة من ميلدريد؟".

لم أكن أملك لقباً لوالدة أمّي. فهي ليست جدّتي أو ميمي أو نانا أو أيّ شيء بالنسبة إليّ، لأنّه لم يسبق لي أن قابلتها قطّ.

"أجل". عاد النادل حاملاً شراب أمّي، فأخذَت منه رشفة طويلة. جلستُ بصمت، غير قادرة على استيعاب ما قالته لي للتوّ. كانت جدّتي لأمّي حاضرة خلال طفولتي، ولكن كشخصية خرافية أكثر منها شخصاً حقيقياً: أرملة أبراهام ستوري الثريّة، التي أتى جدّها الأكبر على متن سفينة مايفلاور. فأجدادي أكثر إثارة للاهتمام من أيّ كتاب تاريخ. إذ جمعت العائلة ثروة من صيد الحيتان، وخسرت معظمها في أسهم سكك الحديد، ثمّ بدّدت ما تبقّى في شراء عقارات في جزيرة صغيرة غير هامّة قبالة سواحل ماساتشوستس.

كانت جزيرة النورس ملاذاً غير معروف للفنّانين والهيبيين إلى أن حوّلها أبراهام ستوري إلى ما هي عليه اليوم: مكان يُنفق فيه الأثرياء وأشباه المشاهير مبالغ سخيّة من المال متظاهرين بأنّهم يعودون إلى الطبيعة.

نشأت والدتي وإخوتها الثلاثة في منزل ضخم على شاطئ بحر يحمل اسم كاتمينت هاوس، وأمضوا طفولتهم في امتطاء الخيل وحضور الحفلات الرسمية كما لو كانوا أمراء جزيرة النورس. وثمّة صورة في صالة شقّتنا لأمّي عندما كانت في الثامنة عشرة من عمرها وهي تترجّل من سيّارة ليموزين في طريقها إلى الحفل الصيفي الذي كان والداها يقيمانه كلّ عام في منزلهما. كان شعرها مرفوعاً إلى الأعلى، وترتدي فستان سهرة أبيض اللون، وتحيط عنقها بقلادة رائعة على شكل دمعة من الألماس. أهدت ميلدريد تلك القلادة لأمّي عندما بلغت السابعة عشرة من عمرها، وكنت أعتقد أنّ أمّي ستهديني إيّاها بدورها

عندما أبلغ السنّ نفسها.

غير أنّ ذلك لم يحدث، على الرغم من أنّ أمّي لم تعد تضعها.

توفّي جدّي عندما كانت أمّي في عامها الثانوي الأخير. وبعد عامين، تبرّأت ميلدريد من جميع أولادها. قطعت علاقتها بهم مالياً وشخصياً، من دون أيّ تفسير، باستثناء رسالة مؤلّفة من جملة واحدة أرسلتها قبل أسبوعين من الميلاد عبر محاميها، وهو رجل يُدعى دونالد كامدن، عرفته أمّي وإخوتها طوال حياتهم:

هذا ما جنته أيديكم.

أكّدت أمّي دائماً أنّها لا تملك أدنى فكرة عمّا قصدته ميلدريد. كانت تقول لي: "ربّما أصبحنا نحن الأربعة... أنانيون على ما أفترض. فقد كنّا جميعاً في الكلّية حينذاك، يبدأ كلّ منّا حياته الخاصّة. شعرت الوالدة بالوحدة بعد رحيل أبي، وتوسّلت إلينا لنزورها طوال الوقت، لكنّنا لم نرغب في الذهاب". هكذا تسمّي والديها، الوالدة والوالد، مثل بطلة رواية فيكتورية. "لم يرجع أحد منّا إلى المنزل للاحتفال بيوم الشكر في ذلك العام، بل كانت لدينا جميعاً خطط أخرى. فثار غضبها، ولكن..." بدت على وجهها نظرة متأمّلة، كعادتها عندما تبلغ هذه النقطة. "هذا ذنب بسيط، هو بالكاد لا يُغتفر".

لو أنّ أبراهام ستوري لم ينشئ حسابات ائتمانية تعليمية لأمّي وإخوتها، فما كانوا ليتخرّجوا ربّما من الجامعة. لكن حال تخرّجهم، أصبحوا معتمدين على أنفسهم بالكامل. في البداية، حاولوا بانتظام إعادة الاتّصال بميلدريد. طاردوا دونالد كامدن، الذي تمثّل ردّه الوحيد في البريد الإلكتروني الذي كرّر فيه قرارها. أرسلوا لها دعوات لحضور حفلات زفافهم، وأنبؤوها بولادة أطفالهم. حتّى إنّهم تناوبوا على الذهاب إلى جزيرة النورس، التي

لا تزال جدّتي تعيش فيها، لكنّها لم تقبل رؤيتهم أو التحدّث إليهم قطّ. كنت أتخيّل أنّها ستدخل يوماً ما شقّتنا، مزيّنة بالماس والفراء، وتعلن أنّها أتت من أجلي، أنا التي تحمل اسمها. ستصطحبني إلى متجر ألعاب، وتسمح لي بشراء ما أريد، ثمّ تعطيني كيساً من المال لأخذه معي إلى والديّ.

وأنا واثقة من أنّ التخيّلات نفسها راودَت والدتي، وإلّا فلماذا تمنح فتاةً من القرن الحادي والعشرين اسماً كاسم ميلدريد؟ لكنّ جدّتي، بمساعدة دونالد كامدن، كانت تعترض أولادها عند كلّ منعطف. وفي النهاية، كفّوا عن المحاولة.

نظرت أمّي إليّ بترقّب، وأدركتُ أنّها تنتظر إجابة، فسألتها: "هل تلقّيتِ رسالة من ميلدريد؟".

أومأت برأسها، ثمّ تنحنحت قبل أن تجيب: "حسناً، لأكون أكثر دقّة، أنت من تلقّيتِ الرسالة".

"أنا؟" تقلّصت مفرداتي حتّى انعدمت تقريباً في الدقائق الخمس الماضية.

"كان الظرف موجّهاً إليّ، لكنّ الرسالة لك أنت".

خطرت ببالي فجأة صورة عمرها عشر سنوات: أنا مع جدّتي الغائبة منذ زمن طويل، نملأ عربة تسوّق بالكامل بالدمى المحشوّة ونحن نرتدي ملابس كما لو أنّنا ذاهبتان إلى الأوبرا، بما في ذلك التيجان. دفعتُ الفكرة جانباً، وبحثت عن مزيد من الكلمات. "أهي... هل هي... لماذا؟".

مدّت والدتي يدها إلى حقيبتها وأخرجَت مغلّفاً، ثمّ دفعته عبر الطاولة نحوي.

"ربّما عليك قراءتها وحسب".

فتحتُ الغطاء وسحبت ورقة سميكة مطويّة، باللون الكريمي تنبعث منها رائحة الليلك الخفيفة، بينما نُقِش الجزء العلوي بالأحرف الأولى م م س - ميلدريد مارغريت ستوري. كان اسمانا متشابهين تقريباً، باستثناء أنّ اسمي يشتمل على كلمة تاكاهاشي في النهاية. وكانت الفقرات القصيرة المطبوعة مذيّلة بتوقيع عنكبوتي.

عزيزتي ميلي،

بالطبع، لم يسبق لنا أن التقينا قطّ. الأسباب معقّدة، ولكن مع تقدّم السنوات تصبح أقلّ أهمّية ممّا كانت عليه في ما مضى. وبينما تقفين على عتبة مرحلة البلوغ، أشعر بالفضول للتعرّف إليك.

أنا أملك منتجعاً يدعى منتج النورس، وهو وجهة شهيرة لقضاء العطلات على جزيرة النورس. أودّ دعوتك أنت وابن خالك جونا، وابنة خالك أوبري، لتمضية هذا الصيف في العيش والعمل في المنتجع. لقد عمل آباؤكم هنا عندما كانوا مراهقين ووجدوا البيئة محفّزة ومثرية.

أنا متأكّدة من أنّك ستجنين أنت وقريبَيك فوائد مماثلة من تمضية صيف في منتجع النورس. وبما أنّني لست بحالة تسمح لي باستضافة أناس لأيّ مدّة من الزمن، فإنّ ذلك سيتيح لي فرصة التعرّف إليك.

آمل أن تقبلي دعوتي. سيتولّى إدوارد فرانكلين، منسّق التوظيف الصيفي في

المنتجع، جميع إجراءات السفر والخدمات اللوجستية اللازمة، ويمكنك الاتّصال به على عنوانه الإلكتروني أدناه.

مع خالص تحيّاتي،

ميلدريد ستوري

قرأتها مرّتين، ثمّ أعدت طيّ الورقة ووضعتها على المنضدة. لم أرفع نظري عنها، لكنّني استطعت أن أشعر بنظرات أمّي عليّ وهي تنتظرني لأتكلّم. أردت بشدّة دخول الحمّام في تلك اللحظة، لكنّني كنت بحاجة إلى أن أليّن حلقي بمزيد من الماء قبل أن أقول شيئاً. "هل هذا الهراء حقيقي؟".

أيّاً يكن ما توقّعت منّي أمّي قوله، إلّا أنّها لم تنتظر ذلك. "المعذرة؟".

قلت: "اسمحي لي أن أضع الأمور في نصابها". كان خدّاي يتوهّجان وأنا أعيد إقحام الرسالة في المغلّف. "هذه المرأة التي لم أقابلها قطّ - والتي أخرجتكم من حياتها من دون أن تنظر إلى الوراء، والتي لم تأت إلى حفل زفافك أو عمادتي أو أيّ شيء متعلّق بهذه العائلة على مدار الأربع وعشرين عاماً الماضية، والتي لم تتّصل أو ترسل رسالة إلكتروني أو خطّية إلّا منذ خمس دقائق - هذه المرأة تريدني أن أعمل في فندقها؟".

"أنا لا أعتقد أنّك تنظرين إلى المسألة من الزاوية الصحيحة يا ميلي".

ارتفع صوتي ليصبح أقرب إلى صراخ: "وكيف يفترض بي أن أنظر إليها؟".

"هس"، قالت أمّي ذلك بصوت منخفض، وهي تنظر حولها. إن كان ثمّة ما تكرهه،

فهو لفت الأنظار. إجابت: "كفرصة".

سألتها: "لماذا؟". تردّدَت، وراحت تدير في إصبعها خاتم الكوكتيل - الذي لا يرقى إطلاقاً إلى مستوى الخاتم الزمردي المذهل من عيار خمسة قيراط الذي رأيته في إصبع جدّتي في الصور القديمة - وفجأة فهمت. "كلّا، انتظري - لا تجيبي عن هذا السؤال، إنّه سؤال خاطئ. كان ينبغي أن أقول مَن".

قالت أمّي: "لمن". حقّاً هي لا تستطيع تمالك نفسها.

"تعتقدين أنّها فرصة لنيل حظوتها مجدّداً، أليس كذلك؟ لإلغاء حرماننا من الميراث".

"ما هذه العبارة؟".

"ربّاه، أمّي، هلّا كففتِ عن ذلك؟ قواعد لغتي ليست هي المشكلة!".

قالت أمّي: "أنا آسفة"، وقد فاجأني ذلك كثيراً لدرجة أنّني لم أتمكّن من متابعة كلامي. كانت عيناها لا تزالان ساطعتين، لكنّهما أصبحتا دامعتين أيضاً. "المسألة - إنّها أمّي، يا ميلي. لقد انتظرت لسنوات لأسمع خبراً منها. لا أعرف لماذا الآن، أو لماذا أنت، أو لماذا تفعل ذلك، ولكنّها تواصلت معنا أخيراً. وإذا لم نغتنم الفرصة، فقد لا نحظى بفرصة أخرى".

"فرصة لماذا؟".

"للتعرّف عليها مجدّداً".

كنت على وشك أن أقول ومن يأبه، ولكنّني تراجعت عن ذلك. وكنت على وشك

أن أستبدلها بالقول لقد كنّا على خير ما يرام طوال هذا الوقت من دونها، لكنّ هذا ليس صحيحاً. فنحن لسنا على خير ما يرام.

تعيش والدتي على شفير حفرة على شكل ميلدريد ستوري، وهكذا كانت الأمور طوال حياتي. وقد حوّلها ذلك إلى امرأة تبقي الجميع على مسافة منها - بمن في ذلك والدي، الذي أعرف أنّها أحبّته بقدر ما يمكنها أن تحبّ. عندما كنت صغيرة، كنت أشاهدهما معاً وأتمنّى أن أعيش علاقة مثالية. لكن عندما كبرت، بدأت ألاحظ كلّ الطرق الصغيرة التي تستخدمها أمّي لدفع أبي جانباً. كيف كانت تتصلّب عندما يحتضنها، أو تستخدم العمل كذريعة للابتعاد حتّى يتجاوز الوقت موعد نومنا، واعتذارها عن النزهات العائلية بسبب الصداع الذي لم يزعجها يوماً في المكتب. في النهاية، تحوّلت برودتها وانغلاقها إلى انتقاد لكلّ ما يقوله أبي أو يفعله. واستمرّت الأمور على هذا المنوال إلى أن طلبت منه أخيراً الرحيل.

والآن وقد رحل، فإنّها تفعل الشيء نفسه معي.

رسمتُ علامة استفهام على طبقة الرطوبة التي تشكّلت على كأسي، ثمّ سألتها: "هل تريدين أن أذهب بعيداً طوال الصيف؟".

"ستحبّين ذلك يا ميلي". ضحكتُ ساخرة فأضافت: "صدّقيني، سيعجبك المكان حقّاً. إنّه منتجع رائع، والشباب يتقدّمون من جميع أنحاء العالم للعمل هناك. الأجواء تنافسية في الواقع. والأماكن المخصّصة لإقامة الموظّفين جميلة، كما يمكنك الوصول بشكل كامل إلى جميع المرافق - إنّها أقرب إلى عطلة".

"عطلة أعمل فيها لدى جدّتي".

"ستكونين مع قريبَيك".

"أنا لا أعرفهما". لم أكن قد رأيت أوبري منذ أن انتقلت عائلة الخال آدم إلى أوريغون عندما كنت في الخامسة. أمّا جونا فيعيش في رود آيلاند، التي تقع على مقربة منّا، لكنّ أمّي ووالده يتحدّثان بالكاد. وآخر مرّة اجتمعنا فيها كانت في ذكرى ميلاد الخال آندرز عندما كنت في الثامنة من عمري. ولا أذكر سوى أمرين عن جونا: الأوّل أنّه ضربني على رأسي بمضرب بلاستيكي وخاب أمله عندما امتنعت عن البكاء. والثاني، أنّه انتفخ كالبالون عندما أكل مقبّلات تسبّب له التحسّس، مع أنّ أمّه حذّرته من أكلها.

"يمكنك التعرّف إليهما. كلاهما في سنّك، ولا أحد منكم لديه إخوة أو أخوات. سيكون من الرائع أن تتقرّبوا".

"حقّا؟ كما لو أنّك مقربّة من أخوالي آدم، وآندرز، وآرتشر. أنتم بالكاد تتحدّثون إلى بعضكم البعض! لا شيء مشترك بيني وبين أولادهم". دفعت المغلّف نحوها مضيفة: "لن أذهب، فأنا لست كلباً سيجري مسرعاً إليها عندما تناديه. ولا أريد أن أرحل من هنا طوال الصيف".

بدأت أمّي تدير خاتم الكوكتيل في إصبعها مجدّداً. "كنت أعرف أنّك ستقولين ذلك، وأنا أدرك أنّني أطلب الكثير. لذلك أريد إعطاءك شيئاً بالمقابل". ثمّ رفعت يديها إلى السلسلة الذهبية التي تلمع فوق ردائها الأسود. "أعرف كم تحبّين قلادة الدمعة الماسيّة. ماذا لو أعطيتك إيّاها على سبيل الشكر؟".

استقمت في جلستي، وأنا أتخيّل بالفعل القلادة وهي تتلألأ على صدري. لقد حلمت بها لسنوات. لكنّني ظننت أنّها ستكون هدية، لا رشوة.

"ولماذا لا تعطيني إيّاها ببساطة، لأنّني ابنتك؟" لطالما تساءلت عن ذلك، ولكنّني لم أجرؤ يوماً على طرح هذا السؤال عليها. ربما لأنّني أخشى أن تكون الإجابة هي نفسها التي أعطتها لأبي، ليس بكلماتها ولكن بأفعالها: أنت لا تستحقّ.

قالت أمّي: "إنّها إرث"، كما لو أنّ هذا لا يثبت وجهة نظري بالكامل. عبستُ، بينما وضعت أصابعها المزيّنة بطلاء الأظافر على طرف المغلّف. لم تدفعه تماماً، بل اكتفت بالنقر عليه. "كنت أنوي دائماً أن أعطيك إيّاها عندما تبلغين الحادية والعشرين، ولكن إذا قبلتِ بتمضية الصيف في مسقطِ رأسي، حسناً، يبدو لي أنّه لا بأس من فعل ذلك في موعد أقرب".

تنهّدتُ وأخذتُ المغلّف، ثمّ قلّبته بيدي بينما ارتشفت أمّي شرابها، واكتفت بانتظاري. لست واثقة ما الذي كان أكثر إحباطاً، أن تحاول والدتي ابتزازي لتمضية الصيف في العمل لدى جدّة لم أقابلها قطّ، أو أنّ حيلتها ستنجح.

الفصل الثاني

أوبري

مددت أصابعي إلى جدار حوض السباحة الأملس. وبمجرّد أن لامسته، استدرت واندفعت لإنهاء الشوط الأخير. كان هذا الجزء المفضل لديّ في أيّ مباراة سباحة: اندفاع المياه على أطرافي الممدودة بينما أنزلق عبرها بالزخم والأدرينالين وحدهما. أحياناً أعود للسطح في وقت متأخّر عمّا ينبغي، وهو ما تسمّيه المدرّبة ماتسون خروج عن المسار: عيب بسيط في التقنية قد يعني الفرق بين كون السبّاح جيّداً أو عظيماً. وعادة، أحاول تصحيحه. لكن اليوم؟ وددت البقاء هنا إلى الأبد لو استطعت.

خرجت إلى السطح أخيراً، وأنا ألهث لتنشّق الهواء، ثمّ تابعت السباحة بإيقاع ضربة الصدر. آلمتني كتفاي وتأرجحت ساقاي في جهد تلقائي مرحّب به، إلى أن لامست أصابعي البلاط مجدّداً. خلعت نظّارتي وأنا ألهث ومسحت عينيّ قبل أن أنظر إلى لوحة النتائج.

السابعة من أصل ثمانية، وهذه أسوأ نتيجة لي على الإطلاق لمسافة مائتي متر. قبل يومين، كانت هذه النتيجة لتدمّرني، ولكن عندما استرقت نظرة إلى المدرّبة ماتسون وهي تحدّق إلى لوحة النتائج ويداها على وركيها، شعرت بشرارة غضب مصحوبة بإحساس بالنصر.

أنت تستحقّين.

على أيّ حال، هذا لا يهمّ. أنا لن أسبح لصالح فريق آشلاند هاي مرّة أخرى. ولم أحضر اليوم إلّا لكي لا يواجه الفريق الخسارة.

خرجت من المسبح وأخذت منشفتي من على المقعد. كان سباق المائتي متر آخر حدث لي لهذا اليوم، في آخر مباراة في هذا الموسم. عادة، كانت والدتي تتواجد على المدرّجات وتنشر مقاطع فيديو طويلة جدّاً على فايسبوك، وأبقى أنا لفترة أطول على ضفاف المسبح استعداداً لتشجيع زميلاتي. لكنّ أمّي ليست هنا، وأنا لن أبقى.

توجّهتُ إلى غرفة تبديل الملابس الفارغة، وقدماي المبلّلتان تضربان الأرض المكسوّة بالبلاط، ثمّ أخرجت حقيبتي الرياضية من الخزانة رقم 74. ألقيتُ قبّعتي ونظّارتي الواقية في الحقيبة وارتديت قميصاً قطنياً وسروالاً قصيراً فوق بدلة السباحة المبلّلة. بعد ذلك ارتديت شبشباً وأرسلت رسالة نصّية سريعة: أنا مريضة. هلّا قابلتني عند الباب؟

كانت المباريات مستمرّة على قدم وساق عندما عدت إلى منطقة حوض السباحة. وكانت زميلاتي غير المشاركات في السباق على ضفاف الحوض، منشغلات بتشجيع المتسابقات بحيث لم يلاحظن خروجي. انقبض صدري ووخزتني عيناي عندما لمحتُ المدرّبة ماتسون في مكانها المعتاد بجوار لوح الغوص. كانت مائلة إلى الأمام، وشعرها الأشقر المعقود في ذيل حصان منسدل على أحد كتفيها، بينما هي تصرخ لتشيلسي رينولدز لكي تزيد من سرعتها. فداهمتني رغبة مفاجئة ولا تقاوم للتقدّم إلى الأمام ودفعها مباشرة إلى الحوض.

ولثانية، استمتعتُ بتخيّل شعوري حينئذٍ. كان حشد يوم السبت في مركز آشلاند

الترفيهي سيصاب بصدمة تغرقه في صمت مطبق، وسيرفع الحضور أعناقهم لإلقاء نظرة أفضل. أهذه أوبري ستوري؟ ماذا أصابها؟ ولن يصدّق أحد منهم ما يراه، لأنّني الفتاة التي يستحيل أن تتسبّب بمشكلة من أيّ نوع كان.

كما أنّني جبانة لأبعد الحدود. هكذا واصلتُ السير.

لاح خيال نحيل مألوف بالقرب من المخرج. كان صديقي، توماس، يرتدي سترة تريل بليزرز التي أهديته إيّاها، وكان شعره الأسود قصيراً كعادته في فصل الصيف. بدأ تشنّج معدتي يتلاشى وأنا أقترب. نتواعد أنا وتوماس منذ أن كنّا في الصفّ الثامن - احتفلنا بالذكرى السنوية الرابعة لنا في الشهر الفائت - وكان الاستلقاء على صدره يشبه الانزلاق في حوض استحمام دافئ.

ربّما إلى حدّ زائد. قال توماس وهو يفلت من بين ذراعيّ: "أنت مبلّلة تماماً". رمقني من رأسي إلى أخمص قدميّ بحذر وأضاف: "ومريضة؟".

ربّما لم أصب بنزلة برد طوال الوقت الذي عرفني فيه توماس سوى لمرّة واحدة. فأنا مقاوِمة للجراثيم إلى حدّ غريب. لطالما تحسّر والدي قائلاً: "أنت لا تشبهين آل ستوري على هذا الصعيد. فمجرّد ذكر الفيروس يمكن أن يسبّب لنا المرض لأيّام". يقول ذلك متباهياً تقريباً، كما لو أنّ طرفه من العائلة أشبه بأزهار زراعية حسّاسة ونادرة، بينما نشبه أنا وأمّي الأعشاب البرّية القوية التي يمكن أن تنمو في أيّ مكان.

تشنّجت معدتي مجدّداً لدى ذِكر والدي. قلت لتوماس: "أشعر ببعض الانزعاج وحسب".

"لا بدّ أنّكِ التقطت المرض من والدتك".

هذا ما قلته لتوماس الليلة الماضية عندما طلبتُ منه إيصالي اليوم، إنّ والدتي ليست على ما يرام. ولم أخبره بالسبب الحقيقي هذا الصباح أيضاً. في الحقيقة، لم أجد الكلام المناسب. ولكن عندما وصلنا إلى سيّارته الهوندا، انتابتني الحماسة لإفراغ ما في قلبي، وشعرت بالارتياح عندما استدار نحوي بنظرة قلقة. أردت أن يسألني وحسب ما الخطب؟ وعندئذ، يمكنني إخباره.

سألني: "أنت لا تشعرين بالرغبة في التقيّؤ، أليس كذلك؟ لقد نظّفتُ السيّارة للتوّ".

فتحتُ الباب المجاور للسائق، وقد تبدّدت حماستي. "كلّا، إنّه مجرّد صداع. سأكون بخير بعد أن أستلقي لفترة".

أومأ برأسه غافلاً: "سأعيدك إلى المنزل، إذاً".

أوه، المنزل. كان ذلك ثاني آخر مكان أودّ أن أكون فيه. لكنّني عالقة هناك لبضعة أسابيع أخرى، حتّى يحين موعد الرحيل إلى جزيرة النورس. من المضحك كيف أنّ أمراً غريباً وغير مرحّب به في البداية أصبح فجأة أقرب إلى خلاص أتوق إليه.

شغّل توماس المحرّك، أمّا أنا فأخرجت هاتفي لمعرفة ما إذا كان أحد قريبيّ قد أضاف إلى الدردشة الجماعية منذ هذا الصباح. كانت ميلي قد فعلت، إذ نشرت ملخّصاً لجدول السفر فضلاً عن سؤال. هل نجرّب أن نستقلّ العبّارة نفسها نحن الثلاثة؟

عندما استلمت رسالة جدّتي - والتي افترض أبي على الفور أنّني سأوافق عليها، من دون طرح أسئلة - بحثت على الفور عن قريبيّ عبر الإنترنت. كان من السهل العثور على ميلي على وسائل التواصل الاجتماعي. فأرسلت طلب متابعة على إنستاغرام ووافقَت عليه

على الفور، الأمر الذي أتاح لي الاطّلاع على صفحتها المليئة بصور لها ولصديقاتها. كنّ جميعاً جميلات، ولا سيّما ابنة عمّتي. فهي بيضاء يابانية الملامح، وتبدو أكثر منّي شبهاً بآل ستوري، بشعرها الأسود وقامتها النحيلة، وعينيها الكبيرتين المعبّرتين وعظام وجنتيها الفاتنتين. أمّا أنا بالمقابل، فأُعتبر أكثر شبهاً بأمّي، بشعري الأشقر والنمش الذي يغطّي وجنتَيّ وجسمي الرياضي. كانت السمة الوحيدة التي أشترك فيها مع جدّتي الأنيقة هي وحمة على ساعدي الأيمن. فجدّتي تملك واحدة بالحجم والشكل نفسيهما تقريباً على يدها اليسرى.

ليست لديّ أدنى فكرة عن شكل جونا. فأنا لم أتمكّن من إيجاده على أيّ وسيلة من وسائل التواصل الاجتماعي باستثناء فايسبوك، وكانت صورة ملفّه الشخصي هناك عبارة عن رمز الحمض النووي. كان لديه سبعة أصدقاء، وأنا لست واحدة منهم لأنّه لم يقبل طلبي حتّى الآن.

بالكاد نشر جونا شيئاً في محادثتنا الجماعية باستثناء الشكوى. فهو أكثر غضباً منّي ومن ميلي بشأن إرساله إلى جزيرة النورس في الصيف. والآن، مع خروج توماس من مرآب مركز الترفيه، ألهيت نفسي بإلقاء نظرة أخرى على محادثة الأمس.

جونا: هذا هراء، يجب أن أكون في المخيّم هذا الصيف.

ميلي: ماذا، هل أنت مستشار؟

جونا: لم أقصد هذا النوع من المخيّمات، بل مخيّم علمي، وهو تنافسي جدّاً. يكاد يكون من المستحيل الانضمام إليه، والآن يُنتظر منّي تفويته؟

جونا: ومن أجل ماذا؟ من أجل وظيفة تنظيف مراحيض بالحدّ الأدنى للأجور لدى

امرأة تكره أهلنا وتكرهنا نحن أيضاً على الأرجح.

أوبري: نحن لن ننظّف المراحيض. ألم تقرأ رسالة إدوارد الإلكترونية؟

جونا: من؟

أوبري: إدوارد فرانكلين، منسّق التوظيف الصيفي. ثمّة كثير من الوظائف التي يمكنك الاختيار من بينها. وقد قرّرت أن أكون منقذة.

جونا: حسناً، طوبى لك.

ميلي: لا داعي لأن تكون بهذه السخافة.

ميلي: وكذلك، مَن يقول "طوبى لك" في هذا الزمن؟ كم عمرك، 80؟

ثمّ تجادلا لمدّة عشر دقائق بينما اختفيت من المحادثة لأنّني... لستُ من عشّاق المواجهة.

آخر مرّة رأيت فيها أيّاً من أفراد آل ستوري كانت مباشرة بعد انتقالنا إلى ولاية أوريغون، عندما أتى شقيق أبي الأصغر في زيارة خاطفة في عطلة نهاية الأسبوع. لم ينجب العمّ آرتشر أولاداً، ولكن بمجرّد وصوله، هبط عليّ مثل خبير ليغو لمساعدتي في المدينة التي كنت أقوم ببنائها. وبعد بضع ساعات، تقيّأ في صندوق ألعابي. ولم أدرك إلّا مؤخّراً أنّه كان يشرب طوال الوقت.

اعتاد أبي أن يطلق على نفسه وإخوته لقب الألِف الرباعي، عندما كان لا يزال يتحدّث عنهم بانتظام. ولد آدم وآندرز وأليسون وآرتشر بفارق عام بين بعضهم البعض. وكان لكلّ منهم دوره المميّز في الأسرة: كان آدم الفتى الرياضي الذهبي، وآندرز الفتى

اللامع غريب الأطوار، وأليسون الفتاة الجميلة، وآرتشر المهرّج الساحر.

كان العمّ آندرز، والد جونا، الوحيد الذي لم يرث ملامح العائلة الجميلة. ففي الصور القديمة، يظهر قصيراً ونحيلاً وحادّ الملامح، حاجباه أشبه بندبتين مائلتين مع ابتسامة ساخرة وشفتين رقيقتين. هكذا أتخيّل جونا كلّما قرأتُ رسائله.

كنت على وشك أن أضع هاتفي جانباً عندما ظهرت رسالة جديدة، وكانت موجّهة من ميلي إليّ. وللمرّة الأولى، لم تضمّن جونا. أوبري، لديّ سؤال مهمّ: أهو إحساسي فقط، أم أنّ جونا لا يطاق؟

ارتسمت ابتسامة على زاويتي فمي وأنا أجيبها، كلّا ليس شعورك وحدك. فتحتُ صندوق القفّازات في سيّارة توماس، الذي يحتفظ فيه بتشكيلة من الوجبات الخفيفة، وأخرجت فطيرة بالسكّر البنّي والقرفة. لم تكن المفضلة لديّ، لكنّ معدتي بدأت تقرقر جوعاً.

ميلي: أنا أعني أنّه ما من أحد منّا سعيد بهذا الأمر. قد لا أكون مشاركة في مخيّم العباقرة، ولكن أنا أيضاً لديّ أمور أفضل لفعلها.

قبل أن أتمكّن من الردّ، ظهرت رسالة أخرى، وكانت من جونا في الدردشة الجماعية: موعد العبّارة ليس مناسباً ولا أرى جدوى من وصولنا معاً على أيّ حال.

ميلي: يا إلهي كم هو بغيض؟؟؟

جونا: المعذرة؟

ميلي:...

ميلي: أنا آسفة، أجبتُ في الدردشة الخاطئة.

ميلي، في دردشتنا الخاصّة: تبّاً.

ضحكتُ وفمي ممتلئ بالطعام، فالتفت إليّ توماس. سألني: "ما الذي يضحكك؟".

ابتلعتُ ما في فمي مجيبة: "إنّها ابنة عمّتي ميلي. أعتقد أنّني سأحبّها".

"هذا جيّد. على الأقلّ، لن يكون صيفاً فاشلاً بالكامل".

ضرب توماس بأصابعه على جانب من عجلة القيادة وهو ينعطف في الشارع الذي أقطن فيه. كان ضيّقاً ومتعرّجاً، ومليئاً بالمنازل المتواضعة أو المؤلّفة من طابقين. كان من المفترض أن يكون منزلنا المبدئي، الذي كان والدي ينوي شراءه بعد نشر روايته الأولى منذ نحو عشر سنوات. لم يحقّق الكتاب الرواج المتوقّع، لكنّ آراء النقّاد كانت جيّدة بما فيه الكفاية ليتلقّى عرضاً بتوقيع عقد من أجل رواية ثانية. غير أنّه لم يكتب هذه الرواية بعد، على الرغم من أنّ التأليف يعتبر العمل الوحيد الذي مارسه منذ أن كنت في المدرسة الابتدائية. لطالما اعتقدت أنّه يتقاضى أجراً مقابل قراءة الكتب، وليس كتابتها، لأنّ هذا كلّ ما فعله في حياته. لكن اتّضح أنّه لا يتقاضى أجراً على الإطلاق.

أوقف توماس السيّارة في الطريق المؤدّي إلى منزلنا ولكنّه لم يطفئ المحرّك. سألته: "هل ترغب في الدخول؟".

"ممم". أخذ توماس نفساً عميقاً ويده لا تزال تطرق على عجلة القيادة. "بصراحة، أعتقد...".

لعقت شفتيّ اللتين كانتا بطعم القرفة والكلور وأنا أنتظره ليتابع. وعندما طال

صمته، حثثته قائلة: "ماذا تعتقد؟".

توتّرت كتفاه، ثمّ هزّهما مجيباً: "ليس اليوم، لديّ ما أفعله".

لم أكن أملك الطاقة لسؤاله عمّا لديه، لذلك انحنيت نحوه من أجل قبلة، لكنّ توماس تراجع قائلاً: "من الأفضل ألّا نفعل، فأنا لا أريد أن ألتقط العدوى".

تراجعت وقد شعرتُ بالحرج. أعتقد أنّ هذا ما أناله من الكذب. "حسناً، ستراسلني لاحقاً؟".

أجابها: "بالتأكيد". حالما خرجتُ من السيّارة وأغلقتُ الباب، تراجع بسيّارته إلى الخلف. فراقبته وهو يسير في طريقه مع إحساس غير مريح في معدتي. صحيح أنّ توماس لا ينتظرني لكي أدخل المنزل قبل أن ينصرف، لكنّه لا يغادر عادة بهذه السرعة.

كان الهدوء مخيّماً على المنزل عندما دخلت. فحين تكون أمّي في البيت، تشغّل الموسيقى دائماً، وعادة ما تستمع إلى موسيقى التسعينيات التي كانت تحبّها في الكلّية. فظننت للحظة مليئة بالأمل أنّني سأنفرد بنفسي لبعض الوقت، لكن لم تكد قدماي تطآن غرفة المعيشة حتّى تناهى إليّ صوت والدي.

"لقد عدتِ باكراً".

تشنّجت معدتي وأنا أستدير لأراه جالساً على كرسيّ جلدي بذراعين، كبير جدّاً على الزاوية الضيّقة في غرفة المعيشة. إنّه كرسيّ الكتابة، الذي اشترته أمّي عندما نُشر كتابه. كان سيبدو أفضل في أحد تلك المكاتب مع أرفف كتب ممتدّة من الأرض إلى السقف، ومكتب ضخم من خشب الماهوغاني، وموقد. كانت هرّتنا إلواز ممدّدة على حجره. عندما

لزمت الصمت، سألني: "كيف كانت المباراة؟".

نظرتُ إليه شزراً. لا يمكنه أن يتوقّع منّي الإجابة على هذا السؤال. ليس بعد القنبلة التي فجّرها في الليلة الماضية. لكنّه اكتفى بالتحديق إليّ بهدوء، واضعاً إصبعه في الكتاب الذي بين يديه لتحديد الصفحة التي يقرأها. عرفت الغلاف، الخطّ الأسود الداكن فوق خلفيّة باهتة تشبه الألوان المائية تقريباً. صمتٌ وجيز، بقلم آدم ستوري. إنّها روايته، التي يتناول فيها قصّة رياضي جامعي سابق حقّق النجومية الأدبية، ثمّ أدرك أنّ ما يريده حقّاً هو عيش حياة بسيطة بعيداً عن الأنظار، لكنّ معجبيه لا يتركونه وشأنه.

أنا واثقة من أنّ والدي كان يأمل أن يتحوّل الكتاب إلى سيرة ذاتية له. ومع أنّ ذلك لم يحدث، إلّا أنّه ما زال يقرأه مرّة واحدة في السنة على الأقلّ.

قلت في نفسي وقد بدأ غضبي يتصاعد، عليك ذلك، فما من أحد سواك يقرأه.

لكنّني لم أقلها. "أين أمّي؟".

"أمّك..." تردّد وهو يغمض عينيه نصف إغماضة أمام ضوء الشمس الذي دخل عبر النافذة وبلغ عينيه. خلّف الضوء بريقاً في شعره الداكن ومنحه وهجاً ذهبياً لا يستحقّه. شعرت بألم في صدري، وأنا أفكّر كم كنت أقدّر والدي وأنا غافلة عن حقيقته. كيف اعتقدتُ أنّه لامع حقّاً، ومميّز، وينتظره مستقبل مدهش. كنت أشعر بالشرف لأنّه منحني اسماً يبدأ بالحرف أ. كنتُ الألف الخامسة، كما اعتدتُ أن أردّد في نفسي، ويوماً ما سأصبح مثلهم تماماً. ساحرة، وغامضة، ومأساوية بعض الشيء. "والدتك تحتاج إلى بعض الوقت".

"بعض الوقت؟ ماذا فعلَت... هل تركَت المنزل؟". لكن ما إن قلت ذلك، حتّى أدركت أنّ هذا ليس صحيحاً. فمن المستحيل أن تغادر أمّي من دون إخباري.

استيقظت إلواز مجفلة وقفزت على الأرض، ثمّ سارت عبر غرفة المعيشة بتلك النظرة المنزعجة التي تظهر على وجهها كلّما انتهت قيلولتها. قال أبي: "إنّها تمضي فترة ما بعد الظهيرة مع الخالة جيني. بعد ذلك، سنرى". تسلّلت نغمة مختلفة إلى صوته - نفّاذة، مع مسحة خفيّة من الاستياء. "الأمر صعب علينا جميعاً".

حدّقتُ إليه والدماء تنبض في أذنيّ، وتخيّلت نفسي أجيب بالطريقة التي أريد: ضحكة عالية غير مصدّقة. كنت سأضحك طوال الطريق عبر الغرفة إلى أن أصبح قريبة بدرجة كافية لأنتزع الكتاب من بين يديه وأرمي به على رأسه. ثمّ سأقول له الحقيقة: لم يعد ثمّة وجود لكلمة نحن بعد اليوم. لقد تدمّرنا، والذنب ذنبك.

لكنّني لم أقل أو أفعل أيّاً من ذلك. تماماً كما أنّني لم أدفع المدرّبة ماتسون في حوض السباحة. كلّ ما فعلته كان الاكتفاء بإيماءة متصلّبة، كما لو أنّه قال شيئاً منطقياً. بعد ذلك، توجّهت بصمت إلى الطابق العلوي إلى أن وصلت إلى باب غرفة نومي وأسندتُ رأسي على الخشب الأبيض البارد.

هذا ما جنته أيديكم. هذا ما جاء في رسالة جدّتي منذ سنوات خلت، وقد أصرّ والدي دائماً على أنها كانت مخطئة. قال: "لا يمكنني أن أعرف، لأنّ شيئاً لم يحدث. ما من شيء فعلته أنا أو شقيقَيّ أو شقيقتي يبرّر هذا النوع من المعاملة". وقد صدّقته من دون سؤال. صدّقت أنّه كان بريئاً، وأنّه ظُلم، وأنّ جدّتي امرأة باردة، ومزاجيّة، وربّما حتّى مجنونة.

لكن يوم أمس، عرفت كم يمكنه أن يكذب بسهولة.

والآن، لم أعد أعرف ماذا أصدّق بعد اليوم.

الفصل الثالث

جونا

سأتأخّر حتماً.

كنت جالساً في هذه السيّارة منذ ثلاث ساعات تقريباً، أجتاز 75 ميلاً عبر حركة مرور متقطّعة من بروفيدنس إلى هيانيس. كانت رحلة أوبر الأطول والأكثر كلفة التي قمت بها في حياتي.

قال سائقي، فريدريكو ونحن نتقدّم عبر حركة المرور البطيئة صباح يوم السبت في كيب كود: "هذا نموذجي في آخر عطلة أسبوع في يونيو". ضغط على المكابح عندما تحوّلت إشارة المرور التي كنّا على وشك أن نجتازها إلى اللون الأصفر. "ليس باليد حيلة، أليس كذلك؟".

صررتُ على أسناني مجيباً: "كان بإمكانك تجاوز هذه الإشارة، كبداية".

لوّح فريدريكو بيده قائلاً: "الأمر لا يستحقّ العناء، فرجال الشرطة في كلّ مكان اليوم".

أفادت خرائط غوغل أنّنا على بعد ما يزيد قليلاً عن ميل واحد من العبّارة التي ستقلّني إلى جزيرة النورس. ولكن حتّى عندما تجاوزنا الإشارة الحمراء، بالكاد تحرّك خطّ

السيّارات أمامنا. قلت وأنا أميل إلى الأمام حتّى اصطدمت ركبتاي بالمقعد الأمامي: "يُفترض بي أن أنطلق في غضون عشر دقائق". أيّاً يكن من ركب سيّارة فريدريكو آخر مرّة، فهو يحبّ أن تكون المساحة المخصّصة للساقين كبيرة. "هل سنصل في الوقت المحدّد؟".

أجاب متردّداً: "في الواقع، لست واثقاً من ذلك".

أخذت نفساً محبطاً وبدأت أعيد الأوراق إلى المغلّف الذي أحمله. كان مليئاً بالمقتطفات الصحفية والمطبوعات حول جزيرة النورس وميلدريد ستوري، لكنّ معظمها عن الجزيرة، لأنّ ميلدريد منعزلة عملياً. كان الحفل الصيفي السنوي الذي يقام في منتجع النورس الحدث الاجتماعي الوحيد الذي شاركت فيه. وثمّة صورة لها في مجلّة النورس في حفل العام الماضي ترتدي فيه قبّعة عملاقة وقفّازات، كما لو كانت ملكة إنكلترا. وكان دونالد كامدن، محاميها ومرسل الرسالة الشهيرة، هذا ما جنته أيديكم، واقفاً بجانبها. بدا من أولئك الأنذال المتعجرفين الذين يستمتعون بمهمّة كهذه.

تُعرف ميلدريد الآن بكونها راعية للفنون. إذ يبدو أنّها حصلت على مجموعة خاصّة ضخمة من اللوحات والمنحوتات، وتُنفق كثيراً من المال في دعم الفنّانين المحلّيين. وربّما تكون السبب الوحيد في استمرار وجود مجتمع فنّانين على تلك الكومة من الصخور باهظة الثمن التي يسمّونها جزيرة. وهذا أمر يُحسب لصالحها، على الأقل.

يحتوي الجزء الخلفي من المغلّف على بعض المعلومات المتعلّقة بأوبري وميلي وأهلهما. مراجعات قديمة لكتاب آدم ستوري، تغطية لمباريات السباحة التي تشارك فيها أوبري، مقال عن توشي تاكاهاشي، الذي يصبح شريكاً في أحد أكبر مكاتب المحاماة في نيويورك. حتّى إنّني عثرت على مقالة قديمة في نيويورك تايمز، تتناول حفل زفافه هو

وأليسون ستوري منذ نحو عشرين عاماً. غير أنّني لم أجد شيئاً عن طلاقهما.

قد يكون من الغريب بعض الشيء أن أحمل كلّ هذا معي، ولكنّني لا أعرف هؤلاء الناس. وعندما أجهل شيئاً، فإنّني أدرسه.

دسست المغلّف في حقيبتي القماشية وأغلقت السحّاب. إنّها واحدة من تلك الحقائب كبيرة الحجم التي يفترض أن تكفي ولداً خلال مخيّم صيفي لأسبوعين. وينبغي أن تدوم معي لشهرين، ولكنّني لا أحمل فيها الكثير. سألت فريدريكو: "ألا تعرف طرقاً خلفية؟" كان قد بقي لي من الوقت ثماني دقائق.

أجاب فريدريكو وهو يلقي نظرة خاطفة عليّ في المرآة: "هذه طرق خلفية. ما مدى سرعتك؟".

"ماذا؟".

"هل يمكنك الجري مسافة ميل في خمس دقائق؟".

زفرت عندما استوعبت قصده. "لا يمكنك أن تكون جادّاً".

"نحن لا نتحرّك أيّها الفتى. لو كنت مكانك، لفضّلتُ الجري".

حوّل اليأس صوتي إلى زمجرة. "أنا أحمل حقيبة!".

هزّ فريدريكو كتفيه مجيباً: "لكنّك تتمتّع باللياقة، أليس كذلك؟ إمّا ذلك، أو تفوّت تلك العبّارة. متى تنطلق العبّارة التالية؟".

"بعد ساعتين ونصف". نظرت إلى لوحة السيّارة - باقٍ سبع دقائق - واتّخذت

قراري. "تبّاً، أنا ذاهب". الميل ليس بالمسافة الطويلة، أليس كذلك؟ لا يمكن أن يكون الأمر بهذا السوء، ولا بدّ أنّه أفضل من الانتظار على الرصيف ثلاث ساعات تقريباً. ضغط فريدريكو على الفرامل لكي أتمكّن من النزول، ثمّ وضعت أحزمة الحقيبة حول كتفيّ مثل حقيبة ظهر كبيرة.

أشار من النافذة: "بحسب نظام تحديد المواقع، اتّجه يميناً. سيتعيّن عليك الجري باتّجاه مستقيم على هذا الطريق. حظّاً طيّباً".

لم أجبه، بل توجّهت إلى العشب على طرف الطريق وبدأت الجري. لمدّة ثلاثين ثانية تقريباً، كانت الأمور على ما يرام، ثمّ انهار كلّ شيء فجأة: أخذت الحقيبة تضرب بقوّة على ظهري، واستطعت أن أشعر بالحجارة تحت النعلين الرقيقين لحذائي الرياضي الرخيص، كما بدأت رئتاي تؤلمانني. كان فريدريكو مخطئاً، أنا لا أتمتّع باللياقة. أنا أبدو كذلك، لأنّني أمضي ساعات كلّ يوم في حمل الصناديق، لكنّني لم أركض لمسافة طويلة منذ زمن. قدرة رئتيّ ضعيفة وتسوء بسرعة.

لكنّني واصلت التقدّم، وحاولت إطالة خطواتي لأنّ سرعتي غير كافية. جفّ حلقي وبدأ يؤلمني، وشعرت أنّ رئتيّ على وشك الانفجار. مررت بنزل رخيص، وبمطعم للمأكولات البحرية، وملعب ميني غولف. كان الهواء حارّاً ورطباً، من النوع الذي يستقرّ على البشرة حتى لوك نتُ واقفاً، بينما كسا العرق شعري والتصق قميصي القطني بصدري.

كان ذلك خطأً كبيراً، لا بل فادحاً. كيف سأشرح انهياري على جانب الطريق في كيب كود لوالديّ؟

واصلت الجري بطريقة ما، والحقيبة تجرد ظهري مع كلّ خطوة. أحرق العرق

عينيّ وبالكاد استطعت أن أبصر، لكنّني واصلت رفّ جفنيّ إلى أن لمحت حافة مبنى أبيض منخفض. لاح على مسافة أقرب، ورأيت طريقاً مرصوفاً بالحصى ولافتة كُتب عليها هيئة البواخر. لا أعرف كم مرّ من الوقت، لكنّني وصلت.

جررت نفسي إلى مكتب التذاكر، وأنا ألهث. نظرت إليّ المرأة الجالسة خلف الزجاج، وبدت ملامح التسلية على وجهها المزيّن بمكياج ثقيل والذي تعلوه غرّة شقراء. "استرخ أيّها الوسيم، أنت صغير جدّاً بالنسبة إليّ".

قلت وأنا ألهث وأُخرج محفظتي من جيبي: "تذكرة. على... العبّارة... الحادية... والعشرين".

هزّت رأسها يميناً ويساراً، وشعرت أنّ قلبي على وشك التوقّف. قالت بعد ذلك: "أنت تحبّ الوصول في اللحظة الأخيرة، أليس كذلك؟ كادت أن تفوتك. ثمن التذكرة ثمانية عشر دولاراً".

لم يتبقَّ لديّ أنفاس كافية لأشكرها. لذلك اكتفيت بالدفع، وأخذت تذكرتي، ثمّ عبرت الأبواب المؤدّية إلى المحطّة. كانت أكبر ممّا ظننت، لذلك حثثت خطاي نحو المخرج، وأنا أضغط بإحدى يديّ على الغرزة في جنبي.

كان ثمّة احتمال بنسبة خمسين بالمائة أن أنهار قبل أن أصعد على متن هذا القارب.

عندما وصلت إلى الرصيف، وجدته شبه خالٍ، في ما عدا حفنة من الأشخاص الذي يلوّحون للعبّارة. وقف رجل يرتدي قميصاً أبيض وبنطالاً أسود عند مدخل ممرّ يربط الرصيف بالقارب. تحقّق من ساعته، ثمّ أمسك بسلسلة متدلّية على الأرض، وثبّتها عبر القائمتين من

جانبَي الممرّ. نظر بعد ذلك إلى الأعلى، ورآني وأنا أندفع نحوه مادّاً يدي بتذكرتي.

قلت في نفسي، لا تفعل، لا تكن حقيراً.

أخذ تذكرتي وفكّ السلسلة. "وصلتَ في الوقت المناسب. رحلة سعيدة، يا بنيّ".

ليس حقيراً، حمداً لله.

ترنّحتُ على الجسر وعبر مدخل العبّارة، وأنا أتأوّه تقريباً عندما استقبلتني برودة المكيّف، إلى أن تهاويتُ على مقعد أزرق. بحثت في حقيبتي عن زجاجة المياه، ثمّ فتحت الغطاء، وأفرغت كلّ ما فيها تقريباً في ثلاث جرعات طويلة. بعد ذلك، سكبت الباقي على رأسي.

ملاحظة لنفسي: ابدأ الجري هذا الصيف، لأنّ وضعك كان مثيراً للشفقة.

تجاهلني بقيّة الركّاب جميعاً. بدوا مستعدّين تماماً لقضاء الإجازة، إذ اعتمروا قبّعات البيسبول، وانتعلوا شباشب الإصبع، وارتدوا قمصاناً قطنية أدركتُ أنّها شعار جزيرة النورس غير الرسمي، وكان عبارة عن دائرة بداخلها رسم نورس والأحرف الأولى من اسم الجزيرة.

بقيت ساكناً حتّى عاد تنفّسي إلى طبيعته، ثمّ أخرجت كتيّباً سياحياً عن جزيرة النورس من حقيبتي وفتحته على قسم التنقّل في الوسط. تستغرق الرحلة ساعتين وعشرين دقيقة، وسنمرّ بجزيرتَي مارتا فينيارد ونانتوكيت في طريقنا. جزيرة النورس أصغر منهما - وهذا يعني أنّها صغيرة بالفعل، إذ يبلغ طول نانتوكيت أربعة عشر ميلاً فقط - وهي بحسب الكتيّب "أبعد مسافة وأكثر وعورة".

الترجمة: عدد أقل من الفنادق وشواطئ أسوأ.

وضعتُ الكتيّب من يدي ورحتُ أتأمّل الحشد. يبدو أنّ الناس يتركون أمتعتهم أينما اتّفق، لذلك أقحمتُ حقيبتي تحت مقعدي ونهضت. لا بأس من استكشاف المكان قليلاً. اتّجهت إلى سلّم بجوار مطعم الوجبات الخفيفة، فقرقرت معدتي على الفور. لم أكن قد تناولتُ شيئاً منذ الإفطار، أي منذ خمس ساعات.

بدا الطابق العلوي مشابهاً تقريباً، مع سلّم يصل إلى السطح. وجدتُ نفسي في الهواء الطلق، والركّاب مجتمعين حول الدرابزين المطلّ على المحيط. كان الجوّ ملبّداً بالغيوم، والمطر يهدّد بالهطول قريباً، لكنّ الهواء الذي كان يخنقني على الشاطئ أصبح هنا بارداً ورائحته مالحة. حلّقت طيور النورس فوق القارب مصدرة صرخات صاخبة، وأحاطت بنا المياه من كلّ جانب، ولأوّل مرّة منذ شهر، لم يبدُ لي أنّ هذه أسوأ فكرة خطرت ببالي على الإطلاق.

كنت أشعر بالعطش أكثر ممّا أشعر بالجوع، لذلك قررت العودة إلى الطابق السفلي وشراء شراب من مطعم الوجبات الخفيفة. وبينما أنا منشغل أبحث عن محفظتي للتحقّق من المبلغ الذي بحوزتي، كدتُ أصطدم بشخص يتّجه إلى الأعلى بينما أنا أهبط السلّم.

علا صوت فتاة: "انتبه!".

تمتمتُ: "آسف"، ثمّ نظرت إلى الأعلى وازدردتُ لعابي. "أعني، أوه، مرحباً".

في البداية، كلّ ما لاحظته أنّ هذه الفتاة رائعة الجمال. شعر أسود، وعينان سوداوان، وشفتان ممتلئتان، انحرفتا في ابتسامة ساخرة كان ينبغي أن تكون مزعجة

ولكنّني لم أجدها كذلك. كانت ترتدي فستاناً صيفياً أحمر اللون وتنتعل صندلاً، كما تستعمل نظّارة شمسية لتبعد شعرها إلى الخلف وتضع ساعة يد كبيرة الحجم على معصمها، و- أوه.

أوه، تبّاً. لا أصدّق أنّني لم أتعرّف عليها على الفور. فأنا أعرف بالفعل من تكون هذه الفتاة.

سألتني: "تعني مرحباً؟". اتّسعت ابتسامتها الساخرة، وربّما قصدتها مغوية قليلاً. "هل أنت متأكّد؟".

تراجعتُ إلى الخلف، وقد نسيت أنّني على سلّم، وكدت أسقط. استغرقت بضع ثوان للتفكير في مأزقي وأنا ممسك بالدرابزين لتثبيت نفسي. كنت آمل أن أتجنّب هذه الفتاة بعينها، على الأقلّ حتّى وصولنا إلى جزيرة النورس. ولكن الآن وقد اصطدمت بها حرفياً، أعتقد أنّه لا عودة إلى الوراء.

قلت: "أنا متأكّد. مرحباً، ميلي".

رفّت عينيها بدهشة. خلفنا، تنحنح أحدهم، ثمّ قال بصوت أجش: "المعذرة، أنا أحاول النزول إلى الطابق السفلي". فالتفتُّ لأرى رجلاً مسنّاً يرتدي سروالاً قصيراً مزركشاً بالمربّعات، وقبّعة بيسبول من ريد سوكس يطلّ من فوقي، وقد وضع إحدى قدميه على الدرجة العليا من السلّم.

قلت وأنا أعكس مساري: "مهلاً، نحن صاعدان". فتنحّى جانباً للسماح لي بالمرور، واتّكأتُ على جدار كوّة بجانب السلّم.

تبعتني ميلي، واضعة يديها على وركيها. "هل أعرفك؟".

هذا مضحك، لا أصدّق أنّني انجذبت إليها منذ قليل. وأعتقد أنّها لم تمانع هي الأخرى. كم هذا غريب. "نعم، في الواقع، نوعاً ما. أنا جونا". ثمّ مددت يدي لمصافحتها. اتّسعَت عيناها دهشة، ولم تستوعب. "جونا ستوري".

كرّرَت: "جونا ستوري".

فأوضحتُ لها: "ابن خالك".

حدّقت إليّ ميلي لبرهة، ثمّ صافحتني بحذر شديد بحيث تلامست أصابعنا بالكاد. "أنت جونا؟".

"نعم".

"حقّاً؟".

تركتُ الانزعاج يظهر في صوتي. فهذه علامتي المميّزة، في النهاية. "هل تعانين من مشاكل في السمع؟ لقد رددت بالإيجاب عدّة مرّات".

ضاقت عيناها مجيبة: "أوه، ها أنت أخيراً. لقد ارتبكتُ قليلاً من" - لوّحت بيدها أمام وجهي متابعة: - "أمام مظهرك الشبيه بعارض أزياء لملابس جي كرو. لا بدّ لي من الاعتراف أنّني لم أتوقّع ذلك. فقد ظننت أنّ مظهرك يشبه طريقة كلامك". لم أرغب في التقاط الطعم وسؤالها عمّا تعنيه، ولكنّها واصلت الكلام من دون سؤال. "مثل قزم يعاني من الإمساك".

هذا دليل إبداع، على ما أظنّ. "لقد سررت بلقائك".

تغضّن أنفها وهي ترمقني من رأسي إلى أخمص قدميّ. "ولماذا تتصبّب عرقاً؟".

قاومتُ الرغبة في شمّ نفسي لمعرفة ما إذا كنتُ أفوح برائحة كريهة. ولكن من النظرة التي بدت على وجهها، كان هذا هو الحال على الأرجح. "لا أرى بماذا يعنيك ذلك".

"ولماذا أنت هنا؟ اعتقدت أنّك لا ترى جدوى من وصولنا معاً".

كتفتُ ذراعيّ متمنّياً لو أنّني لم أصعد إلى الطابق العلوي. كان الحديث معها يرهقني، ولست متأكّداً كم يمكنني الاستمرار في ذلك. "لقد تغيّر جدولي الزمني".

أصدرت ميلي بلسانها صوتاً ينمّ عن الاستياء، قبل أن تلوّح بيدها قائلة: "تعال إذاً، فلتتعرّف أيضاً على أوبري". لم أكن في حالة مزاجية لمقابلة مزيد من الناس، ولا بدّ أنّ ذلك ظهر على وجهي لأنّها نظرت إلى الأعلى بسأم وقالت: "صدّقني، لن يسرّها الأمر أكثر منك".

"لا أعتقد-"

تناهى إلينا صوت آخر: "ها أنت ذا! ظننت أنّني أضعتك". كانت فتاة في مثل سنّي ترتدي قميصاً أزرق قصير الكمّين بقبّعة وسروالاً رياضياً قصيراً، شعرها الأشقر مربوط إلى الخلف على شكل ذيل حصان منخفض. كانت لديها حالة واسعة الانتشار من النمش، ذاك النوع الذي لا يغطّي الأنف والخدّين فحسب، بل الجسد بالكامل. كنت قد رأيت وجهها في قصاصات الصحف في ملفّي، مع أنّها كانت تضع فيها قبّعة سباحة. اتّسعت ابتسامة أوبري الموجّهة نحو ميلي عندما لاحظت وجودي. "أوه أنا آسفة، لم أقصد المقاطعة".

قالت ميلي بسرعة: "أنت لا تقاطعيننا". ثمّ أشارت بيدها إليّ كما لو كانت مضيفة

برنامج ألعاب تقدّم جائزة لا يرغب فيها أحد. "احزري من يكون هذا الشابّ، إنّه جونا".

ارتفع حاجبا أوبري، وتنقّل نظرها بريبة بيني وبين ميلي. "حقّاً؟".

هزّت ميلي كتفيها مجيبة: "هكذا يبدو".

ظلّ نظر أوبري يتنقّل بيننا كطابة بينغ-بونغ. عندما لا تبتسم، تبدو على وجهها ملامح ودودة وصادقة. بدا لي أنّها كاذبة فاشلة. "هل تمزحان معي؟".

حان الوقت لكي أتكلّم مرّة أخرى. "أنا آسف، ولكنّني لا أنشر صوري في جميع وسائل التواصل الاجتماعي مثل أولئك الطائشين اليائسين لجذب الانتباه".

أومأت أوبري برأسها قائلة: "أوه، حسناً إذاً. مرحباً جونا". ثمّ نظرت إلى ميلي، التي ظلّ نظرها يسرح إلى المحيط وكأنّها تزن إيجابيات وسلبيات دفعي عن متن القارب. "أنت لا تشبه حقّاً أفراد أسرة ستوري".

أجبتها: "أنا أشبه أمّي".

تنهّدت أوبري وأبعدت عن عينها خصلة شعر شقراء شعّثتها الرياح. "أنا أيضاً". ثمّ أخذت نفساً عميقاً وثبّتت نفسها، كما لو كانت على وشك الغوص في بركة متجمّدة. "هيّا بنا، فلننزل إلى الطابق السفلي ونجلس لبعض الوقت. يمكننا أن نستغلّ الفرصة للتعرّف على بعضنا البعض".

بعد نصف ساعة، كانت ميلي قد اكتفت. أنا لا أعرفها بما فيه الكفاية لأكون متأكّداً، ولكنّني شبه واثق أنّها شعرت بكره شديد وعميق تجاهي على الفور.

لقد أُنجِزت المهمّة على ما أعتقد.

قالت وهي تنهض عن مقعدنا المجاور للنافذة: "أنا أرغب في تناول شراب. أوبري، هل تريدين شيئاً، أم ترغبين في مرافقتي؟".

توقّعتُ أن تنصرف أوبري هي الأخرى، ولكنّها كانت مشتّتة. فبين الحين والآخر، كما هو الحال الآن، كان الحزن يبدو على وجهها وهي تحدّق إلى هاتفها. يبدو أنّها تتوقّع شيئاً ما، ولكنّ الخيبة لا تفارقها. تمتمَت: "كلّا، شكراً". فتوجّهت ميلي نحو السلّم، وخيّم الصمت بينما كانت أوبري منكبّة على تفقّد هاتفها بشكل منهجي. طنّ هاتفي في جيبي، فأخرجته لأجد رسالة نصّية من شخص حفظت اسمه بالحرفين ج ت.

كيف الحال؟

توتّرت كلّ عضلة في جسدي وأنا أجيب، بخير.

أهذا كلّ ما لديك؟

قلت في نفسي، يمكنني أن أضيف تبّاً لك. ولكنّني أجبت بدلاً من ذلك، نعم، عليّ الذهاب.

تجاهلت رنين رسالة جديدة، وأقحمت الهاتف في جيبي مجدّداً، بينما رفعت أوبري كلتا يديها لإحكام ربط شعرها. قالت: "أنا آسفة بشأن مخيّم العباقرة".

"ماذا؟".

أمالت رأسها مجيبة: "هكذا نسمّي أنا وميلي ذاك المخيّم العلمي الذي كنت تريد الذهاب إليه. هل تعتقد أنّك ستنال فرصة أخرى؟ ربّما في الصيف المقبل، أم أنّ الأوان قد فات؟".

أجبت: "لقد فات الأوان. كانت الفكرة منه تعزيز عمليّة التقدّم للجامعة". في غياب ميلي، لا يمكنني حقن كلماتي بقدر ما أريد من الازدراء. فالتكلّم مع أوبري بسخرية يبدو أشبه بركل جرو صغير.

"هذا مؤسف. بصراحة، لم أكن متأكّدة من أنّك ستأتي. فقد بدوتَ عازماً على عدم المجيء".

"تبيّن لي أنّه لا خيار لديّ".

قالت أوبري: "لا أعتقد أنّ أيّاً منّا كان لديه الخيار". ثمّ كتفت ساقاً فوق الأخرى وراحت تهزّ قدمها، وهي تحدّق من النافذة إلى السماء الملبّدة بالسحب. كانت المسافة بين جزيرتَي هيانيس والنورس تبلغ خمسة وثلاثين ميلاً، ويبدو أنّنا نتّجه نحو طقس عاصف. "كيف هو والدك؟ العمّ آندرز". لفظت الاسم كما لو كان شخصية سينمائية. "أعتقد أنّني رأيتكم آخر مرّة عندما كنتُ في الخامسة؟ أنا لا أستطيع أن أتذكّره على الإطلاق".

"إنّه - حادّ".

شردت عينا أوبري الزرقاوين بعيداً. "لا يتحدّث أبي كثيراً عن أبيك. ربّما كان يملك قواسم مشتركة أكثر مع العمّة أليسون، ويبدو أنّ لديه مشاعر حمائية تجاه العمّ آرتشر، ولكن بالنسبة إلى أبيك؟ بالكاد يذكره. ولا أعرف السبب".

ابتلعت ريقي ولعقت شفتيّ. كنت على أرضية غير مستقرّة، ولست متأكّداً كم ينبغي أن أقول. "كان أبي... دائماً من النوع الغريب الذي لا ينسجم مع الناس. أعتقد أنّ هذا ما كان يشعر به، على الأقلّ".

"وهل أنتما مقرّبان؟".

أنا وذاك الوغد؟ مستحيل. كتمتُ الحقيقة وحاولت أن أهزّ كتفيّ بلا مبالاة. "أنت تعرفين كيف هي الأمور".

"أعرف، لا سيّما في الآونة الأخيرة". بدأ المطر يتساقط على النافذة المجاورة لنا، فكوّرت أوبري يديها على الزجاج لتحدّق إلى الخارج. "هل تعتقد أنّها ستلاقينا عند الرصيف؟".

سألتها: "ميلي؟ ما الأمر، هل تظنّين أنّها ستكون قد وجدت رفقة أفضل؟". آمل ذلك.

أجابت أوبري ضاحكة: "كلّا، بل الجدّة".

لم أستطع مقاومة ضحكي المفاجئ. نشعر أنا وأوبري بالراحة مع بعضنا البعض، وهذا ليس جيّداً. فبتعبير جميع متسابقي تلفزيون الواقع: أنا لست هنا لتكوين صداقات. أجبتها ساخراً: "نعم، صحيح، هي التي لم تكلّف نفسها عناء إرسال رسالة ثانية".

بدا الحزن على وجه أوبري: "أنت أيضاً؟ لقد كتبت لها ستّ مرّات ولم أسمع منها شيئاً".

"لم أكتب لها مرّة واحدة، والنتيجة نفسها".

"الجوّ بارد جدّاً". ارتجفت أوبري قليلاً، لكنّني أعلم أنّها لا تتحدّث عن الحرارة. "أنا لا أفهم. فمن السيّئ بما فيه الكفاية أن تكلّمنا للمرّة الأولى في حياتها، لتعرض علينا عملاً، كما لو كنّا أجراء ولسنا أفراد أسرة. ولكن ألا تكلّف نفسها عناء البقاء على اتّصال

بنا؟ ما الهدف من كلّ هذا، إن لم تكن مهتمّة بالتعرف إلينا؟".

"عمالة رخيصة". قلتها على سبيل المزاح، لكنّ فم أوبري عبّر عن مزيد من الحزن. كنت على وشك الاستئذان للابتعاد عندما لمحتُ وميضاً أحمر على السلّم: لقد عادت ميلي. كان ينبغي لذلك أن يدفعني إلى الابتعاد بسرعة أكبر، ولكن لسبب ما لازمتُ مكاني.

"تفضّلا يا قريبَيّ". عادت ميلي حاملة أربعة أكواب بلاستيكية، أحدها مليء بسائل صافٍ ومزيّن بقطعة ليمون، وثلاثة أكواب فارغة إلّا من الثلج. جلسَت بجوار أوبري وبدأَت تصبّ الكأس الممتلئ في الثلاثة الأخرى بشكل متساوٍ حتّى فرغ. عندما انتهت، أعطتني كوباً وأعطت آخر لأوبري. "بصحّة - لا أدري. لقاء ميلدريد الغامضة أخيراً، على ما أظنّ". قرعنا الأكواب ببعضها، وأخذت أوبري جرعة طويلة من كوبها.

"أووه!" بصقَت أوبري الشراب على الفور: "ميلي، ما هذا؟" ناولتها ميلي منديلاً، من دون أن تتأثّر. ثمّ نزعت قطعة الليمون من الكوب الفارغ وعصرت القليل في كوب كلّ منّا. "أنا آسفة، نسيتُ الليمون. إنّه مشروب".

"حقّاً؟" كشّرت أوبري ووضعت الكوب على الطاولة. "شكراً، لكنّني لا أشرب. كيف حصلتِ عليه؟".

"لديّ أساليبي". راقبت ميلي صفّاً من الناس يهبطون السلّم من الطابق العلوي هرباً من العاصفة الممطرة، ثمّ ركّزت انتباهها علينا أنا وأوبري. "إذاً، الآن وقد عرفنا المسائل السطحية، فلننتقل إلى المهمّ. ما الذي لم نقُله لبعضنا البعض؟".

تنحنحتُ متسائلاً: "هاه؟".

هزّت ميلي كتفيها قائلة: "هذه الأسرة بأكملها مبنيّة على الأسرار، أليس كذلك؟ إنّه إرث آل ستوري. وقد يكون لديكما على الأرجح بعض القصص الدسمة". ثمّ أمالت كأسها نحوي قائلة: "تكلّم".

ألقيت نظرة على أوبري، التي شحب لونها تحت النمش. شعرت بعضلة في فكّي ترتعش وأنا أجيب: "ليس لديّ أسرار".

قالت أوبري بسرعة: "ولا أنا". كانت يداها منقبضتَين في حضنها، وبدت على وشك التقيّؤ أو البكاء. كنت على حقّ، إنّها كاذبة فاشلة، لا بل أسوأ منّي. مع ذلك، لم تكن ميلي مهتمّة بمطاردة أوبري، بل التفتت نحوي ومالت إلى الأمام، وانزلقت ساعتها الكبيرة على ذراعها وهي تسند ذقنها بيدها. قالت وهي تأخذ رشفة من مشروبها: "لكلّ منّا أسراره، هذا أمر لا جدال فيه. والسؤال الوحيد هو ما إذا كنتَ تحتفظ بسرّك أم بسرّ شخص آخر".

تجمّعت قطرة عرق على جبيني، وقاومتُ الرغبة في مسحها وأنا أزدرد نصف شرابي. لم أكن أحبّ هذا النوع من الشراب، ولكنّ عبارة أيّ ميناء في العاصفة تبدو استعارة مناسبة في الوقت الحاليّ. حاولت أن أرسم تعبيراً متراوحاً بين الملل والإنزعاج. "ألا يمكن أن يكون كليهما؟".

بدأ المطر يتساقط كالسياط على النافذة خلف ميلي بينما التقت أنظارنا. سألتني وهي تقوّس حاجبيها: "معك يا جونا؟ أعتقد أنّ هذا ممكن".

الفصل الرابع

ميلي

تساءل جونا: "لا تعدّ خلّابة، أليس كذلك؟".

استرقتُ نظرة إليه من وراء أوبري. كان المطر قد توقّف، وكنّا على السطح نراقب اقترابنا من جزيرة النورس. أسند جونا ساعديه على الدرابزين وانحنى إلى الأمام، بينما أخذت الرياح تعبث بشعره البنّي الداكن المتموّج الذي بدا خليطاً بين شعر أوبري الأشقر وشعري الأسود تقريباً. كانت ذقنه المروّسة التي أذكرها قد تحوّلت إلى فكّ مربّع، وأضفى عليه مقوّم الأسنان وسامة كبيرة. ليس لأنّه يبتسم كثيراً.

قالت أوبري، وهي ترفع صوتها ليعلو على هدير محرّك العبّارة: "أعتقد أنّها جميلة!". انحرف القارب بحدّة إلى جانب واحد، مرسلاً رذاذاً من الزبد الأبيض في الهواء. فتمسّكتُ بالدرابزين بإحكام بإحدى يديّ، واستعملتُ الأخرى للانغماس في عادة عصبية تكرهها والدتي - إدخال عقدة إبهامي بين أسناني. كان طعم بشرتي مالحاً، ولكنّه أفضل من الهواء العابق برائحة العادم الذي نتنفّسه.

قلت: "أنا أيضاً".

خرجت كلماتي بشكل تلقائي، كرغبة فطرية في الاختلاف مع جونا، ولكنّه كان

محقّاً. فحتّى من بعيد، تبدو الجزيرة مسطّحة وغير ملفتة للنظر، محاطة بشريط من الشاطئ الأصفر الباهت الذي يذوب في محيط رمادي بلون السحب الكثيفة المنخفضة التي تحيط بنا. انتشرت بيوت بيضاء صغيرة على الخطّ الساحلي أمام خلفيّة من الأشجار القصيرة، وكانت بقعة اللون الوحيدة عبارة عن منارة حمراء قصيرة مخطّطة باللون الأزرق الزاهي.

قالت أوبري: "إنّها صغيرة جدّاً. آمل ألّا نصاب بحمّى الجُزر".

أخرجتُ مفصلي من فمي وأنزلت ذراعي، وقد شعرت بثقل ساعتي وهي تنزلق على معصمي في أثناء ذلك. كانت ساعة جدّي القديمة البالية من ماركة باتيك فيليب التذكار الوحيد الذي أعطته جدّتي لوالدتي قبل أن تنقطع الصلة بينهما. وعلى الرغم من محاولات والدتي إصلاح الساعة، إلّا أنّها ظلّت معطّلة. فهي تشير دائماً إلى الساعة الثالثة، ولذلك لا تصيب سوى مرّتين في اليوم - كما هو الحال الآن تقريباً، على الأرجح. قلت: "ربّما ستُجهدنا ميلدريد في العمل لدرجة أنّنا لن نلاحظ".

نظرت إليّ أوبري متسائلة: "هل تناديها ميلدريد؟".

"نعم، وماذا عنك؟".

"أناديها جدّتي. فأبي يقول دائماً جدّتك، لذلك أعتقد أنّني سأناديها كذلك". التفتَت إلى جونا وسألَته: "وأنت، ماذا تناديها؟".

أجاب بإيجاز: "لا شيء".

لزمنا الصمت لبضع دقائق، بينما واصلت العبّارة تقدّمها نحو الشاطئ. أصبحت

البيوت البيضاء أكبر حجماً، وبدا شريط الرمال الأصفر بوضوح أكبر. سرعان ما اقتربنا من المنارة بحيث أمكنني رؤية الناس يتجوّلون حول قاعدتها. كان رصيف الميناء مزدحماً بالقوارب، ومعظمها أصغر بكثير من عبّارتنا، وأخيراً توقّفنا تماماً بين قاربين. ارتفع صوت القبطان عبر جهاز الاتّصال الداخلي مع انطفاء ضجيج المحرّك فجأة: "أهلاً بكم في جزيرة النورس!".

قالت أوبري بعصبية وهي تتفحّص الحشود على الرصيف في الأسفل: "إنّها مزدحمة".

قال جونا وهو يستدير من الدرابزين نحو السلّم: "إنّها مركز سياحي، هل عرفتِ كم تكلفة الغرف في منتجع النورس؟ لقد فقد الناس عقولهم". ثمّ هزّ رأسه مضيفاً: "الشواطئ أفضل بكثير في مارتا فينيارد أو نانتوكيت، ولكن لسبب ما أصبحت الجزيرة نقطة بيع ناجحة على الرغم من كونها الجزيرة الأصغر والأسوأ، لأنّها خارج المسار المعتاد".

عندما اقتربنا من مخرج العبّارة، ابتعد جونا جانباً وأخرج حقيبة قماشية من تحت أحد المقاعد. سألنا أنا وأوبري: "أين أمتعتكما؟".

قلت وأنا أرمق حقيبته: "لقد وضعناها في مستودع العبّارة عند صعودنا، هل هذا كلّ ما أحضرته؟".

رفع جونا الحقيبة على كتفه مجيباً: "لا أحتاج إلى الكثير".

انخرطنا في الحشد الذي يغادر العبّارة، وتبعنا الممرّ الضيّق من القارب إلى الرصيف. كان حشداً في إجازة، وعلى الرغم من الطقس الغائم، كان الجميع يرتدون السراويل القصيرة ويضعون النظّارات الشمسية وقبّعات البيسبول. بدا ثوبي الأحمر في غير

محلّه تماماً، على الرغم من أنّني ارتديته لسبب. فقد كان ثوب والدتي في المدرسة الثانوية، وهو واحد من الأشياء القليلة التي تمسّكَت بها والتي يمكنني أن أرتديها اليوم. وقد شعرتُ أنّ ارتداءه سيكون أشبه بتلميح خفيف لجدّتي التي جلبتنا كلّ هذه المسافة من دون الاعتراف بأولادها أوّلاً. فهم ما زالوا موجودين يا ميلدريد، سواء أردتِ الاعتراف بذلك أم لا.

ينتهي ممشى العبّارة عند طريق عريض مرصوف بالحصى تحيطُ به مبان متداخلة تتناوب ألوانها بين درجات الأبيض والرمادي. وبمجرّد أن وصلنا إلى الطريق، تنفّستُ بعمق، ثمّ أجفلت قليلاً عندما اشتممت رائحة زهر العسل الممزوجة بالهواء المالح. كان ذاك عطر أمّي المميّز، لكن لم يسبق لي أن اشتممته بشكله الطبيعي من قبل.

امتدّ صفّ من الخيم المطوية المزوّدة بالعجلات على إحدى جهتي الطريق المرصوفة بالحصى. وجدنا أنا وأوبري الرقم 243، كما طُلب منّا عندما أخذ الموظّف حقائبنا، وفتحنا الغطاء. قالت أوبري: "ها هي"، وبدا عليها الارتياح وهي تسحب حقيبة أمتعة وحقيبة ظهر.

ذهبت لإحضار حقائبي. من خلفي، أطلق جونا ضحكة ساخرة تنمّ عن عدم التصديق وأنا أخرج حقيبتين كبيرتين بعجلات، وحقيبة يد أصغر حجماً، وحقيبة كمبيوتر محمول ممتلئة. قال: "لا يمكن أن تكون كلّ هذه لك". وعندما لم أجبه، أضاف: "هل حزمتِ خزانتك بالكامل؟".

ولا حتّى نصفها، ولكن لا ضرورة ليعرف ذلك، ولا أنّ تلك الحقيبة الأصغر لا تحتوي سوى على الأحذية. قلت: "نحن باقون هنا لمدّة شهرين".

ضاقت عينا جونا وهو يتأمّل حقائبي. كانت من ماركة تومي مع غلاف من الألمنيوم المصقول، وأعتقد أنّ من لا يعلم أنّ والدتي اشترتها مستعملة من موقع إيباي، فإنّه سيعتبرها فاخرة بعض الشيء، ولا سيّما وسط هذا الحشد من السراويل القصيرة والقمصان القطنية. لا شكّ في أنّ زوّار جزيرة النورس أثرياء - أثرياء جدّاً - ولكنّهم لا يتباهون بثرائهم. فهذا جزء من السحر المزعوم لهذا المكان. قال جونا: "أعتقد أنّ وضع العمّة أليسون جيّد".

أجبته بحدّة: "أوه، من فضلك، كنتَ ستذهب إلى مخيّم علميّ مكلف طوال الصيف، لذلك لا تحكم عليّ لأنّني أحضرت كثيراً من الأمتعة".

قال جونا: "غير أنّني لم أستطع تحمّل كلفته". ومضت لمحة غضب على وجهه قبل أن يتماسك مجدّداً ويستعيد ملامحه المعتادة التي يطغى عليها الملل والازدراء. "وها أنا الآن هنا بدلاً من ذلك".

أمسكتُ نفسي قبل أن أجيبه بشكل تلقائي، هذا من حسن حظّنا. أنا لا أعرف الكثير عن الأوضاع المالية لقريبَيّ. أعرف أنّ والدة أوبري ممرّضة وأنّ والدها أمضى السنوات العشر الماضية في محاولة تأليف كتاب آخر، لذا من المحتمل أن تكون أسرتها مرتاحة ولكنّها لا تتباهى بذلك. أمّا وضع والدَي جونا فهو أكثر ضبابية. من المفترض أن يكون الخال آندرز مستشاراً مالياً، ولكن من النوع الذي يعمل بشكل مستقلّ وليس في شركة فعلية. قبل أسبوعين، عندما حاولتُ العثور على أيّ معلومات ممكنة عن عائلة جونا على الإنترنت، وجدتُ بالصدفة مقالة صغيرة في مجلّة بروفيدنس حول الخال آندرز وصفه فيها عميل سابق ساخط أنّه "بيرني مادوف رود آيلاند".

لم أكن أعرف من يكون ذاك الشخص، لذلك أجريت بحثاً عنه. ويبدو أنّ بيرني مادوف كان مستشاراً مالياً أُدخل السجن بعد أن خدع آلاف المستثمرين في مخطّط بونزي عملاق. شعرت بالصدمة قليلاً حينذاك - فعائلتنا كانت غريبة دائماً، لكنّها ليست مجرمة على الإطلاق - حتّى واصلتُ القراءة. في النهاية، وعلى الرغم من أنّ بعض العملاء السابقين أبلغوا عنه بتهمة الاحتيال، إلّا أنّ كلّ ما أمكن إثباته أنّ الخال آندرز قدّم نصيحة مالية سيّئة. ولم تكن القصّة كبيرة بما فيه الكفاية لتُذكر في صحف نيويورك، لذلك لم ترها والدتي. ولم تبد عليها الصدمة حقّاً عندما أخبرتها، بل قالت: "ما من أحد يتمتّع بذرّة من المنطق يطلب من آندرز المساعدة في إدارة أمواله".

"لماذا؟ كنت أعتقد أنّه من المفترض أن يكون شخصاً لامعاً".

"هو كذلك، ولكن ثمّة شخص واحد اهتمّ آندرز بمصالحه، ألا وهو آندرز نفسه".

"وماذا عن زوجة خالي فيكتوريا؟ أو جونا؟".

شدّت أمّي على شفتيها مجيبة: "أنا أتحدّث عن العمل وليس عن الأسرة". ولكن من النظرة التي بدت على وجهها، لم تكن تولي اعتباراً كبيراً لهذين الشخصين أيضاً. وقد يكون لذلك علاقة بالتعبير المرير الظاهر على وجه جونا الآن.

حدّقت أوبري حولها إلى الحشد المزدحم الذي يحيط بنا، ثمّ قالت بحزن كما لو أنّها توقّعت حقّاً أن تجد ميلدريد بانتظارنا: "لا أثر لجدّتي. هل يجدر بنا أن نستقلّ سيّارة أجرة إذاً؟".

"أعتقد ذلك، لكنّني لا أرى أيّ سيّارات أجرة". أغمضتُ عينيّ نصف إغماضة أمام أشعّة الشمس التي بدأت تتسلّل من بين السحب وانتزعتُ نظّارتي الشمسية من أعلى

رأسي، ثمّ ثبّتُّ الإطار الكبير المصنوع من صدفة السلحفاة على أنفي.

"أليسون". تمّ تكرار الاسم عدّة مرّات - بالإضافة إلى العبوس الذي ظهر على جبين جونا - قبل أن أبحث عن مصدر الصوت. وقف بجانبي رجل مسنّ وضعيف، ذو شعر أشيب، وعينين بنّيتين مترقرقتين بالدموع، وثبّت نظره على وجهي. كرّر قائلاً بصوت منخفض ومتذبذب: "أليسون، لقد عدتِ. لماذا عدتِ؟".

"أنا..." نقلتُ نظري بين الرجل وقريبَيّ، في حيرة من أمري. سبق أن قال لي الناس إنّني أشبه أمّي - وكانوا يضيفون وهم ينظرون إلى والدي "بشكل مدهش"، ولكن لم يخطئ أحد يوماً بيني وبينها. أهو الفستان، أم النظّارة؟ أم أنّ هذا الرجل مصاب بالخرف؟

قال الرجل وقد بدا عليه الاضطراب: "هل ميلدريد على علم بمجيئك؟ لن يعجبها ذلك يا أليسون. لن يعجبها ذلك إطلاقاً".

شعرتُ بوخز في مؤخّر عنقي. قلت وأنا أنزع نظّارتي: "أنا لست أليسون". ذُهل العجوز وتراجع خطوة إلى الوراء، فعلق كعب حذائه بالحصى. كاد أن يتعثّر، لكنّ أوبري اندفعت إلى الأمام بسرعة البرق وأمسكت بذراعه.

سألَته: "هل أنت بخير؟". غير أنّه لم يجبها، بل ظلّ ينظر إليّ كمن رأى شبحاً، فأضافت: "يبدو أنّك تعرف جدّتنا، ميلدريد ستوري. هذه ميلي، ابنة أليسون، وأنا أوبري. آدم ستوري والدي". ثمّ أشارت إلى جونا بيدها الأخرى: "وهذا جونا، وهو-"

قال الرجل بصوت ضعيف: "آدم، هل آدم هنا؟".

قالت أوبري وهي تبتسم ابتسامة عريضة: "أوه كلّا، أنا فقط. أنا ابنته".

بدا الرجل بائساً وتائهاً، وراح يفتّش بإحدى يديه في جيب سترته الفارغ كما لو أنّه أدرك للتوّ أنّه نسي شيئاً مهمّاً. "كان آدم يملك بذور العظمة، أليس كذلك؟ لكنّه ضيّعها. يا له من فتى أحمق. كان بإمكانه أن يغيّر كلّ شيء بكلمة واحدة".

تلاشت ابتسامة أوبري. "ماذا كان بإمكانه أن يغيّر؟".

"جدّي!" تناهى إلينا صوت متوتّر، فالتفتُّ لأرى فتاة في سنّنا تتقدّم نحونا. كانت قصيرة القامة وقوية البنية، ذات بشرة بنّية مكسوّة بالنمش، يحيط بوجهها شعر أسود. كانت قد كدّست حول معصميها أساور جلدية مجدولة. "طلبتُ منك أن تنتظر أمام سويتفيرن! فوقوف السيّارات مستحيل بسبب كلّ أولئك السائحين اللعينين-" توقّفَت للحظة وهي تنظر إلينا نحن الثلاثة محاطين بحقائب السفر، وكانت أوبري لا تزال تسند جدّها. "أعني الوافدين الجدد. أهو بخير؟" سألَت، وقد بدا القلق في صوتها.

رفّ الرجل عينيه بضع مرّات، كأنّه يحاول لفت انتباهها. تمتم مجيباً: "أنا بخير، يا هيزل. أنا بخير، لكنّني متعب قليلاً وحسب".

أمسكت هيزل بذراع جدّها، وتراجعت أوبري إلى الخلف. قالت معتذرة، مع أنّ العكس هو الصحيح: "أظنّ أنّنا فاجأناه. يبدو أنّه يعرف جدّتنا".

سألَت هيزل: "حقّاً؟ ومن تكون جدّتكم؟".

"ممم، ميلدريد ستوري؟" قالت أوبري ذلك كما لو أنّها غير متأكدة من أنّ الفتاة تعرف صاحبة الاسم، لكن عينَي هذه الأخيرة اتّسعتا دهشة على الفور، ثمّ ارتسمت ابتسامة على وجهها الذي كان يطغى عليه التوتّر والقلق.

"مستحيل! هل أنتم من آل ستوري يا رفاق؟ وماذا تفعلون هنا؟".

أجابت أوبري: "نحن نعمل في منتجع جدّتنا هذا الصيف".

انتقلت نظرات هيزل بيننا نحن الثلاثة باهتمام شديد. "هذا رائع. أهذه المرّة الأولى التي تزورون فيها جزيرة النورس؟" أومأنا برأسنا أنا وأوبري، بينما شدّت الفتاة على ذراع جدّها قائلة: "جدّي، لماذا لم تخبرني أنّ أحفاد آل ستوري سيمضون الصيف هنا؟ لا بدّ أنّك تعرف، أليس كذلك؟".

قال العجوز وهو يبحث في جيب سترته الصوفية مجدّداً: "كلّا".

"ربّما نسيت". التفتت إلينا وأضافت بصوت أكثر انخفاضاً: "جدّي يعاني من الخرف في مراحله المبكرة. في بعض الأحيان يكون بخير، لكن في أحيان أخرى يشعر بالإرباك الشديد. مع ذلك، فإنّه صديق السيّدة ستوري، وكان طبيب عائلتها، ولذلك يعرف أهاليكم جيّداً. بالمناسبة، أنا هيزل باكستر كليمنت، وجدّي هو الدكتور فريد باكستر".

عرفتُ الاسم على الفور. "بالطبع! اعتادت والدتي على القول إنّه لا بدّ أن يكون الطبيب الوحيد على قيد الحياة الذي ما زال يعاين المرضى في المنازل".

ابتسمت هيزل قائلة: "نعم، فقط مع عائلتكم".

قالت أوبري: "هذا ما قاله والدي أيضاً. كما أخبرنا أنّ جدّك قبض عليه وهو يلعب اللاكروس مرّة أخرى في المدرسة الثانوية بعد أن أصيبت ركبته".

نظرنا إلى جونا لنرى ما إذا كان سيخبرنا أيّاً من ذكرياته، لكنّه اكتفى بالتحديق إلى هاتفه وبدا فظّاً كعادته. بعد ذلك دفع الشاشة نحونا أنا وأوبري قائلاً: "بحسب تطبيق

يلب، علينا الذهاب إلى شارع هيرلي للعثور على سيّارة أجرة".

قالت هيزل مشيرة إلى يسارنا: "هيرلي عند ناصية الشارع". أمسكتُ بمقبض حقيبتي بينما كانت تضيف: "بالمناسبة، قد يكون سؤالي غريباً لكوننا التقينا للتوّ، لكنّني قمت بمشروع مدرسي شمل أسرتكم في الفصل الدراسي الماضي. أنا أتخصّص في التاريخ في جامعة بوسطن، وتدور دراستي المستقلّة حول المستعمرين الأوائل الذين يعيش أحفادهم في عصر المعلومات. لقد أحبّ أستاذي المشروع الأوّلي، ويريد منّي التوسّع فيه في الخريف المقبل. فهل ثمّة أيّ فرصة لإجراء مقابلة معكم يا رفاق؟". ابتسمَت بلا تردّد عندما لم يجب أحد منّا على الفور. "مجموعة أسئلة بسيطة، أعدكم".

"اممم". وضعتُ نظّارتي الشمسية مجدّداً لتجنّب نظرات هيزل. حتّى الأسئلة البسيطة تكون عميقة عندما ينتمي المرء إلى آل ستوري. "قد نكون منشغلين لبعض الوقت".

"أنا أتفهّم. هل بإمكاني إعطاؤكم رقم هاتفي في حال وجدتم الوقت؟ أو إذا أردتم وحسب معرفة النشاطات الممتعة التي يمكن القيام بها على الجزيرة. فأنا سأكون سعيدة بمرافقتكم في المكان". نظرَت إلى جونا، الذي كان لا يزال يحمل هاتفه، وأعطته رقمها بسرعة. لا أعرف ما إذا كان قد أضافه بالفعل أم تظاهر بذلك.

قالت هيزل: "استمتعوا بيومكم الأوّل. هيّا يا جدّي، فلنحضر بعض الآيس كريم".

كان د. باكستر متّكئاً بهدوء على ذراع حفيدته بينما نتحدّث، ولكن يبدو أنّ صوت هيزل أيقظه من حلم اليقظة. ركّز عليّ مجدّداً، وظهر عبوس على وجهه وانخفضت زاويتا فمه. "ما كان يجب أن تعودي يا أليسون".

أصدرت هيزل صوتاً بلسانها ينمّ عن الاستياء. "جدّي، هذه ليست أليسون، أنت مشوّش". ثمّ وجّهت لنا ابتسامة ولوّحت بيدها قبل أن تقوده نحو مقهى خلفنا. "أراكم لاحقاً".

حدّقت أوبري إليهما وهما يختفيان في المقهى، ثمّ قالت: "حسناً، كان هذا غريباً". علّقت حقيبة ظهرها على كتفيها، وأمسكت بمقبض حقيبة الأمتعة، ثمّ بدأت تتوّجه نحو شارع هيرلي. وقفتُ أرمق حقائبي، إلى أن تنهّد جونا بعمق وأمسك بالحقيبتين الكبيرتين.

سألني من خلف كتفه وهو يجرّهما فوق الحصى: "هل يمكنك الاهتمام بالباقي، أيّتها الأميرة؟".

تمتمتُ بفظاظة: "أجل". كنت سأشكره لو لم يصفني بالأميرة.

* * *

"مهلاً"، قال جونا ذلك قبل أن يتوقّف سائق التاكسي جانباً.

يقع منتجع النورس على جانب الجزيرة المقابل لرصيف العبّارات، وإلّا ما كان ليفوتنا على الإطلاق. كانت الهندسة المعمارية عبارة عن مزيج بين قصر فيكتوري ومنتجع شاطئ حديث وفاخر، والنتيجة أفضل ممّا يمكن للمرء أن يتوقّع. كان أيضاً أكبر مبنى رأيته هنا حتّى الآن، إذ يعلو أربعة طوابق ولا أدري كم عدد غرفه. طلاؤه أبيض نقيّ، والشجيرات المزهرة المنتشرة في المكان مشذّبة بشكل مثالي ومليئة بالألوان. أمّا العشب، فكانت خضرته زاهية على نحو ملفت. حتّى الممرّ المؤدّي إلى المنتج بدا أملس وكأنّه رُصف حديثاً.

قال السائق وهو يترجّل من السيّارة لكي يساعدنا في إخراج الحقائب من

الصندوق: "استمتعوا بإقامتكم. ستكون طويلة، أليس كذلك؟".

أعطيته ورقة نقدية من فئة عشرة دولارات مقابل رحلتنا التي كلّفت سبع دولارات. "يمكنك قول ذلك".

كانت أوبري تتحقّق من هاتفها. قالت: "من المفترض أن نقوم بالتسجيل في مكتب إدوارد فرانكلين، في الطابق الأوّل، بالقرب من الردهة".

قال جونا وهو يجرّ جميع الحقائب جانباً: "فلنترك هذه الأشياء هنا". نظر إلى الأعلى بسأم عندما لمح تعبيري المرتاب. "أووه، كفى. تبلغ كلفة الغرف هنا ثمان مائة دولار في الليلة على الأقلّ. لا أحد سيأخذ أغراضك".

"اخرس". تمتمتُ بذلك وأنا أحمل حقيبة الكمبيوتر المحمول وأتجاوزه نحو الباب الأمامي. كلّما فتح جونا فمه، تساءلت ما إذا كان هذا الصيف بأكمله عبارة عن غلطة.

قادنا بوّاب مبتسم يقف في الردهة الفسيحة والمهوّأة إلى مكتب إدوارد فرانكلين. مررنا بالمصاعد ثمّ انعطفنا في ممرّ ضيّق مفروش بالسجّاد الفخم. كنت منشغلة جدّاً بتأمّل الصور المؤطّرة المعلّقة على الجدران - متشوّقة لألمح صورة لجدّتي، أو ربّما حتّى لأمّي، بين الضيوف المبتسمين - بحيث كدت أصطدم بأوبري عندما توقّفَت فجأة. نادت وهي تقرع على الباب: "مرحباً؟ هل هذا هو المكان الذي نحصل فيه على لوازم التوجيه؟".

قال صوت مرح: "بالضبط. تفضّلوا، تفضّلوا".

دخلنا غرفة صغيرة يهيمن عليها مكتب كبير من خشب الجوز. جلس خلفه رجل مبتسم، محاطاً بمغلّفات مكدّسة عشوائياً. كان شعره الأشقر أبيض اللون تقريباً، سرّحه

جانباً بحيث بات يشبه شعر دراكو مالفوي، بينما ارتدى قميصاً ناصع البياض مع ربطة عنق تحمل نقش سمكة زرقاء زاهية. قال: "مرحباً، وأرجو المعذرة على هذه الفوضى. نحن غير منظّمين بعض الشيء في الوقت الحالي".

قلت: "لا بدّ أنّك إدوارد".

كان افتراضاً منطقياً، بالنظر إلى كونه جالساً في مكتب إدوارد. ولكنّ دراكو الودود هزّ رأسه نافياً وقال: "لست إدوارد، بل كارسون فاين، رئيس قسم الضيافة في منتجع النورس. أنا أقوم بعمل مزدوج حتّى نجد بديلاً لإدوارد".

عبستُ متسائلة: "ماذا؟ أوَليس هنا؟".

أجاب كارسون: "لقد غادر منذ يومين، وكان رحيله مفاجئاً بعض الشيء. ولكن لا تقلقوا، فبرنامج التوظيف الصيفي سيستمرّ من دونه. أعطوني أسماءكم من فضلكم".

قلت: "ميلي ستوري-تاكاهاشي، وأوبري ستوري، وجونا ستوري".

توقّفت يدا كارسون فوق لوحة المفاتيح. "حقّاً؟ هل تعلمون يا رفاق أنّكم تملكون الشهرة نفسها لمالكة المنتجع؟ يالها من مصادفة. لا أعتقد أنّنا استقبلنا شخصاً من آل ستوري من قبل، وها نحن الآن نستقبل ثلاثة منكم". تجعّدت عيناه الزرقاوان مضيفاً: "من المؤسف أنّه ما من صلة قرابة تجمعكم بها، أليس كذلك؟".

تنحنح جونا، بينما تبادلنا أنا وأوبري نظرات الاستغراب. كيف يمكن لهذا الرجل ألّا يعرف من نكون؟ إذ يبدو أنّه من الأمور التي يمكن أن يتناقلها الناس هنا، حتّى لو كانوا من خارج برنامج التوظيف الصيفي. قلت: "بل نحن أقرباء، نحن أحفادها".

ضحك كارسون قائلاً: "صحيح، لكان ذلك لطيفاً". وعندما لم يبتسم أحد منّا، تلاشت ابتسامته: "مهلاً، هل أنت جادّة؟".

سألته: "ألم يخبرك إدوارد؟ نحن نتحدّث معه حول هذه المسألة منذ شهر أبريل". بعد ذلك، وبسبب رغبة مفاجئة في إثبات نفسي، أخرجت مغلّفاً مليئاً بمراسلاتنا من حقيبة الكمبيوتر المحمول وأضفت: "كلّ شيء مكتوب هنا، إن كنت ترغب في الاطّلاع".

أخذ كارسون الملفّ، ولكنّه بالكاد ألقى نظرة عليه قبل أن يعيده إليّ. "لم يقل أيّ كلمة في هذا الشأن، أنا لا أصدّق أنّه لم يفعل! آه يا إدوارد، كم أنت غير كفء. لو لم تستقل أساساً، لكنت طردتك. دعوني أرى ما إذا كان قد ترك بعض الملاحظات". راح ينقر بغضب على لوحة المفاتيح، بينما وقفنا وقد خيّم علينا صمت غير مريح. بعد ذلك، أضاءت تعابير وجهه. "حسناً، أنا لا أرى أيّ معلومات عن ذلك، ولكنّ الخبر السارّ أنّ جدّتكم موجودة بالفعل في المنتجع في هذه اللحظة. لقد انتهينا للتوّ من تجديد قاعة الاحتفالات الصيفية، وهي تجري زيارة للموقع. لذلك، إذا استطعتم الانتظار لبضع دقائق فقط، فإنّني سأحضرها حالاً".

اتّسعت عينا أوبري ذعراً. "ماذا، الآن؟".

قفز كارسون واقفاً، وعازماً على تصحيح مراسم الضيافة التي بدأت بشكل خاطئ. "ما من وقت أفضل من الوقت الحاضر. سأعود حالاً!" واندفع في الردهة، تاركاً إيّانا نحن الثلاثة واقفين بإرباك حول مكتبه.

مرّرتُ راحتَيّ الرطبتين فجأة على تنّورتي. ظننتُ أنّني كنت مستعدّة لمقابلة جدّتي، ولكن عندما أصبح الأمر وشيكاً إلى هذا الحدّ، أدركت أنّني لست كذلك. أصبح عقلي

فارغاً، وخيّم على الغرفة الصمت باستثناء موسيقى فرقة موزاك المتصاعدة من مكبّر صوت في مكان ما. بعد بضع ثوان، تعرّفتُ على نغمة مألوفة، وكدت أضحك بصوت عالٍ. كانت أغنية "أفريقيا" لفرقة توتو، وكانت الأغنية المفضّلة لدى أمّي في شبابها. فشريط الفيديو العائلي الوحيد الذي كانت تملكه، والذي شاهدته عشرات المرّات، كان لها هي وأخوالي وهم يغنّون "أفريقيا" على الشاطئ في طفولتهم.

بدت الموسيقى خلفية مناسبة على نحو غريب مع اقتراب خطوات، مصحوبة بصوت كارسون المتلهّف. "من حسن حظّي يا سيّدة ستوري أنّني لحقتُ بك قبل أن تغادري!".

سمعتُ أوبري تزدرد ريقها، وفجأة، ها هي ذا. كانت واقفة أمامي مباشرة للمرّة الأولى في حياتي. ميلدريد ستوري، المراوغة، والغريبة، والغامضة.

جدّتي.

تأمّلتها تدريجيّاً: أوّلاً المجوهرات، لأنّني بالطبع سألاحظ ذلك. كانت ميلدريد تضع عقداً مزدوجاً من اللؤلؤ الرمادي اللامع، الذي يبرز على بدلتها السوداء الحادّة، مع قرطَين متطابقَين. كان كعباها عاليَين على نحو مثير للإعجاب بالنسبة إلى امرأة في العقد السابع من عمرها، وتعلو رأسها قبّعة صغيرة ذات شبكة. بدت كأنّها ذاهبة إلى جنازة أحد كبار رجال الدولة. حملت محفظة من جلد التمساح الأسود اللامع، مع قفل ذهبي على جهتها الأمامية. وقد رأيت ما فيه الكفاية من حقائب بيركينز المزيّفة في نيويورك لأتعرّف على النسخة الحقيقية البالغة قيمتها عشرين ألف دولار.

أصبحَت عظام وجنتي ميلدريد المرتفعتين الشهيرتين أكثر رخاوة مع تقدّم العمر،

لكنّها لا تزال تزيّن وجهها بمستحضرات التجميل على نحو متقن كما رأيتُها في كلّ صورها عندما كانت أكثر شباباً. لكنّ أكثر ما يلفت النظر فيها كان شعرها. فهو مسرّح إلى الخلف في كعكة منخفضة، كما أنّه ناصع البياض لدرجة أنّني لم أصدّق أنّ لونه طبيعي.

تنقّل نظرها بين أوبري وجونا، اللذين لا يشبهان والديهما في شيء، قبل أن يستقرّ عليّ وألمح فيه شرارة معرفة. قالت بصوت منخفض وأجش: "هذا صحيح إذاً، أنتم هنا حقّاً".

كان عليّ أن أقاوم الدافع غير العقلاني للانحناء. "شكراً لك على دعوتنا".

أخذت ميلدريد نفساً حادّاً، وقطّبت جبينها وهي تكرّر من بعدي: "دعوتكم". حدّقنا إلى بعضنا البعض إلى أن تنحنح كارسون بعصبية، وتحوّل وجه جدّتنا إلى قناع أملس خالٍ من التعابير. قالت وهي تنقل حقيبة البيركين من ذراع إلى أخرى: "في الواقع، لا بدّ أنّكم مرهقون بعد الرحلة. كارسون، رافقهم من فضلك إلى غرفهم. سأطلب من مساعدتي التواصل لترتيب وقت أنسب للتحدّث".

بدا كارسون من خلف كتفها محطّماً. قال: "حسناً، بالطبع. أنا آسف، كان يجدر بي مرافقتهم إلى هناك أوّلاً".

قالت ميلدريد ببرود: "من فضلك، لا تزعج نفسك، لا بأس على الإطلاق".

لكنّني عرفت. ففي الثواني التي سبقت تماسك جدّتي، انفصلت إحدى أفكاري المتشابكة عن البقية بوضوح تامّ.

ليست لديها أدنى فكرة عن مجيئنا.

أليسون، 18 عاماً

يونيو 1996

اقتربت العبّارة من الجانب الآخر لجزيرة النورس. ولذلك، عندما جلست أليسون على سطح عبّارة كاتمينت هاوس، لم تر أمامها سوى صفحة ملساء من المياه التي تذوب في السماء الزرقاء. لكنّ النشاط الصاخب حول المنزل أوضح أنّ فصل الصيف على وشك البدء، وسيعود إخوتها إلى المنزل قريباً.

كانت والدتهم ترغب في إقامة حفلة بمناسبة عودة آدم وآندرز، ولكن قبل أن تبدأ حتّى بالتخطيط لها، غرقَت في حجم العمل الذي ينطوي عليه الأمر. فتدخّلت مساعدتها، تيريزا، كالمنقذة الصامتة التي أصبحت عليها منذ أن توفّي والد أليسون قبل ستّة أشهر. والآن كان ثمّة جيش صغير من الناس الذي يستعدّون لحفلة الليلة: تثبيت أضواء على كلّ الأشجار الموجودة، وبناء مسرح مؤقّت للفرقة الحيّة، ونصبُ خيام بيضاء على طول العشب الجانبي، بحيث يمكن للضيوف أن يتناولوا فيها عشاء من سرطان البحر وبلح البحر، بالإضافة إلى الطبق المميّز لجزيرة النورس، بيض السمّن على الطريقة الروسية. لم تستطع أليسون رؤية الشاطئ في الأسفل، لكنّها كانت تعلم أنّ طاقماً كان موجوداً هناك يستعدّ لعرض الألعاب النارية الذي سيتفوّق على عروض الرابع من يوليو في معظم المدن الأميركية الكبرى.

"هل تعتقد أنّه سينتظرنا استقبال كهذا عند عودتنا من الجامعة؟".

جلس شقيق أليسون الأصغر، آرتشر، على كرسيّ بجانبها مبتسماً. كانت ساقاه تتدلّيان على نحو أخرق عن طرف المقعد. ففي السابعة عشرة من عمره، تأخرت طفرة النموّ لديه، ولم يبلغ إلّا مؤخّراً طول آدم البالغ ستّة أقدام. وما زال لا يدري ماذا يفعل بأطرافه التي زاد طولها حديثاً.

أشارت أليسون: "حسناً، ليس أنّ والدتنا نظّمت استقبالاً كهذا لآدم في الصيف الماضي". كان شقيقهما الأكبر قد بدأ دراسته في جامعة هارفارد منذ عامين، والشقيق الذي يليه، آندرز، لحق به في الخريف الماضي. أمّا أليسون، فكانت تخرق تقاليد الأسرة بذهابها إلى جامعة نيويورك في سبتمبر. "أعتقد أنّ الأمور مختلفة هذا العام وحسب".

"أعرف". حنى آرتشر كتفيه العريضتين، وبدا فجأة أقصر قامة وأصغر سنّاً بكثير. "هذا غريب، أليس كذلك، كيف يمكن لهذا المنزل أن يكون ممتلئاً إلى هذا الحدّ الآن، ولكنّه يبقى... فارغاً".

غصّت أليسون. "لا تبدو حفلة لآل ستوري بدون وجود أبي هنا"، فابتسم آرتشر بأسى.

"لا سيّما وأنّهم يقدّمون بلح البحر كطبق رئيس. يا إلهي، كم كان يكره هذه الأطعمة". أصبح صوت آرتشر أكثر عمقاً عندما انضمّت أليسون إليه مقلّدة صوت والدهما: "مخاط البحر". صدرت عنهما ضحكة تقريباً، وأضاف آرتشر: "برأيي، لم يكن مخطئاً. يمكنك وضع كلّ ما لديك من زبدة، وقشدة، وملح، وكلّ ما تريدينه على تلك الأشياء، لكنّها تبقى مثيرة للاشمئزاز".

منذ وفاة والدهم، كانت أليسون تشعر في معظم الأحيان كما لو أنّ الفراغ الذي خلّفه وجوده الهائل لا يمكن ملؤه، ذاك النوع من الخسارة الذي سيؤلمها طوال حياتها. لكن بين الحين والآخر - وعادة في لحظة هادئة كهذه مع آرتشر - يمكنها أن تتخيّل وقتاً في المستقبل تصبح فيه الذكريات حلوة، وليست مرّة بالقدر نفسه. أراد جزء منها الاستمرار في اجترار الذكريات، لكنّها تعلّمت خلال الأشهر الماضية أنّه عليها تجنّب الحزن. وإذا استسلمت لحزنها قبل الليلة الكبيرة التي تنظّمها الوالدة، فسيكون من الصعب أن تضع قناع الوجه المشرق الذي تتوقّعه منها.

بدا أنّ آرتشر يفكّر في الشيء نفسه. إذ مال إلى الخلف في كرسيّه، وشبك يديه خلف رأسه، ولفّ ساقيه على بعضهما عند الكاحل. وكانت الوضعيّة الجديدة تشير إلى تغيير مفاجئ في الموضوع. قال: "على مقياس من واحد إلى عشرة، كم أصبح آندرز بغيضاً أكثر بعد ذهابه إلى هارفارد؟".

قالت أليسون: "عشرون"، وضحك كلاهما.

قال آرتشر: "هذا محتمل، لكن سيكون من الجيّد رؤية آدم". كان يعشق شقيقهما الأكبر لدرجة لم تشاركه إيّاها أليسون تماماً، لكنّها سعيدة مع ذلك بفكرة عودته إلى المنزل. إذ لم يكن ثمّة أحد على وجه الأرض يمكنه أن يجعل أمّهم تبتسم مثل آدم. "لقد تحدّثتُ إليه مباشرة قبل أن يغادر، وقال إنّه سيحضر حفلة روب فالنتين يوم السبت المقبل. وما علينا سوى إقناع آندرز".

ذكّرته أليسون قائلة: "أنا لم أقل إنّني موافقة على الذهاب". التحق جميع أولاد ستوري بمدرسة داخلية خارج بوسطن منذ أن كانوا في الثانية عشرة من العمر، وكان آرتشر

الوحيد الذي حافظ على الصداقات التي أقامها في مدرسة النورس الابتدائية، وحرص على تنميتها. وفي السنوات القليلة الماضية، أمضى كلّ الإجازات المدرسية في محاولة إقناع إخوته بمرافقته إلى حفلة هنا أو هناك. لكنّ أيّاً منهم لم يكن يختلط بهم بالسهولة نفسها.

حثّها آرتشر قائلاً: "هيّا، سوف نستمتع".

نظرت أليسون إلى الأعلى بسأم وسألته: "ألم تتعلّم شيئاً من كارثة كايلا ومات؟".

أجاب: "إنّها قصّة قديمة".

"ليس بالنسبة إلى آندرز". استقامت أليسون فجأة، وأمالت رأسها قائلة: "هل الوالدة تناديني؟".

أجاب آرتشر: "لا أعتقد-" ثمّ صمت عندما تناهى إليه من داخل المنزل صوت ضعيف ولكنّه واضح: "أليسون!". فتابع قائلاً: "أنتِ على حقّ، لقد أصابت أذناك الخارقتان مجدّداً".

نهضت أليسون وعبرت الفناء، ثمّ فتحت الباب الزجاجي المنزلق في لحظة دخول والدتها الصالة. "أوه، أليسون، حمداً لله. ها أنت ذا".

كانت الوالدة ترتدي أساساً ملابس الأمسية، وكانت عبارة عن ثوب أبيض وصندل فضّي ومجوهرات من ألماس الكناري. سرّحت شعرها مجدّداً في كعكة مرتخية، وتركت بضع خصلات مختارة تُفلت منها لتليين خطوط وجهها الحادّة. كما طلت شفتيها باللون الأحمر، وبدت الظلال الداكنة على جفنيها متقنة كالعادة. كان على المرء أن ينظر عن كثب لملاحظة التوتّر في ملامحها. لم تكن ميلدريد ستوري مضيفة بالفطرة. ولطالما

اعتمدت على زوجها لإنجاح المناسبات الاجتماعية التي يقيمانها. سألت ابنتها: "هل يمكنك الذهاب إلى الخيم وإخباري برأيك في الأزهار؟ لقد طلبتها تيريزا من متجر جديد في شارع هيرلي - بروير فلوريل، على ما أعتقد؟ شيء من هذا القبيل. لم نتعامل معه من قبل، وأنا أخشى أن تكون قد اختارتذذ المتجر لأنّ مات يعمل هناك الآن. لقد ألقيتُ نظرة على الترتيبات، وتبدو لي غير متوازنة تماماً".

سألتها أليسون: "غير متوازنة؟".

أجابت الوالدة: "وجدتها ثقيلة جدّاً على زنابق الكالا". شدّت يديها معاً، ونظرت إليهما بعبوس. كان ذلك مصدر قلق جديد بالنسبة إليها. فقد اقتنعت الوالدة مؤخّراً أنّ يديها تكشفان حقيقة أنّها شارفت على الخمسين، مع أنّ ذلك ما زال غير ظاهر على وجهها. ففصلتهما أليسون عن بعضهما برفق وضغطت عليهما لطمأنتها.

"أنا واثقة أنّها جميلة، ولكنّني سألقي نظرة". قالت ذلك وهي تخرج من الباب وتغلقه خلفها.

كانت تعرف ما سيقوله والدها لو كان هنا: "تقوم مهمّتك في هذه اللحظة، يا أليسون، بغضّ النظر عن رأيك الفعلي، على طمأنة والدتك أنّ كلّ مزهرية تحتوي تماماً على العدد المناسب من زنابق الكالا". وهذا أمر سهل.

مشت حافية القدمين على أرضيات المنزل الخشبية والرخامية، وتوقّفت عند المدخل الجانبي لتنتعل صندلاً تركته عند الباب. أصبح مستوى الضوضاء أعلى بكثير ممّا كان عليه في الفناء عندما خرجَت، إذ اختلطت الأصوات بضوضاء الأشغال الخفيفة وأنغام الغيتار التي تتصاعد بين الفينة والأخرى من الفرقة وهي تتحقّق من الصوت. كانت رائحة

زهر العسل عابقة في كلّ مكان، تهبّ من الأجمات المنتشرة بجانب كاتمينت هاوس. انعطفت أليسون عند الزاوية، وكادت تصطدم بشخصين يقفان جنباً إلى جنب، يتفحّصان بحر الخيم البيضاء أمامهما.

مدّ محامي والدتها، دونالد كامدن، يده لتثبيتها، وقال: "مرحباً أليسون. إلى أين تهربين؟".

"أوه، في الواقع...". تردّدت أليسون عندما رأت مساعِدة والدتها، تيريزا رايان، واقفة بجانبه. لم تستطع بالطبع القول إنّها أتت للتأكّد من أنّ تيريزا لم تختر بائع أزهار دون المستوى بدافع المحسوبية. "أردت فقط إلقاء نظرة على الترتيبات".

ابتسمت تيريزا بحرارة. كانت أرملة هي الأخرى، ولكن على عكس ميلدريد، لم تكن تخشى إظهار سنّها الحقيقي. كانت شيباء وممتلئة بعض الشيء، ومعروفة باعتمادها الأثواب البسيطة والأحذية المريحة مهما تكن المناسبة. قالت: "أخبريني برأيك"، ثمّ خفضت نبرة صوتها ووضعت يدها على ذراع أليسون قائلاً: "الكلام بيننا، معايير والدتك مرعبة بعض الشيء".

أجابتها أليسون ضاحكة: "أوَتقولين ذلك لي؟". وشعرت بالارتياح لأنّها وجدت عذراً لتفحّص المكان.

شعرت أليسون بعمودها الفقري يتصلّب وكتفيها تستقيمان وهي تسير على العشب عبر المسار الاحتفالي، بينما أفسح الناس المجال لها عليه عندما رأوها. عادة ما تحاول الاندماج في الخلفية في حفلات والديها، لكنّ الليلة ستكون مختلفة. فوالدتها تريدها أن تكون مُضيفة، وليس مراهقة خجولة.

عندما دخلت أقرب خيمة، توقّفت للحظة لتقدير مهارات تيريزا. كان كلّ شيء جميلاً: مفارش المائدة البيضاء الناصعة، والمقاعد المنجّدة مع عقد بيضاء مربوطة على ظهورها، والأواني الفضّية اللامعة، والكريستال المتلألئ، وبالطبع، الأزهار. كانت موضوعة في مزهريات بيضاء متلألئة في وسط كلّ طاولة، وتضمّ الورود قشدية اللون، وأزهار السحلبية الخضراء، ونوع من الصبّار الذي لم يسبق لها أن رأته، وزنابق الكالا الأرجوانية الرائعة.

لم تستطع تخيّل شيء أكثر كمالاً.

سأل صوت من خلفها: "هل نالت الترتيبات استحسانك يا آلي؟".

التفتت أليسون لترى خلفها ابن تيريزا، مات، مرتدياً قميصاً قطنياً لمتجر برويز فلوريل، فتلاشى كلّ الاتّزان المصمّم بعناية الذي تخيّلَته لنفسها. قالت: "لا أحد يناديني بهذا الاسم".

قال مات: "هذا مؤسف، فهو يناسبك. ربّما يصبح رائجاً بفضلي". بقيت أليسون معقودة اللسان إلى أن أضاف مات: "حقّاً، هل كلّ شيء على ما يرام؟ فأمّي قلقة جدّاً بشأن هذه الحفلة. وإذا اضطررت إلى إعادة خمسين تنسيقاً من الأزهار، فقد تصاب بنوبة قلبية".

قالت أليسون: "إنّها جميلة"، فمسح مات عرقاً وهمياً عن جبينه.

"لقد أنقذتِ عامها للتوّ".

عضّت أليسون على شفتها لتبتلع ابتسامة. كان مات لطيفاً وساحراً - وعلى الرغم

من علاقته بتيريزا - إلاّ أنّه حالياً شخص غير مرغوب فيه بين أشقّائها. كان شخصاً ودوداً إلى حدّ لا بأس به معهم جميعاً حتّى الميلاد في العام الماضي، عندما أقام علاقة مع فتاة في جزيرة النورس، كايلا دوغاس، كان آندرز على علاقة متقطّعة بها. بالكاد دامت علاقة مات وكايلا شهرين، لكنّها كانت كافية لتحويل مات إلى عدوّ آندرز اللدود مدى الحياة. ومنذ مدّة طويلة في الواقع لم تسمع أليسون مات يُذكر سوى بعبارة "مات رايان الحقير".

وجدت نفسها تقول: "سيأتي آندرز قريباً"، فاختفت ابتسامة مات.

قال: "شكراً على النصيحة، من الأفضل إذاً أن أتوارى عن الأنظار". نظر حوله إلى الأضواء المتلألئة وأضاف: "ففي النهاية، أنا لست ضيفاً أو ما إلى ذلك".

"لا، لا تفعل... أنا لم..." ربّاه، لم تقصد أن تطرد مات. كان ينبغي أن تغضب منه من أجل آندرز، ولكن في الحقيقة، لم يبذل آندرز جهداً يذكر ليكون صديق كايلا، تماماً كما يفعل بشأن أيّ شيء لا يرتبط مباشرة بكونه آندرز ستوري. أمّا مات فكان... مات.

ابتسم نصف ابتسامة وقال: "لا بأس، لا تقلقي. عملي هنا انتهى على أيّ حال، ما دامت الأزهار تعجبك". ثمّ اقترب قليلاً، ولمعت عيناه الزرقاوان وهو ينظر إلى قميصها الباهت وسروالها الرياضي مضيفاً: "هل سترتدين هذه الملابس الليلة؟ إنّها تعجبني، فهي عمليّة للغاية".

عرفت أليسون أنّه كان يمزح، لكنّها لم تستطع منع نفسها من القول: "ستموت أمّي ألف ميتة ومن ثمّ ستعود لتقتلني".

اقترب مات أكثر وسألها: "وهل ستقتلك إذا تناولتِ القهوة معي الأسبوع المقبل؟".

مهلاً، هل كان مات رايان يطلب منها الخروج معه؟ فتحت أليسون فمها لتجيب - بماذا، لم تعرف - ثمّ أغلقته مع ظهور وجه مألوف عند مدخل الخيمة، وجه وسيم، مترقّب، ومتكبّر قليلاً. إنّه آدم. لقد عاد شقيقها الأكبر من بوسطن، ما يعني أنّ آندرز لا بدّ أن يكون خلفه مباشرة. استقامت كتفا أليسون مجدّداً، ومنحت مات ابتسامة آل ستوري الرسمية، وقالت: "أنا واثقة من أنّها لن تمانع على الإطلاق. فلنحدّد يوماً في وقت لاحق، ولكن عليّ الذهاب الآن، المعذرة".

قد لا يكون أبراهام ستوري موجوداً بعد الآن، لكنّ أليسون تعرف تماماً ما سيقوله لو وجدها محاصرة بين أشقّائها والرجل الذي يعجبها.

الأسرة أوّلاً، دائماً.

نادت أليسون وهي تمدّ ذراعيها لتحيّة أخويها: "أهلاً يا شباب!".

الفصل الخامس

أوبري

استدارت ميلي نصف استدارة أمام خزانة ملابسها واضعة إحدى يديها على خصرها وسألت: "كيف أبدو؟". كانت قد فردت شعرها الطويل الأسود، وارتدت سروال جينز قصير أبيض وقميصاً فضفاضاً بلا كمّين مزركشاً بأزهار وردية وفضّية زاهية.

أجبتها بصدق: "رائعة".

مرّرت يدي على البطّانية الخضراء الرثّة التي تغطّي سريري وأنا أنتظر ابنة عمّتي لتصبح جاهزة. لم تكن الغرف المخصّصة للتأجير الصيفي فاخرة بقدر المنتجع نفسه. فقد كنّا نتشارك أنا وميلي غرفة صغيرة عارية الأرضيّة مفروشة ببساطة بسريرين وخزائن مدمجة في الجدار، مع مرايا ومكتبين ومقعديَن خشبيَين. تقع الحمّامات في آخر الرواق، وإذا أردنا مشاهدة التلفزيون ذي الشاشة الكبيرة أو الجلوس على وسادة فعلية، فما علينا سوى الذهاب إلى الغرفة المشتركة. أمّا المساحة التي تفصل بين مكتبَينا، فقد احتلّتها حقائب ميلي، التي لم تتّسع لها خزانتها الضيّقة. مع ذلك، إذا كانت كلّ ملابسها كتلك التي ترتديها الآن، فأنا لا ألومها على إحضارها. قلت: "أحبّ هذا القميص".

"شكراً. لقد اشترته لي بابا من اليابان، في الرحلة نفسها التي أحضرَت فيها

الغاماغوشي الذي أرسلته لك". قالت ميلي ذلك وهي تمرّر فرشاتها بعناية على شعرها اللامع أساساً.

قلت: "كانت تلك بادرة لطيفة حقّاً من جانبها". عندما وصلنا إلى غرفتنا لأوّل مرّة، وبدأنا بإفراغ الأمتعة، أعطتني ميلي هدية من جدّتها لأبيها، والتي تناديها بابا. كانت عبارة عن حقيبة صغيرة جميلة رُسمت عليها أمواج زرقاء، لأنّها، كما قالت ميلي، "تعرف أنّك تحبّين السباحة". شعرتُ حينئذ بغصّة في حلقي. فجدّاي لأمّي متوفيّان، وجدّتي الوحيدة التي لا تزال على قيد الحياة هي جدّتي لأبي. مع ذلك، فإنّ امرأة لا تربطني بها أيّ صلة قرابة فكّرَت بي أكثر بكثير.

كانت قد مرّت أربعة أيّام على ذاك اللقاء الغريب في مكتب كارسون فاين. وبمجرّد وصولنا أنا وميلي إلى غرفتنا، أصرّت ابنة عمّتي على أنّ جدّتي لم تكن على علم بقدومنا. قالت: "ألم تري وجهها؟ لقد كانت مصدومة".

أجبت: "حسناً، بلى، كانت غير مستعدّة. أنا واثقة من أنّها خطّطت ليكون لقاؤنا الأوّل رسميّاً أكثر. لكنّها كانت تعلم أنّنا قادمون يا ميلي، فهي التي دعتنا".

أجابت: "شخص ما دعانا، ولكنّني لم أعد متأكّدة من أنّها هي".

أجبتها وأنا أعني ما أقول: "هذا غير منطقي على الإطلاق". افترضت أنّ ميلي تتصرّف بطريقة درامية. ولكن منذ ذلك الحين، لم نسمع من جدّتي شيئاً سوى مرّة واحدة فقط، وذلك عبر رسالة قصيرة وغير شخصية تعلمنا فيها أنّها اضطرّت للذهاب إلى بوسطن بداعي العمل. سأتّصل بكم عند عودتي، هذا ما كتبَته.

ما زلت أعتقد أنّ ميلي تبالغ في ردّ فعلها، ولكن... أجل، هذا غريب. أيّ جدّة

تدعو أحفادها لزيارتها للمرّة الأولى، ثمّ تسافر؟

أصبحَت حركة فرشاة ميلي أكثر عنفاً وهي تحدّق إلى نفسها في المرآة. "ربّما كان يجدر ببابا أن تُحضر لنا قمصاناً كُتب عليها: جدّتي الأخرى امرأة مراوغة ومخادعة، غير أنّها ليست منجّمة".

ضحكتُ رغماً عنّي، ثمّ شعرتُ بالذنب، فغيّرتُ الموضوع بسرعة. "أتساءل ما إذا كانت جدّتي قد قرأت المقال". يوم الأحد، نشرَت صحيفة جزيرة النورس مقالاً بعنوان فصل جديد في حكاية آل ستوري: عودة الأحفاد إلى جزيرة النورس. لم نكن واثقين مَن الذي أخبر الصحافة. إذ تعتقد ميلي أنّها هيزل، الفتاة التي التقينا بها في وسط المدينة، ولكنّني أشكّ في كارسون فاين. فهو يعاملنا كما لو كنّا من ملوك الجزيرة منذ وصولنا، ويقدّم لنا امتيازات خاصة، كالسماح لنا باستخدام جيب المنتجع ومنحِنا أفضل المناوبات. مثلاً، أنا واحدة من المنقذين في مسبح يفتح عند الساعة السادسة صباحاً، لكنّني لم أضطرّ قطّ للتواجد هناك قبل الساعة العاشرة. ويعمل كلّ من جونا وميلي في مطعمَين من مطاعم المنتجع، ومع أنّني لم أتحدّث إلى جونا كثيراً منذ وصولنا، لكنّني أعرف أنّ ميلي بالكاد تعمل ثلاث ساعات في اليوم.

ضحكت ميلي ساخرة: "نحن نعرف أنّ شخصاً ما فعل ذلك".

بعد ظهيرة يوم أمس، وجدنا مغلّفات قشدية اللون في صناديق بريدنا. اعتقدت للوهلة الأولى أنّها قد تكون من جدّتي، ولكنّ الرسالة الموجودة فيها كانت من شخص آخر:

إلى: أوبري ستوري، جونا ستوري، وميلي ستوري-تاكاهاشي

يودّ المحامي دونالد س. كامدن التشرّف بلقائكم على الغداء يوم الأربعاء، 30 يونيو، الساعة 1:00 ظهراً.

مطعم النجوم

الرجاء إرسال الردّ إلى ميليندا كارترايت

mcartwright@camdenandassociates.com

قالت ميلي عندما قرأناها: "آه، يا إلهي، إنّه دونالد كامدن. سيطردنا من الجزيرة، أليس كذلك؟ تماماً كما طرد أهالينا". انخفض صوتها مضيفة: "هذا ما جنته أيديكم".

احتججتُ بضعف: "لا يستطيع فعل ذلك"، لكنّني لم أكن متأكّدة بصراحة. فكلّما طال غياب جدّتي، قلّت ثقتي بأيّ شيء. على الأقلّ، سنكتشف قريباً. إنّها الساعة الثانية عشرة وخمس وأربعون دقيقة، والسيّارة التي سيرسلها لنا دونالد كامدن ستصل في أيّ دقيقة.

ثبّتت ميلي قرطها الثاني قائلة: "فلنتحدّث عن شيء أكثر بهجة. كيف حال صديقك؟ هل اشتاق إليك؟".

أخرجتُ هاتفي تلقائيّاً من جيبي. قبل إقلاع طائرتي من بورتلاند يوم الجمعة الماضي، أرسل توماس رسالة نصّية قال فيها أتمنّى لك صيفاً رائعاً! مع صورة GIF لموجات متدحرجة. وقد بدت لي على نحو غريب... الأخيرة. ولم أسمع منه شيئاً منذ ذلك الحين، على الرغم من أنّني كنت أرسل له أخباري باستمرار، كما تركت له رسالتين صوتيّتين. أعلم أنّه ثمّة فارق زمني، وأنّه لا يستطيع استخدام هاتفه في وظيفته الصيفية، لكن مع ذلك...

أجبت: "توماس ليس من النوع الذي يُظهر لهفته".

ألقت ابنة عمّتي نظرة سريعة على انعكاسي في مرآتها، كما لو كانت تزن إيجابيات وسلبيات سؤال آخر، قبل أن تتناول ملمّع الشفاه. "حسناً، لديك الإذن بتمضية الوقت مع أيّ شخص في... برنامج التائهين هذا"، قالت ذلك وهي تتلعثم بالكلمة.

صحّحتُ لها قائلة: "الطوهي". هذا هو الاسم الذي يطلقه منتجع النورس في برنامج التوظيف الصيفي على الموظّفين الذين لا يزالون في المدرسة الثانوية. كانت لدينا مساكن منفصلة، مع مساعدين مقيمين، بالإضافة إلى أنشطة إضافية لبناء الفرق - حتّى الآن أقيمت حفلة نار في ليلتنا الأولى هنا، ومباراة للكرة الطائرة أمس. حتّى إنّنا حصلنا على قمصان كُتبت عليها كلمة طوهي على صدرها، وكنت أرتديها منذ بضع دقائق قبل أن أبدّل ملابسي للذهاب لتناول الغداء. أمّا ميلي، فألقت قميصها في الدرج السفلي من خزانة الملابس بمجرّد حصولها عليها.

معظم شباب الطوهي لا يحتاجون حقّاً إلى العمل. فزميل جونا في الغرفة، إفرام، هو ابن أحد نجوم آر أند بي منذ البدايات الأولى. ووالدة أحد الشبّان عضو في مجلس الشيوخ، كما أنّ والدا بريتاني، جارتنا في الغرفة المجاورة، طوّرا تطبيق المراسلة الذي تستخدمه مدرستي بأكملها. كلّ المشاركين في برنامج التوظيف الصيفي تقريباً موجودون هنا من أجل التجربة، أو الصورة الاجتماعية، أو كفرصة للابتعاد عن عائلاتهم.

عبست ميلي أمام المرآة. "أنا لا أفهم هذا الاسم، ما هو الطوهي؟".

ذكّرتها مجيبة: "إنّه طائر". لا بدّ أنّها لم تقرأ أوراق الترحيب عن كثب كما فعلتُ. "ولا يظهر في جزيرة النورس إلّا في الصيف".

علّقَت قائلة: "لطيف".

يمكنني القول منذ الآن إنّ ميلي ليست من نوع الأشخاص الذي يعشقون الانتماء إلى فريق، على عكسي أنا. فقد كنت جزءاً من فريق طوال حياتي تقريباً، خلال كثير من الرياضات المختلفة التي شاركتُ فيها حتّى المدرسة الإعدادية، عندما بدأت بالتركيز حصرياً على السباحة. والآن، بينما أشاهد ابنة عمّتي تستعدّ، انتابني إحساس غريب. فمع أنّ فريق السباحة وتوماس كانا ركيزتَي وجودي منذ أن بلغت الثالثة عشرة من عمري، إلّا أنّني أشعر أنّني على بعد أميال منهما الآن، وليس حرفياً وحسب. فالوحدة تُثقل قلبي.

وقفت وهززت نفسي كما أفعل قبل بداية المباراة، محاولة طرد أفكاري القاتمة. "هل ننادي جونا؟".

قالت ميلي بجفاف: "لا داعي لذلك، سنراه قريباً".

قلت وأنا أحدّق إلى المرآة من فوق خزانة الأدراج: "لا أجده سيّئاً بقدر ما توقّعت". كان شعري المربوط على شكل ذيل حصان لا يزال مرتّباً، وبالتالي كنت جاهزة للذهاب. كنت قد مررت بمرحلة قصيرة من إنفاق الوقت في الاستعداد للخروج عندما بدأتُ دراستي الثانوية، إلى أن أخبرني توماس أنّه لا يرى أيّ فرق. "فبين الحين والآخر، ينسى أن يكون فظّاً".

كشّرت ميلي قائلة: "ثمّ يتذكّر".

رجّ هاتفي فتناولته وكلّي أمل، لكنّها كانت رسالة من والدي وحسب... مجدّداً. كانت أمّي قد أرسلت في وقت سابق سلسلة من الرسائل التي تسأل فيها عن الرحلة وقريبَيّ والمنتجع. كما أخبرتني أنّها ستبقى مع أختها "لفترة من الوقت". أمّا أبي، فلا يكفّ عن إرسال نسخ مختلفة عن السؤال نفسه:

ماذا يجري مع جدّتك؟

تجاهلت الرسالة وأقحمت هاتفي في جيبي. طوال حياتي، كنت أترك أيّ شيء أفعله لأجيب على اتّصالات والدي. لكن هذه المرّة، يمكنه الانتظار.

كانت السيّارة التي أرسلها لنا دونالد كامدن عبارة عن لينكولن فسيحة، لكنّها لا تتّسع لثلاثة في الخلف. فتطوّع جونا للجلوس في المقعد الأمامي - وسرعان ما ندم، على ما أظنّ، عندما تبيّن أنّ سائقنا يحبّ الثرثرة.

"هل زرتم أجزاء من الجزيرة بعد، أم أنّ كثرة العمل لم تسمح لكم بذلك؟" طرح سؤاله بينما كنّا نعبر جادة أوشن. إنّه الطريق الذي لم تتمّ تسميته بطريقة مبتكرة والذي يمتدّ على طول أكبر الشواطئ في جزيرة النورس.

اكتفى جونا بالهمهمة، فملتُ إلى الأمام قائلة: "في الواقع، لقد وصلنا منذ أربعة أيّام فقط. ذهبنا إلى الشاطئ الأقرب إلى المنتجع، وزرنا وسط المدينة بضع مرّات".

سأل بنبرة شخص على وشك الكشف عن سرّ مفرح: "وهل لاحظتم شيئاً ناقصاً؟". قبل أن أجيب، أضاف: "لا وجود لمتاجر أو مطعم تنتمي إلى سلسلة عالمية. ولا تظنّوا أنّهم لم يحاولوا، لا سيّما ستاربكس، لكنّنا من كبار المؤيّدين للمشاريع التجارية المحلّية هنا".

كان جونا يحدّق إلى هاتفه، لكنّه شاركنا انتباهه لفترة وجيزة وقال بحماسة أكبر ممّا أبداه لأيّ شيء حتّى الآن: "هذا عظيم".

وكزَت ميلي ظهر مقعده وقالت: "هل تكره ستاربكس بقدر ما تكره..." وتشنّج وجهها، كما لو أنّها غارقة في تفكير عميق، قبل أن تضيف: "كلّ شيء؟".

لم يكلّف نفسه عناء الردّ، بينما واصل سائقنا الكلام: "سنعبر بضعة شواطئ إلى

اليمين قبل أن نصل إلى وسط المدينة. هذا شاطئ نيكل، وهو يتمتّع بشعبية كبيرة بين العائلات. حصل على اسمه لأنّ الناس كانوا يعثرون على قطع معدنية في الرمال طوال الوقت. وبحسب الشائعات، فإنّ الرجل الذي أسّس منتجع النورس اعتاد على دفن مئات الدولارات من القطع المعدنية هناك كلّ صيف حتّى يتمكّن الأطفال من البحث عن الكنوز. لا أعرف ما إذا كان هذا صحيحاً أم لا، لكنّ الناس ما عادوا يعثرون على قطع معدنية بعد وفاته".

كدت أقول، هذا صحيح. فلطالما كانت قصّة والدتي المفضّلة عن جدّي الملياردير الذي كان يتسلّل في جوف الليل كلّ بضعة أسابيع لتجديد مؤونة الشاطئ من النقود المعدنية. كان والدي قد أخبرها بذلك عندما التقيا في حفلة صديق مشترك بعد تخرّجه من الكلّية، واعتادت أمّي على القول إنّها وقعت في حبّه إلى حدّ كبير هناك في ذلك الوقت. ولم يخطر ببالي حتّى الآن أنّ أوّل ما جذبها إلى أبي كان وهج كرم شخص آخر.

تبادلتُ النظرات مع ميلي، ويمكنني القول إنّها سمعت عن شاطئ نيكل هي الأخرى من والدتها، لكن لم يقل أحد منّا شيئاً. فالموضوع معقّد للغاية بالنسبة إلى رحلة قصيرة.

توقّفنا عند إشارة حمراء، لكنّ حديث السائق لم يتوقّف. أشار إلى شريط أملس من الرمال الرمادية إلى يميننا. "وهناك لدينا شاطئ كاتي-"

قاطعتُه لأنّ الاسم لفت انتباهي: "هل قلت شاطئ كاتر؟".

"كلّا، بل كاتي، بالياء".

سألتُه: "هل يمكننا... هل يمكنني إلقاء نظرة؟ لقد كان شاطئ، اممم، أبي المفضّل".

سألتني ميلي: "حقّاً؟"، بينما أجاب سائقنا بلطف: "بكلّ تأكيد". ركن السيّارة إلى جانب الطريق مضيفاً: "ليس أجمل شاطئ لدينا، برأيي، ولكن اذهبي واستمتعي بوقتك".

ترجّلتُ من السيّارة، بينما لحقت بي ميلي. كان ثمّة شريط من العشب بين الطريق والشاطئ، الذي كان صغيراً يتوسّطه شكل هلال. كانت الرمال خشنة وصخرية، والنباتات المحيطة بنا قليلة ويابسة. توزّع هنا وهناك بعض روّاد الشاطئ مع مناشفهم الزاهية، ولكنّه لم يكن مزدحماً كما يتوقّع المرء في منتصف النهار.

عدّلت ميلي نظّارتها الشمسية وسألتني: "أهذا هو الشاطئ المفضّل للخال آدم؟".

التفتُّ إليها. "هل سبق لك أن قرأتِ كتابه؟ صمتٌ وجيز؟".

"آه، كلّا. حاولت، ولكنّني وجدته نوعاً ما...".

قلت: "مملّ، أعرف. لكنّ الشخصية الرئيسة، التي لطالما ظننت أنّها تمثّل أبي، تتحدّث باستمرار عن شاطئ في مسقط رأسها، شاطئ كاتر. وإحدى الجمل التي يكرّرها مراراً: هناك بدأ كلّ شيء يتّخذ منحىً خاطئاً".

صمتت ميلي لبضع ثوانٍ، ثمّ أشارت قائلة: "هاه، ولكن هذا شاطئ كاتي".

"أعلم، لكنّ والدي ليس مفكّراً مبدعاً بالفعل. فالشخصيّة الرئيسة متزوّجة من امرأة تدعى ماغدا، واسم أمّي ميغان، واسم ابنته أوغي".

كشّرت ميلي قائلة: "أوغي؟".

شرحت: "إنّه اختصار لاسم أوغوستا".

"حسناً إذاً، ماذا؟ هل تعتقدين أنّ شيئاً ما حدث لأبيك على هذا الشاطئ؟".

أجبتُ بلطف، كما كان والدي ليجيب بالضبط: "ليس بالضرورة". الأشياء تحدث له، كما لو كانت خارجة عن سيطرته. ولكن ليست هذه هي الطريقة التي تسير بها الحياة بالفعل، أو على الأقلّ، لم يكن الأمر كذلك بالنسبة إليه قطّ. "أنا أعتقد وحسب أنّه مثير للاهتمام".

تنحنح أحدهم بصوت عالٍ خلفنا، وعندما التفتنا وجدنا جونا يحدّق إلينا من النافذة. سألنا: "هل انتهيتما من مشاهدة المعالم السياحية، أم تفضّلان إلغاء الغداء لتتمكّنا من الاستمرار في التحديق إلى أقبح شاطئ في العالم؟".

تمتمت ميلي ونحن عائدتان إلى السيّارة: "ثلاثة أيّام أخرى، لا أكثر. تلك هي المدّة التي سأصبر فيها قبل أن أقتله".

مطعم النجوم هو مطعم كلاسيكي لكبار السنّ. فورق الجدران مزركش بالأزهار، والمقاعد منخفضة ومنجّدة، والقائمة ثقيلة ومذهّبة الحواف وكلّ ما فيها مخبوز ويكلّف ما لا يقلّ عن ثلاثين دولاراً.

قال لنا دونالد كامدن بينما كان النادل يملأ كؤوس المياه: "إذا أردتم شيئاً غير موجود على القائمة، أخبروني لو سمحتم. فالطاهي صديق شخصيّ لي".

تمتمتُ وأنا أتأمّله خلسة من فوق قائمة الطعام: "شكراً". كان بسنّ جدّتي تقريباً، وما زال يحافظ بقدرها على مظهره، مع شعر فضّي سميك وسمرة عميقة. علت وجنتيه

حمرة، إمّا من الشمس أو لأنّه كان يتناول أساساً كأسه الثاني من الشراب. منذ أن وصلنا إلى المطعم، بدا لطيفاً ومرتاحاً، يطرح الأسئلة حول وظائفنا وما إذا كان برنامج الطوهي قد أعجبنا. في تلك الأثناء، كنت أزداد توتّراً، لأنّني ما زلت لا أعرف سبب وجودنا هنا أو ما يريده منّا.

سأله جونا عابساً وهو يتأمّل قائمة الطعام: "هل يمكنني أن أطلب الهامبرغر مع قطعة خبز؟". كان الشخص الأقلّ عناية بمظهره في القاعة، إذ أتى بقميص قطني رثّ وبنطال جينز وحذاء رياضي خفيف من ماركة فان. على الأقلّ، بذلنا أنا وميلي بعض الجهد في ارتداء ملابسنا بعد أن بحثنا عن المطعم عبر الإنترنت. لكن إذا كان دونالد قد انزعج من جونا، فهو لم يُظهر ذلك.

ضحك مجيباً: "بالطبع، فالزوّار المعتادون هنا يفضّلون تجنّب الكربوهيدرات، لكن هذه المسألة لا ينبغي أن تسبّب لكم القلق". عاد النادل لأخذ طلباتنا، وعندما انتهى، استند دونالد إلى ظهر كرسيّه وارتشف السائل الكهرماني من كأسه الكريستالي. "هل سنحت لكم الفرصة للاستمتاع بشواطئنا؟".

جال نظره حول الطاولة ليحطّ على جونا، الذي جلس بتراخٍ على مقعده. "أنا لست من محبّي الشواطئ".

بقدر ما يمكنني القول، جونا ليس من محبّي أيّ شيء. فهو لم يشارك في أيّ من أنشطة الطوهي حتّى الآن. ومع أنّ كثيراً من الفتيات في رواقنا يعتقدن أنّه جذّاب - إذ تحرص بريتاني خصوصاً على دعوته إلى كلّ مكان - ولكن إذا كان مهتمّاً بأيّ منهنّ، فهو لا يُظهر اهتمامه.

أجابت ميلي: "لقد سمعت أنّ شاطئ كاتمينت جميل. أنت تعرف، ذاك الذي يمتدّ أمام منزل أهلنا". أبعدت شعرها إلى الخلف وأضافت: "لقد كان الشاطئ المفضّل لدى والدتي".

صعدت الدماء إلى وجهي، واستبدّ بي الغضب حتّى قبل وصول المقبّلات. لكنّ دونالد بالكاد تفاعل، باستثناء تناول رشفة أخرى من شرابه. قال بسلاسة: "شاطئ كاتمينت جميل، ومشاهد شروق الشمس فيه رائعة".

سألتُه: "وماذا عن شاطئ كاتي؟".

هناك بدأ كلّ شيء يتّخذ منحىً خاطئاً. راقبتُ وجه دونالد كامدن بعناية بحثاً عن أيّ إشارة على أهمّية هذا الشاطئ - أنّه قد يكون مرتبطاً بسبب تبرّؤ جدّتي من أولادها - لكنّه اكتفى بهزّ كتفيه قائلاً: "غير مثير للاهتمام".

تحرّكت ميلي في مقعدها بعدم ارتياح. وأعتقد أنّ دونالد لاحظ أنّها بدأت تتذمّر من كلّ هذا الحديث المهذّب، لأنّه وضع كأسه على الطاولة ومال إلى الأمام، طاوياً ذراعيه إلى أمامه. "يمكنني التحدّث عن شواطئنا الجميلة طوال اليوم، ولكن ليس هذا هو السبب الذي طلبتُ منكم الحضور لأجله. هل يمكنني أن أتكلّم بصراحة؟".

قلت: "من فضلك،" وفي الوقت نفسه أجابت ميلي: "أتمنّى أن تفعل". أمّا جونا فتمتم بشيء من مثل: "لا أدري، هل هذا ممكن؟". ولكنّ صوته كان منخفضاً للغاية لأكون واثقة. أتى النادل مجدّداً جالباً طعامنا، فانتظر دونالد حتّى وضع جميع الأطباق قبل أن يتابع.

"جدّتكم ليست في حالة صحّية جيّدة. ما من أزمة وشيكة، ولكنّها تزداد ضعفاً،

وبرأيي، يجب تجنّب أيّ اضطرابات في روتين حياتها. أخشى أنّها تبالغ في كرم الضيافة الذي أبدته تجاهكم أنتم الثلاثة حتّى الآن، وسيزداد هذا العبء مع تقدّم الصيف".

قالت ميلي محتجّة: "عبء؟ وأيّ ضيافة تتحدّث عنها بالضبط؟ بالكاد رأيناها منذ أن وصلنا إلى هنا".

تصرّف دونالد كأنّها لم تتكلّم. "في الوقت نفسه، ظهرت فرصة مثيرة للاهتمام، وأردت مشاركتها معكم. هل تعرفون أفلام العميل السرّي؟".

أجبت: "حسناً، بالطبع". ظهر أوّل فيلم من سلسلة العميل السرّي - عن طالبَين جامعيَين تحوّلا إلى جاسوسَين متطوّرَين - عندما كنت في الصفّ الثامن، وكان نجاحه كبيراً للغاية، بحيث ظهر فيلمان آخران منذ ذلك الحين. وقد أُعجبت بالبطل دانتي روغان، لسنوات. وفي بعض الأحيان، عندما يعانقني توماس، أغمض عينيّ وأتخيّل دانتي.

قال دونالد: "لا أدري ما إذا كنتم قد سمعتم عن ذلك، لكن سيتمّ تصوير الفيلم الرابع في بوسطن هذا الصيف. يتولّى مكتب محاماة لصديق قديم الإجراءات القانونية للحصول على الامتياز، وقد أخبرني أنّهم بحاجة إلى بعض المساعدة. فمن الممكن للشباب المساعدة والتواجد أحياناً كبدلاء أو حتّى كأشخاص إضافيين في مشاهد الحشود. وأنا أتساءل عمّا إذا كنتم أنتم الثلاثة مهتمّين بذلك".

قلت من دون تفكير: "ولماذا نهتمّ".

قال دونالد وهو يقطّع قطعة الخبز المشوية: "ما من وعود، ولكن إذا أردتم تفاصيل، من دواعي سروري إعطاءكم المزيد. سيتمّ توفير السكن، والأجر جيّد جدّاً، كما سمعت. فهو يفوق ما يُدفع لقاء العمل في المنتجع. ستكون فرصة مربحة للطرفين". توقّف

لتناول لقمة من السمك ببطء قبل أن يتابع: "ستحصلون أنتم الثلاثة على فرصة العمر، وستتمكّن جدّتكم، التي ليست في أفضل أحوالها لتأدية دور المُضيفة في الوقت الحالي، من الاستمتاع بصيف هادئ وخالٍ من الأحداث".

قال جونا مفكّراً: "ولكنّنا نملك وظائف أساساً، لا يمكننا المغادرة ببساطة".

لوّح دونالد بيده قائلاً: "لدى برنامج التوظيف الصيفي في منتجع النورس متقدّمين يمكنه استيعابهم دائماً. فقائمة الانتظار طويلة جدّاً، وأنا متأكّد أنّهم سيتمكّنون من ملء أماكنكم بسهولة".

سألته بلهفة: "وهل سنتمكّن من العمل مع دانتي روغان؟".

وقفت ميلي فجأة وألقت منديلها على كرسيّها قائلة: "أنا بحاجة إلى الذهاب إلى الحمّام. هل تريدين مرافقتي يا أوبري؟".

"أنا لا أرغب في الذهاب".

ابتسمَت وهي تصرّ على أسنانها. "إذاً رافقيني".

لم يكن لديّ الخيار حقّاً عندما أمسكت بذراعي وشدّتها. فتبعتُها عبر المطعم، ومررنا بين الطاولات الفارغة بمعظمها. دفعت ميلي باب حمّام السيّدات، وقادتني أمام مرآة ذات إطار مذهّب فوق مغسلة مزدوجة. بدت رائحة الغرفة بأكملها كأنّنا سقطنا في وعاء من العطور.

اتّكأت ابنة عمّتي على الحائط المكسوّ بالبلاط الوردي وكتفت ذراعيها قائلة: "ألا تعتقدين أنّ هذا غريب بعض الشيء؟".

سجّل جزء منّي نبرتها المتشكّكة، بينما كان الجزء الآخر يتخيّل الرباط الذي سينشأ مع دانتي روغان مع القهوة التي سأحضّرها له هذا الصيف. "العمل في موقع تصوير فيلم؟ أعتقد أنّه أمر مذهل".

سألتني: "حقّاً؟ لأنّ الأمر يبدو كأنّه رشوة". عبستُ وأنا أقاوم بعناد محاولتها تدمير حماستي، فتنهّدَت: "ما بالك يا أوبري، نحن نتحدّث عن دونالد كامدن، عدوّ أهلنا اللدود، وهو حتماً لا يفكّر في مصلحتنا".

"العدوّ اللدود؟" كدت أضحك، ولكنّها... محقّة. فلطالما تحدّث والدي عن دونالد كامدن على مرّ السنوات، ودائماً بنبرة استياء مرير: لم يردّ دونالد على رسائلي الإلكترونية. يقول دونالد إنّ قرار الوالدة لم يتغيّر. يقول دونالد لا يهمّ أنّ الوالد لم يكن ليرغب بحرمان أولاده من الميراث، ما دام لم يعبّر كتابة عن رغبته. "إذاً، ما الذي تقولينه؟ أنّ السيّد كامدن يحاول التخلّص منّا؟".

"هذا بالضبط ما أقوله. هذا ما كنت أقوله أيضاً، هل تذكرين؟".

"ولكن لماذا؟".

نقرت ميلي بإصبعها على ذقنها مجيبة: "لا أدري، لكن من المثير للاهتمام أنّه لا يستطيع، أليس كذلك؟".

كالعادة، شعرتُ أنّ ميلي تتقدّمني بثلاث خطوات. "هاه؟".

"من الواضح أنّه لو كان الأمر متروكاً له لكنّا قد رحلنا أساساً. فهو لا يحتاج إلى إغرائنا بوظيفة، بل لطردنا وحسب. بالتالي أيّاً يكن ما يجري هنا، فإنّ دونالد كامدن

وميلدريد ستوري ليسا على علم به هذه المرّة. لا يمكنه أن يبعث بواحدة من رسائله السابقة وينتهي الأمر". حدّقَت إلى المرآة لترتيب شعرها، وتراقصت ابتسامة صغيرة على شفتيها. "وهذا أمر ممتع، أليس كذلك؟".

سألتها: "ماذا إذاً؟ هل تعتقدين أنّ الجدّة هي التي دعتنا؟".

"كلّا، مجرّد أنّها سمحت لنا بالبقاء لا يعني أنّها هي التي جاءت بنا إلى هنا".

تنهّدتُ قائلة: "أنت تسبّبين لي الدوار يا ميلي".

ابتسمت وشبكت ذراعها بذراعي، ثمّ قادتني نحو باب الحمّام قائلة: "لا تقلقي، ستعتادين على ذلك".

الفصل السادس

جونا

مضى يومان على غدائنا مع دونالد كامدن، ولم تكلّف ميلدريد ستوري نفسها بعد عناء تشريفنا بحضورها.

كانت الساعة الرابعة من يوم الجمعة، أي قبل ساعة من ازدحام The Sevens، والذي هو عبارة عن نادٍ رياضي في منتجع النورس. أنا هناك نادل، وهي ليست أسوأ وظيفة صيفية لي، لا سيّما وأنّها تأتي مع طعام مجّاني.

سألني تشاز الساقي، وأنا أجلس على كرسيّ أمامه: "ما جديدك يا جونا؟". لم يكن تشاز شخصاً مزعجاً كما يوحي اسمه. كان شابّاً لا بأس به في الواقع، على الرغم من لحيته الكثيفة، الداكنة، التي تشبه لحية رجل يعيش في الجبال، حتّى إنّني دُهشت كيف استطاع أن يجتاز بها قواعد اللباس في المنتجع. "هل تريد تناول الطبق الخاصّ اليوم؟".

"وما هو؟".

"اللينغويني بالقريدس".

أومأتُ برأسي بقوّة، فنقر تشاز على الآيباد أمامه. قال وهو يحدّق إلى الشاشة: "أنت محظوظ، لا داعي للانتظار، فقد حضّروا في المطبخ للتوّ طبقاً لأحد الزبائن الذي بدّل

رأيه. سيحضره شخص ما خلال ثوانٍ".

استدار وبدأ بسحب الكؤوس من على رفّ منخفض، وراح يرتّبها في صفوف منتظمة على البار. كان The Sevens مزيجاً من التكنولوجيا المتقدّمة والمدرسة القديمة، ذلك أنّ شاشات التلفاز المصطفّة على جانبَي كلّ جدار هي من أكبر الشاشات وأعلاها دقّة التي رأيتها في حياتي، ولكنّ الجزء الداخلي من المطعم مصنوع بالكامل من الخشب المصقول الداكن، مع مصابيح مثبّتة في السقف، ومقاعد جلدية. أمّا البار فكان ضخماً، ومدعّماً بعمودين من كلا الطرفين، مع مقاعد موزّعة حوله. يبدأ الموظّفون عادة بالتجمّع هنا نحو الساعة الرابعة والنصف لتناول الطعام، لكنّني أشعر بالجوع دائماً قبل ذلك الوقت.

سأل صوت من خلفي: "أوّل المتواجدين هنا، كالعادة؟".

استدرت لأرى ميلي بزيّ عملها: فستان كوكتيل أسود، مع مريلة سوداء، وحذاء رياضي أسود عصري، وأحمر شفاه داكن، الأمر الذي لا بدّ أن يكون إلزامياً، لأنّ كلّ النادلات اللواتي يعملن في فيراندا - المطعم الفاخر في منتجع النورس - يستعملن اللون نفسه. كانت قد سرّحت شعرها على شكل ذيل حصان مرتفع، وغطّت رموشها بطبقة كثيفة من الماسكرا السوداء، أو ربّما كانت تتمتّع برموش كثيفة بشكل طبيعي في جميع الأوقات.

قلت وأنا أرمقها بحذر بينما كانت تجلس على كرسيّ بجانبي: "أنا أحبّ الطعام". بخلاف رحلة العبّارة وذاك الغداء الغريب الذي تناولناه مع دونالد كامدن، لم نتحدّث أنا وميلي كثيراً منذ وصولنا إلى هنا. وهذا بالضبط ما اعتقدت أنّها تريده، لذلك لست متأكّداً

من سبب جلوسها بجواري فجأة.

كانت شاشة التلفاز أمامنا قد ضُبطت على محطّةCNN من باب التغيير - يحبّ تشاز سماع الأخبار قبل أن ينقل المحطّة إلى الرياضة عندما يزدحم المكان - فتركّز نظر ميلي فوراً على المراسل على الشاشة. قالت بصوت أعلى قليلاً من اللازم: "لقد تمّ القبض على بعض المصرفيين الاستثماريين بتهمة الاحتيال مجدّداً. يبدو أنّها مشكلة متفشّية في الصناعة المالية. هل واجه الخال آندرز شيئاً من هذا القبيل؟ مثل، أوه، لا أدري... بيرني مادوف رود آيلاند، ربّما؟".

تبّاً. لست مضطرّاً للنظر إلى وجهها لأعرف أنّها عثرت بطريقة ما على تلك المقالة الصغيرة في مجلّة بروفيدنس في وقت سابق من هذا العام. خسر أحد العملاء الساخطين كلّ مدّخراته التقاعدية، وأموال ابنه المخصّصة لدراسته الجامعية، وهو يواجه الآن خطر خسارة شركته العائلية الصغيرة. أطلق فرانك نورث، الذي رفع مؤخّراً دعوى إفلاس، لقب بيرني مادوف رود آيلاند على آندرز ستوري. ويقول السيّد نورث: "لم تكن استراتيجيّته الاستثمارية سوى مخطّط هرمي، وكنت آخر المغفّلين الذين صدّقوه".

غير أنّني أتساءل ما إذا كانت تعلم أنّ القصّة صحيحة.

أنقذني تشاز من دون أن يدرك ذلك، عندما حوّل المحطّة عن الـ CNN إلىESPN، قائلاً: "إنّ الصناعة المالية بأكملها مجرّد مزحة. وخلاصة القول، لا يمكن لأحد أن يهتمّ بأموالكم أكثر منكم". ثمّ ارتسمت ابتسامة على وجهه وهو يضيف: "هذه حكمة من الشابّ الذي لا يملك شيئاً. لكن أيّها الشابّان، لا تنسيا ذلك عندما تخرجان لمواجهة هذا العالم. هل يرغب أحدكما بشرب شيء".

قالت ميلي: "شكراً".

قلت: "لا أمانع في كأس كوكاكولا". راقبتُ تشاز وهو يختفي خلف أحد الأعمدة قبل أن ألتفت إلى ميلي لأسألها بشكل مباشر: "ماذا تريدين؟".

"أنت حسّاس جدّاً يا جونا". عبست بتعبير ساخر قبل أن تتابع: "ألا يمكنني الاستمتاع وحسب برفقة ابن خالي؟".

"أشكّ في ذلك".

تخلّت عن التظاهر وأخرجت مغلّفاً باللون القشدي من جيبها، ثمّ أصبحت نبرتها عمليّة وهي تسألني: "هل وصلتك رسالة كهذه؟".

كان المغلّف يشبه تماماً ذاك الذي أرسله دونالد كامدن مع دعوته إلى الغداء. "نعم، كنت هناك. تناولت همبرغر من دون خبز، أتذكرين".

قالت بنفاد صبر وهي تفتح المغلّف لتُخرج بطاقة: "كلّا، هذه رسالة أخرى". ثمّ أعطتني البطاقة لأقرأ الملاحظة القصيرة عليها.

أنا أحثّكم بشدّة على إعادة النظر في العرض الذي قدّمته لكم.

شروط العمل أكثر سخاء ممّا ظننت.

انظروا أدناه.

المحامي دونالد س. كامدن.

حدّقتُ إلى الرقم المكتوب في الأسفل. كان يعادل بكلّ سهولة ثلاثة أضعاف ما سأتقاضاه في منتجع النورس. قلبتُ بعد ذلك البطاقة، لكنّني لم أجد شيئاً آخر. قلت لميلي وأنا أعيد لها البطاقة: "لا أدري ما إذا كنتُ قد حصلتُ على رسالة كهذه أم لا". بذلتُ جهدي لأبقي نبرة صوتي طبيعية، لأنّ المبلغ كان كبيراً. "أنا لم أتحقّق من صندوق بريدي منذ فترة".

قاطعنا صوت فتاة، حلو وجذّاب قليلاً: "مرحباً، جونا". كانت بريتاني، إحدى النادلات وزميلة في برنامج الطوهي. ابتسمت بحياء ورفّت جفنيها وهي تنظر إليّ، كما تفعل منذ أن وصلنا إلى هنا، وكانت هذه مشكلة. فبريتاني لطيفة، لكنّني أحاول عدم لفت الأنظار. "سمعت أنّك الفائز المحظوظ بطبق الزبون". وضعت طبقاً أمامي وسوّت جديلة شعرها الشقراء السميكة على أحد كتفيها في الوقت نفسه. كتفت ميلي ذراعيها وهي تراقبنا.

"شكراً بريتاني". داعبت أنفي رائحة الثوم وثمار البحر، فتضاعف على الفور إحساسي بالجوع.

ابتسمَت لي مجيبة: "أهلاً بك". حوّلت نظرها إلى يميني وتابعت قائلة: "مرحباً، ميلي. ما أخبارك؟".

أجابت ميلي: "لا جديد. كنت أتحدّث إلى ابن خالي في أمور عائلية". كان تلميحها إلى أنّها تقاطعنا واضحاً لدرجة أنّني لو كنت أحاول التقرّب من بريتاني، لشعرتُ بالانزعاج. ولكنّني لا أتقرّب منها، بل وضعتُ منديلاً على حضني وتناولتُ شوكتي.

"حسناً إذاً". داعبَت بريتاني جديلتها متابعة: "عليّ العودة إلى طاولاتي، ولكن... بعض الأشخاص سيذهبون إلى ديونز هذه الليلة بعد انتهاء مناوباتهم". وأمام نظرتي الخالية من التعابير، أضافت: "إنّه بار على الشاطئ؟ حسناً، ليس مجرّد بار، لا ضرورة لتكون في الحادية والعشرين حتّى تتمكّن من الدخول. فهم يقدّمون الطعام، وثمّة موسيقى وألعاب. وبما أنّه يقع في آخر الشارع، فبإمكاننا الذهاب إلى هناك سيراً على الأقدام. هل ترغب في المجيء؟".

ليس حقّاً. مجدّداً، الأمر ليس شخصياً. ولكن كلّما قللّت من اختلاطي بالناس هنا، كان ذلك أفضل. أجبت: "لا أدري، فأنا أكون متعباً حقّاً بعد انتهاء مناوباتي، لذا...".

هنا تدخّلت ميلي وقالت بنبرة شخص يحاول تقديم نصيحة مفيدة: "كما أنّ جونا يكره الناس".

رفّت بريتاني جفنيها، بينما رمقتُ ميلي بعصبية قائلاً: "هلّا اهتممتِ بشؤونك لمرّة واحدة؟".

مدّت ميلي يديها قائلة: "كما قلت لك".

قالت بريتاني بابتسامة متوتّرة: "حسناً، أخبرني إذا ما أردتَ الذهاب". ثمّ عادت إلى المطبخ، وغرزتُ شوكتي في كومة اللينغويني أمامي منتقماً.

قلت لميلي: "يمكنك الذهاب في أيّ وقت".

نظرَت إلى طبقي عابسة وقالت: "هذا فريدس".

أجبتها وأنا أضع في فمي لقمة كبيرة بقدر ما استطعت: "كلّا، بل قمامة". استمرّت

ميلي بالتحديق إليّ، الأمر الذي بدا غريباً ووقحاً، إلى أن عاد تشاز ووضع أمامي كأس كوكاكولا. سرح نظرها إلى الشريط الفضّي السميك في سبّابته اليمنى.

قالت: "يعجبني خاتم زواجك".

أجاب تشاز: "هذا ليس خاتم زواج". ثمّ نزع الشريط الفضّي ورفعه أمامها حتّى ظهر خيط رفيع يشبه السحّاب. شرح قائلاً: "هذا وتر غيتار. كنت أعزف كثيراً في الماضي، وما زلت أفعل أحياناً".

ابتسمت ميلي قائلة: "هذا رائع، وهل أنت بارع في العزف؟".

أعاد تشاز وضع الخاتم وأومأ بيده نحو البار قائلاً: "حسناً، أنا أعمل هنا، أليس كذلك؟ لذا... أنا لست بارعاً بما فيه الكفاية".

كنت أستنشق طعامي خلال محادثتهما بأكملها، بينما واصلت ميلي التحديق إليّ. سألتني عندما توقّفتُ لأخذ نفس: "هل تستمتع بعشائك؟".

ابتسم تشاز وهو يمرّر يده على لحيته. لا يمكنني معرفة سنّه تحديداً، التي قد تتراوح بين الخامسة والعشرين والخامسة والأربعين. قال: "وهل ثمّة داعٍ للسؤال؟".

قلت بحدّة: "عليكما أيّها الشابّان إيجاد هواية جديدة". كانت الوجبات من أهمّ معالم هذا المكان الغريب، وحديثهما بقربي يدمّر متعتي.

نزلت ميلي عن المقعد قائلة: "لقد غيّرت رأيي، أريد شراباً. لكنّني سأحضره بنفسي".

ناداها تشاز وهي تختفي خلف أحد أعمدة البار: "أحضري شيئاً غير كحولي. أنا

أعرف بدقّة مستوى كلّ زجاجة، وسأتحقّق ممّا ستشربينه". ثمّ هزّ رأسه وتناول منشفة وكأساً وهو يضيف: "تلك الفتاة تعرف طريقها تماماً في البارات".

قلت في نفسي وأنا أراقبه يلمّع الكأس بيدين مرتعشتين، ليست الوحيدة هنا. فيدا خالتي المفضّلة، شقيقة أمّي الصغرى، ترتجفان بالطريقة نفسها عندما يمضي عليها وقت طويل من دون تناول شراب. إنّها واحدة من أولئك المدمنين ذوي الأداء العالي الذين يبدون صاخبين قليلاً في أغلب الأحيان، ولكن نادراً ما تكون في حالة ثمالة. أو ربّما كنت أفضّل إنكار ذلك وحسب. قلت: "هذا ما أظنّه"، ووضعت آخر قطعة معكرونة في فمي.

سألني تشاز: "أنتما قريبان، أليس كذلك؟". كما لو أنّ الجزيرة بأكملها لا تعرف تماماً من نكون. أومأت برأسي فسألني: "وهل أنتما مقرّبان؟".

"كلّا". رفع تشاز حاجبيه أمام ردّي السريع، وأضفت: "أعني، لم أكن قد رأيتها منذ سنوات قبل أن نبدأ بالعمل هنا. فأفراد عائلتينا لا يزورون بعضهم حقّاً".

"حسناً، هذه فرصتكما للتعرّف إلى بعضكما البعض، أليس كذلك؟ فالأسرة مهمّة، أو هكذا يجب أن تكون، على أيّ حال". بدا وجه تشاز الهزيل متعباً فجأة. كان لا يزال يصقل الكأس نفسه، الذي بدا أقلّ لمعاناً ممّا كان عليه في البداية.

عادت ميلي حاملة كوباً من الماء، وقفزت مجدّداً للجلوس على المقعد المجاور لي، واضعة بطاقة دونالد كامدن على سطح البار. لم أستطع منع نفسي، فتناولتها مجدّداً وألقيتُ نظرة على الرقم في الداخل. قلت: "حسناً، اسمعي". ثمّ خفضت صوتي، لكنّ تشاز كان قد استدار أساساً لإنهاء توضيب البار. "هل تفكّرين في القيام بذلك؟".

"كلّا، ليس عندما يكون راغباً في التخلّص منّا إلى هذا الحدّ". للحظة، التقت نظراتنا

بتضامن - على الرغم من إغراء المبلغ، لم أكن راغباً في الذهاب أنا أيضاً - ثمّ تغيّر شيء في وجهها. "من المضحك أنّ بريتاني ذكرت ديونز. فقد كنّا أنا وأوبري نفكّر في الخروج نحن الثلاثة وتمضية ليلة كأقرباء".

اتّسعت عيناها بتعبير بريء، فنظرتُ إلى الأعلى بسأم وأجبتها: "هراء". لم يبد على ميلي أنّها فوجئت بالردّ، بل بدت أنها تنتظر المزيد، لذلك أضفت: "في حال لم يكن الجواب واضحاً، فهو يعني كلّا".

قالت ميلي بنبرة مقنعة تنجح معها 99 بالمائة من الوقت على الأرجح: "هيّا، أوبري ترغب بقضاء ليلة في الخارج. ثمّة أمر ما يحدث مع الخال آدم، لكنّها لم تخبرني. ربّما يمكنك حملها على الكلام".

ضحكتُ ساخراً. كانت الآن تكذب بكلّ وضوح، لأنّه ما من طريقة لتخبرني أوبري بشيء لا ترغب في قوله لميلي. "كفّي عن التمثيل، كلانا نعرف أنّك لا ترغبين في رفقتي. إذاً، ماذا تريدين؟".

قست تعابير وجهها، وقالت: "تعال الليلة وستعرف".

حدّقنا إلى بعضنا البعض للحظة ثمّ قلت أخيراً: "ربّما أفعل".

كان ديونز مزدحماً عندما وصلنا إلى هناك. كان المطعم معتماً، جدرانه مكسوّة بألواح من الخشب نفسه الذي لم يتمّ لمسه منذ السبعينيات والذي يغطّي جدران قبو والديّ، الأمر الذي يضفي عليه مظهراً ضيّقاً على الرغم من مساحته الكبيرة. كان ثمّة منطقة لتناول الطعام تحتوي على عشرات الطاولات الممتلئة، وبار معلّق مع أضواء بيضاء متلألئة، ومنصّة صغيرة من جانب واحد، بدأت فتاة مع غيتار وشابّ مع لوحة مفاتيح

بتجهيزها. أمّا الجزء الخلفي من الغرفة فكان مليئاً بطاولات البلياردو، وألواح السهام، ومجموعة من الطاولات العالية.

لاحظتُ كثيراً من الوجوه المألوفة وأنا أقترب. إذ يبدو كأنّ المشاركين في برنامج الطوهي قد استحوذوا على طاولتَي بلياردو مع جميع المقاعد المحيطة. لوّحت بريتاني بقوّة من إحدى الزوايا التي جلست فيها مع مجموعة من الفتيات، بينما ابتعد زميلي في الغرفة، إفرام، عن طاولة البلياردو وفغر فاه في دهشة ساخرة. كان إفرام واحداً من أولئك الشبّان الودودين دائماً الذي يدعوني أينما ذهب، مع أنّني لم أقبل دعوته قطّ.

سألني: "هل اندلع حريق في المساكن؟" وضع يداً على قلبه وأخرى على كتفي. "هل أنت بخير؟ والأهمّ، هل أنقذتَ جهازي المحمول؟".

ظهرت ميلي بجانبه مبتسمة وقالت: "جونا يحاول أن يكون اجتماعياً هذه الليلة". لم يعجبني بريق الانتصار في عينيها، على الإطلاق. لا بل شعرتُ برغبة في الاستدارة والرحيل، غير أنّ أحدهم أمسك بذراعي. كانت أوبري. رسمت ابتسامة عريضة على وجهها وحملت بيدها عصا البلياردو.

قالت: "لقد وصلتَ في الوقت المناسب. يمكنك أنت وميلي أن تلعبا أمامنا أنا وإفرام".

ضاقت عيناي، وتساءلتُ ما إذا كانت على علم بما يدور في رأس ميلي. لكنّني تمسّكتُ بانطباعي الأصلي عن أوبري: الفتاة لا تجيد الكذب، حتّى لإنقاذ حياتها. قد تكون سعيدة حقّاً برؤيتي. وهذا غريب، ولكن لم يسبق لي أن رأيت أوبري برفقة أحد منذ وصولها إلى هنا، باستثناء ميلي وإفرام، وهو أيضاً منقذ. هذا يعني أنّها تنسجم مع الآخرين

أكثر منّي بقليل وحسب.

قلت بلطف: "ممتاز"، ثمّ تناولتُ عصا عن رفّ على الجدار مضيفاً: "فلنبدأ".

كان إفرام يجمع الكرات من الجيوب، فرمى آخرها على الطاولة قائلاً: "ربّما يجب أن نحذّرك من أنّنا أنا وأوبري لم نُهزَم، وهذا يشمل مباراة ضدّ رجلين من المدينة يحاولان الآن نسيان مذلّتهما في البار"، ثمّ سحب المثلّث بعيداً وأضاف: "لكن دعنا نرى ما يمكنك فعله أيّها الناسك".

جال نظري على الطاولة، ثمّ ركّزت على الكرة الرئيسة بينما كنت أقف في المكان المناسب للتصويب. لبضع ثوان، بالكاد تحرّكتُ باستثناء بضع تعديلات دقيقة لوضع العصا تماماً كما أريد. بعد ذلك تراجعت وضربتُ بسرعة. فاصطدمت الكرات ببعضها البعض مصدرة صوتاً قوياً جعل أوبري تشهق بجانبي. ثمّ بدأت الكرات المخطّطة بالسقوط في الجيوب واحدة تلو الأخرى، بينما دارت الكرات أحادية اللون حول الطاولة. عندما توقّفت الكرات عن الحركة، لم يبق سوى كرتين مخطّطتين فقط مع جميع الكرات أحادية اللون باستثناء واحدة.

ألقيتُ نظرة سريعة على وجه ميلي المصدوم وحاولتُ ألّا أبدو متفاخراً، غير أنّني فشلت على الأرجح. قلت: "الكرات المخطّطة لنا".

نهض إفرام وخفض ذراعيه بحركة انهزام وقال: "لماذا لم تخبريني أنّ ابن عمّك وحش يا أوبري؟".

أجابت أوبري وهي ترفّ بعينيها كما لو كانت تراني للمرّة الأولى: "لم تكن لديّ أدنى فكرة".

وهو أمر محيّر. ربّما كان يجدر بي أن أثق بردّ فعلي الأوّل وأغادر، ولكن بمجرّد أن رأيت طاولة البلياردو، تاقت يداي لحمل العصا مجدّداً. كنت قد نشأت بالقرب من صالة بلياردو واعتدتُ على التسكّع هناك عصر كلّ يوم. فعلّمني أحد اللاعبين النظاميين كيفية اللعب، وبعد وفاته - توفّي نتيجة نوبة قلبية وهو في أوائل عقده الخامس، وهذا ما كان والدي يسميه "خطة تقاعد ذو الياقة الزرقاء" - واصلت اللعب بمفردي. وعندما أصبحتُ في الثانية عشرة من عمري، بدأت أتحدّى الكبار ليلعبوا ضدّي مقابل المال. فكانوا يجدون الفكرة لطيفة إلى أن أهزمهم.

دفعتني ميلي بطريقة ودّية على نحو مدهش. قالت: "حسناً، حسناً. يبدو أنّنا اكتشفنا موهبتك السرّية".

شجّعتني خلال ما تبقّى من المباراة القصيرة - أفرغتُ الطاولة قبل أن يحين دور أوبري وإفرام - ثمّ أسندَت العصا على الجدار قائلة من فوق كتفها لهما: "أنا بحاجة للذهاب إلى الحمّام، لكنّنا سنتحدّاكما أيّها الأحمقان في جولة ثانية. يمكنكما الاستراحة قليلاً، لمنحكما فرصة للاستعداد للقتال".

تمتم إفرام وهو يبدأ بجمع الكرات: "فقط إذا ربط جونا إحدى يديه خلف ظهره".

سألتني أوبري: "أين تعلّمت اللعب بهذه الطريقة؟".

قلت: "في الجوار". وسرح نظري إلى إحدى طاولات الطوهي خلفنا. جلس حولها شباب يسمّيهم إفرام فرقة الإعدادية، إذ كانوا جميعاً طويلي القامة وشقر الشعر، يرتدون أشياء غريبة، كالأحزمة التي رسمت عليها حيتان. أمّا زعيمهم غير الرسمي فكان ريد تشيلتون، الذي قد تترشّح والدته السناتور للرئاسة في الانتخابات المقبلة. لم أرَ الكثير من

الشابّ إلّا عندما طرق بابنا ليستعير معجون أسنان، لكنّني عرفتُ على الفور أنّه لا يعجبني.

صمت ريد للحظة في وسط المحادثة لمراقبة أوبري وهي تندفع فوق الطاولة لأخذ المثلّث، وقال شيئاً جعل فرقة الإعدادية بجانبه تضحك. فانقبضت يدي حول عصا البلياردو. كلّما رأيت ريد وأصدقاءه، تساءلت ما إذا كان ثمّة سبب لجنون ميلدريد. ربّما رأت أولادها يتحوّلون إلى أنذال واتّخذت تدابير متطرّفة لمنعهم.

"أنت". كان الصوت الذي أتى من جانبي بارداً كالثلج، وعندما استدرت، كذلك كانت النظرة في عينَي ميلي. "تعال معي، حالاً". انتزعَت عصا البلياردو من يديّ، وأسندتها بجانب عصاها على الحائط، ثمّ قالت لأوبري: "سنأخذ استراحة، فأنا أودّ التحدّث مع جونا".

سألتها أوبري: "حول ماذا؟"، لكنّ ميلي شدّت أصابعها حول معصمي كالأصفاد وسحبتني نحو المخرج الخلفي. كان كلّ الود الذي أظهرَته سابقاً قد اختفى. لم يفاجئني ذلك تماماً، لكنّني انزعجتُ من السرعة التي تبدّلَت بها.

سألتها وغضبي يتصاعد بينما كنت أحاول الإفلات من قبضتها: "ما مشكلتك؟ كفّي عن جذبي، فأنا آتٍ معك أساساً".

قالت ميلي بصوت منخفض ونبرة تهديدية وهي تدفع الباب بكتفها: "أوه، يجب أن تشكرني لأنّ هذا كلّ ما أفعله". فُتح الباب، وخرجنا إلى هواء الليل البارد. أخذتُ نفساً عميقاً لتصفية ذهني، لكنّني كدت أشهق عندما فاجأتني رائحة نفايات كريهة. فقد كنّا نقف بالقرب من أحد المستوعبات. توقّفت ميلي، ووضعت يديها على خصرها، ثمّ

استدارت لتواجهني.

"هل يمكننا الابتعاد عن القمامة-" لكن كان هذا كلّ ما استطعتُ قوله قبل أن تمدّ ذراعيها وتدفعني بأقصى قوّتها.

تعثّرتُ إلى الخلف، وقد فوجئتُ بحركتها وبالقوّة الكامنة وراءها. تلك الفتاة تمتلك كثيراً من القوّة بالنسبة إلى حجمها. قلت غاضباً: "لكن ما الأمر؟". رفعتُ يديّ في بادرة استسلام، لكنّ غضبي كان يتصاعد.

أخرجت ميلي شيئاً صغيراً ومربّعاً من جيبها ولوّحت به في وجهي قائلة: "ما الأمر حقّاً؟".

كان ثمّة مصباح فوق الباب خلفنا يصدر ما فيه الكفاية من الوهج لإلقاء ضوء على ما تحمله. فتشنّجت معدتي وأنا أحدّق إلى البطاقة المألوفة، وتلاشى غضبي في لحظة. مددت يدي إلى المحفظة في جيبي الخلفي، أو بالأحرى إلى المحفظة التي كان ينبغي أن تكون في جيبي الخلفي، لكنّها لم تعد هناك.

لهذا السبب، كانت تتصرّف بطريقة ودّية جدّاً ونحن نلعب البلياردو. لقد أخذَتها. انتزعتها مباشرة من جيبي بينما كنت أتباهى بنفسي. كان بإمكاني أن ألكم وجهي لأنّني ركّزت بغباء على اللعبة وفاتني أنّها كانت تخدعني.

حاولت أن أتكلّم بنبرة آمرة وغير منزعجة في الوقت نفسه، لكنّ العرق كان قد بدأ يتجمّع بالفعل عند أعلى جبيني. "أعيدي لي أشيائي".

تبّاً. تبّاً، تبّاً، هذا سيّئ.

لوّحت ميلي برخصة القيادة مجدّداً، ونظرت إليّ من تحت رموشها الطويلة. "بكلّ سرور. ولكن بمجرّد أن تخبرني من أنت بالله عليك يا جونا نورث، ولماذا تزعم أنّك ابن خالي".

الفصل السابع

ميلي

لم يحاول الإنكار ولم أعرف ما إذا كان ذلك يسجَّل لصالحه أم لا.

تمتم جونا الآخر: "لماذا أحضرتُ تلك الرخصة اللعينة". بدا غاضباً، ولكن من نفسه في الغالب على ما أظنّ.

"نعم، حسناً، هذا مجرّد تأكيد". سحبتُ محفظة جونا السوداء الرفيعة من جيبي ودسستُ الرخصة فيها. لقد خدمت غرضها - كما أنّني التقطتُ صورة لها بهاتفي - ولذلك سلّمته المحفظة. "كان قضاؤك على طبق كامل من لينغويني القريدس فيما أنت تعاني من تحسّس على المحار هو ما أثار شكوكي".

بمجرّد أن بدأ جونا بتناول عشاءه في The Sevens، توقّعتُ أن ينتفخ وجهه كما حدث عندما أكل القريدس باللحم المقدّد منذ تسع سنوات في منزلنا. لكنّني صُدمت عندما لم يعانِ ولا حتّى من بعض الاحمرار. وعندما ذهبت لأحضر شرابي، من الجانب الآخر من البار، بحثتُ على غوغل حول ما إذا كان من الممكن الشفاء من التحسّس على المحار، وتبيّن أنّه على الرغم من عدم كون ذلك مستحيلاً، إلّا أنّه أمر بعيد الاحتمال، ولا مفرّ عادة من بعض العوارض الخفيفة. وهذا كافٍ عادة لدفع معظم الأشخاص الذين

يعانون من هذا النوع من المشاكل لتجنّب التهام طبق كامل من هذه الأطعمة في غضون أقلّ من خمس دقائق.

ربّما كان من الممكن أن أعتبر ابن خالي المزعوم واحداً من المحظوظين القلائل، لولا أنّ ذاك الشابّ لم يتوافق إطلاقاً مع جونا ستوري. فمنذ المرّة الأولى التي رأيته فيها على العبّارة، وجدت الأمر غير منطقي. أوّلاً، كان أكثر وسامة بكثير ممّا أتذكّره، حتّى على الرغم من مرور تسع سنوات. من ناحية أخرى، ومع أنّه بذل جهداً كبيراً منذ البداية في تقليد سلوكيات ابن خالي البغيضة، إلّا أنّه لم يتمكّن من الاستمرار في ذلك. جونا هذا مزعج بطريقته الخاصّة - سيّئ السلوك ويعاني من مشكلة حيال شيء ما، هذا واضح - لكنّه لا يملك النبرة التحليلية والأكاديمية التي يتمتّع بها جونا ستوري.

"هل تمزحين؟" تحوّل تعبير جونا المتوتّر إلى غضب مصحوب بعدم التصديق. "تحسّس على المحار؟ شكراً يا جي تي، كانت هذه المعلومة مهمّة".

سألته، مع أنّني أعرف على ما أظنّ: "ومن هو جي تي؟".

توتّر فكّ جونا، ونظر إليّ بصمت لبضع ثوان وكأنّه يحاول أن يقدّر ما عليه قوله. اعترف أخيراً: "ابن خالك. نحن زملاء في المدرسة، والناس ينادونه جي تي لكي لا يخلطون بيننا، اسمه الأوسط ثيودور، لكن أعتقد أنّك تعرفين ذلك أساساً".

كلّا، وحتّى لو كنت أعرف، فقد نسيت، لكنّ جونا نورث لا يحتاج إلى معرفة ذلك. لم أستطع كبت ابتسامة ساخرة لدى التفكير أنّ ابن خالي شخص ثانوي في مكان ما. أنا واثقة أنّ هذا يثير جنونه. "إذاً، كان يعرف أنّك تفعل ذلك؟".

تردّد جونا مجدّداً، وفرك مؤخّر عنقه بيده بينما كانت المشاعر المتضاربة تعبر

وجهه. قال: "لقد طلب منّي القيام بذلك".

"طلب منك أن تنتحل شخصيّته؟" ارتفع صوتي بنبرة تنمّ عن عدم التصديق.

مع أنّنا كنّا الوحيدان هناك، إلّا أنّ جونا أسكتني قائلاً: "هسّ". نظر إلى حاوية القمامة بجانبنا، والتوى فمه قائلاً: "اسمعي، لا يمكنني التفكير بشكل سليم مع هذه الرائحة الكريهة. لذا سأبتعد. يمكنك المجيء معي إذا أردتِ".

"أنا آتية خلفك"، وارتحتُ سرّاً بينما كان جونا يتّجه إلى الجزء الخلفي من موقف السيّارات. عندما وصلنا إلى حافة طريق عشبي، أمسكتُ بذراعه قائلة: "هذا يكفي، انطِق بالباقي. لماذا طلب منك جونا - أو جي تي، أو أيّاً يكن - أن تنتحل شخصيّته؟".

بعيداً عن أضواء المطعم، بدا وجه جونا مجرّد ظلال. "سأخبرك بكلّ شيء، ولكن لديّ شرط واحد". رفع صوته لمنع أيّ احتجاج من جانبي. "لا تخبري أحداً بهويّتي الحقيقية. حسناً، يمكنك إخبار أوبري، ولكن لا أحد غيرها".

"المعذرة، ماذا؟" لم يجبني جونا، فطويت ذراعيّ بإحكام على صدري. يبدو أنّ درجة الحرارة انخفضت بما لا يقلّ عن خمس عشرة درجة منذ أن وصلنا إلى ديونز، وبات قميصي مكشوف الذراعين الذي كان مناسباً داخل المطعم المزدحم غير مجدٍ هنا. أمّا جونا، فبدا مرتاحاً تماماً بسترته القطنية فوق قميصه الباهت المعتاد. "لا يمكنك وضع القواعد عندما تكون أنت مرتكب الاحتيال".

هزّ جونا كتفيه مجيباً: "حسناً إذاً، ليلة سعيدة".

استدار، فاندفعتُ لأمسك بذراعه قائلة: "لا يمكنك الذهاب هكذا!".

"بلى، إذا لم نعقد اتّفاقاً".

"هذا-" صمتُّ لبضع ثوانٍ أخرى حتّى اتّضح لي أنّ الكذب على كاذب ليس أسوأ خطيئة يمكن ارتكابها. "حسناً إذاً، لن أخبر أحداً".

استدار جونا إلى أن أصبح بمواجهتي تماماً. قال كمن يحدّث نفسه: "أنا لا أصدّقك حقّاً، ولكن يمكنني دائماً جرّك معي إذا ما قُبض عليّ، كوني على علم بذلك".

قلت بحدّة: "لا عجب أن تكون أنت وجي تي صديقَين، فأنتما تملكان كثيراً من القواسم المشتركة".

قال جونا ببرود: "لم أقل إنّنا صديقان. هذا ترتيب عمل". أجبرتُ نفسي على التزام الصمت، وبعد بضع ثوانٍ تنهّد قائلاً: "إليك ما حدث. لقد أراد جي تي الذهاب إلى المخيّم العلمي. وهذا تعرفينه، أليس كذلك؟". أومأتُ برأسي موافقة. "لكنّ والده رفض بمجرّد أن وصلت دعوة جدّتك. فثار غضب جي تي، لأنّه حصل على منحة دراسية وما إلى ذلك، وهذا ليس بالأمر السهل، لكنّ آندرز أصرّ عليه للمجيء إلى هنا. وكنت قد تقدّمت إلى المخيّم نفسه، ولكنّني لم أحصل على منحة دراسية، ولذلك لم أستطع الذهاب".

تسلّلت نبرة مرارة إلى صوت جونا وهو يضيف: "كانت المسألة كلّها فكرة جي تي. فقد سمعني أتحدّث في المدرسة عن عدم تمكّني من الانضمام إلى المخيّم، فأتى إليّ في الكافيتريا ذات يوم، وقال إنّه بإمكاننا مساعدة بعضنا البعض". توتّر فكّه متابعاً: "للحظة، ظننت أنّه سيقدّم لي منحته، وكان هذا غباء منّي. فجي تي ليس من هذا النوع من الشبّان، وعلى أيّ حال، ربّما لم يكن الأمر قابلاً للتحويل بهذا الشكل. لكنّه قال إنّه سيدفع لي مبلغاً من المال مقابل ذهابي إلى جزيرة النورس مكانه وعدم إخبار أحد بذلك. سيذهب

إلى المخيّم العلمي، وسأحصل أنا على هذه الوظيفة الصيفية الرائعة مع مكافأة إضافية منه".

رفعتُ أحد حاجبيّ باستغراب: "مكافأة إضافية؟ وكم؟ ما هو السعر المعتمد لانتحال الهويّة هذه الأيّام؟".

قال جونا باختصار: "لا بأس به".

هبّت الرياح بقوّة أكبر، فارتجفتُ وأحكمتُ ذراعيّ حولي أكثر. بدأ جونا يخلع سترته القطنية، لكنّني أوقفته رافعة يدي. "لا تهتمّ يا لانسلوت، أنا بخير. هل فكّرتما حقّاً بهذا الأمر؟ أعني، لأكون صريحة تماماً، نحن جميعاً هنا لإعادة توطيد العلاقة بيننا وبين ميلدريد. فماذا ظنّ جونا - أو جي تي، أو أيّاً يكن - أنّه سيحدث عندما تدرك أنّه أرسل مكانه شخصاً مزيّفاً؟".

أعاد جونا ارتداء السترة مجيباً: "لم يصدّق أنّ جدّتك خطّطت حقّاً لفعل شيء لكم أو لعائلتكم. لقد ظنّ أنّها مجرّد لعبة غريبة قرّرَت أن تلعبها، وأنّها ستعبث بمستقبله بدون سبب وجيه. وبالنظر إلى طريق سير الأمور حتّى الآن، يبدو محقّاً".

أوه، كم أكره أنّ جي تي ستوري لم يمنِّ نفسه بأيّ آمال لا طائل منها مثلنا أنا وأوبري. فحقيقة أنّنا تصرّفنا بسذاجة بينما هو يمضي الصيف تماماً كما أراد زادت من حدّة نبرتي. "وكيف تتوقّع أن تستمرّ بهذه الخدعة لمدّة شهرين؟ ها أنا قد كشفتُ أمرك في أقلّ من أسبوع من دون أن أحاول حتّى".

مرّر جونا يده من خلال شعره قائلاً: "ربّاه، لا أعرف الآن. بدا الأمر منطقياً في ذلك الوقت. فأنا وجي تي في العمر نفسه، ومن المدينة نفسها، ونملك الاسم الأوّل نفسه. لون

بشرتنا متشابه، ولم يطلب المنتجع مطلقاً بطاقة هوية، بل مجرّد شهادة ميلاد. من جهة أخرى، لا وجود لجي تي على وسائل التواصل الاجتماعي، وبالتالي لا أحد يتوقّع أن ينشر شيئاً عن الطريقة التي يمضي فيها هذا الصيف. ولم يرك أنت أو أوبري منذ سنوات، كما أنّه لم يرَ جدّته قطّ. وقد أعطاني كثيراً من المعلومات الأساسيّة عن عائلتكما - قصّة رسالة هذا ما جنته أيديكم، بالإضافة إلى معلومات عن أسرتيكما أنت وأوبري، ومختلف الطرق التي حاول بها الجميع التواصل مع ميلدريد على مرّ السنين. وقد ظننت أنّني أملك كلّ المعلومات التي أحتاج إليها". هزّ رأسه باشمئزاز مضيفاً: "تحسّس على المحار، اللعنة عليه".

سألته: "إذاً، هل أنت من كان يراسلنا أنا وأوبري، عندما تلقّينا الرسائل في البداية، أم أنّه كان جي تي؟".

"بل جي تي. عندما بدأتم الدردشة الجماعية - كان كلّ ذلك حقيقياً - واعتقدَ أنّه سيضطرّ لمرافقتكما إلى الجزيرة. لكن بمجرّد أن وافقتُ على الحلول مكانه، تصرّف كما لو أنّ شيئاً لم يتغيّر. وأعطاني نسخاً مطبوعة عن جميع الدردشات حتّى أعرف ما الذي تحدّثتم عنه".

"ما مشكلتك إذاً؟ من أنت؟".

"لقد رأيتِ الرخصة. أنا جونا نورث، أعيش في بروفيدنس، وأذهب إلى الثانوية نفسها مع ابن خالك. كنت بحاجة إلى النقود، ولذلك انتحلتُ شخصيّته عندما طلب منّي ذلك. هذا كلّ شيء".

"ولماذا تهتمّ إذا كُشف أمرك أم لا؟ فقد حصلتَ على مالك".

قال جونا: "سأتقاضى المال بالتقسيط. لم أحصل سوى على الثلث الأوّل، وبالإضافة إلى ذلك، يدفع منتجع النورس مبلغاً يفوق بكثير ما أتقضاه من العمل لدى والديّ".

"وهل يفوق ما كنت ستجنيه من العمل في موقع تصوير العميل السرّي؟".

أتت نبرة جونا حزينة وهو يجيب: "كلّا، لكنّني لم أستطع القبول. إذ يُفترض بي إرسال صور للمنتجع كلّ أسبوع حتّى يتمكّن جي تي من إقناع والده أنّه يعمل هنا".

"وأين يعتقد والداك أنّك موجود؟".

"هنا، أعمل في وظيفة صيفية كنت محظوظاً بالعثور عليها. هما يجهلان فقط الاسم الذي أستخدمه".

"قلت إنّك كنت تعمل لديهما؟ أيّ نوع من العمل؟".

"لا يهمّ". تراجع جونا خطوة إلى الوراء، واستطعت أن أراه بوضوح في ضوء القمر. لست متأكّدة من سبب انزعاجه من هذا السؤال، لكنّه بدا منهكاً تماماً - غزا التوتّر والإرهاق كلّ عضلة من عضلات وجهه. "اسمعي، سأعود إلى المساكن. أعلم أنّني لا أستطيع إجبارك على كتم هذا السرّ، ولكن أتمنّى أن تفعلي". ثمّ استدار وبدأ يسير مبتعداً. فكّرت في اللحاق به، لأنّه لديّ كثير من الأسئلة، ولأنّه مدين لي ببعض الإجابات. لكن في النهاية، عدت أدراجي إلى ديونز، وتوجّهت إلى الداخل، إلى قريبتي الوحيدة حاليّاً على الجزيرة.

كنت في منتصف الطريق إلى هناك عندما شعرت بشيء دافئ وناعم في يدي، فاستدرت لأرى جونا نورث بقميصه القطني، ويدفع بسترته إليّ.

قال، قبل أن يختفي في الظلام مجدّداً: "استخدميها خلال عودتك إلى غرفتك".

في الليلة التالية كنت لا أزال مشغولة، أهتمّ بالطاولات في فيراندا على النظام الآلي. حملتُ هاتفي نحو عشر مرّات لإرسال رسالة نصّية إلى أمّي أخبرها فيها أنّ جونا مزيّف، لكنّني لم أفعل. أخبرت أوبري - التي صُدمَت على نحو هزلي - ولكن حتّى الآن، كان هذا كلّ شيء. لست متأكّدة ممّا يمنعني، باستثناء أنني لا أستطيع إعادة إخفاء الحقيقة بمجرد كشفها.

لحسن الحظّ، لم أكن مشغولة الليلة. فرئيس قسم الضيافة كارسون فاين يُشرف على قاعة العشاء، وكان يصرّ على أن أحصل على فترات استراحة طويلة لأنّني جديدة. مع أنّني أعتقد أنّ السبب الحقيقي أنّه يريد أن يثرثر معي عند البار.

كنّا جالسَين هناك الآن، وقد احتضن ذقنه بين يديه وهو يمطرني بالأسئلة حول ميلدريد. "إذاً أنت لم تقابليها مطلقاً قبل نهاية الأسبوع الماضي؟". هذه الليلة، كانت ربطة عنقه مزركشة برسوم صدف البحر الوردي الزاهي على خلفية أرجوانية.

أجبته: "مطلقاً". لا فائدة من التظاهر بخلاف ذلك. فقصّة حرمان أولاد ستوري من الميراث ليست سرّاً. وكلّما حاولت أمّي وإخوتها المطالبة بحقّهم القانوني في جزء من ثروة جدّي، كانوا يضطرّون للإفصاح عن مزيد من التفاصيل حول تبرّؤ والدتهم منهم.

قال كارسون بصوت خافت: "المسألة برمّتها غامضة للغاية، وغريبة جدّاً. السيّدة ستوري بالغة اللطف تجاه موظّفيها وأهالي البلدة، فلماذا تكون بهذه القسوة مع أولادها؟".

هذا جزء من القصّة لا يمكن لغوغل أن يكشفه، ومن الواضح أنّ كارسون يأمل أن

أفعل. أجبت: "ليست لديّ أدنى فكرة، فنحن لم نعرف السبب يوماً".

انكمش مجيباً: "حسناً، على الأقلّ قامت بدعوتكم إلى هنا، وهذا مهمّ".

"ثمّ اختفت". لا يمكن لهذا التفصيل أن يكون قد أفلت من كارسون، وربّما أمكنني استخدام فضوله النهِم لمصلحتي. فكلّما طال غياب ميلدريد، ازدادت قناعتي بوجود شيء مريب تجاه هذا الأمر برمّته. وقد بدأ كلّ شيء برسالة تطلب منّا التنسيق مع إدوارد فرانكلين.

"أتساءل عمّا إذا كانت مواعيدنا قد اختلطت". ألقيت بالكذبة بابتسامة محتارة، وأنا أتناول آخر جرعة من كوب الماء. فظهر مارتي، ساقي فيراندا، من العدم لإعادة ملء كوبي. كلّ من في منتجع النورس يعتقدون أنّنا أنا وقريبَيّ لدينا وساطة ما مع ميلدريد، لذلك نحصل على خدمة أفضل من الزبائن. "كنت أفكّر في التواصل مع إدوارد فرانكلين للتأكّد، ولكنّ معلومات الاتّصال الوحيدة التي أملكها هي عنوان بريده الإلكتروني التابع للمنتجع". انتظرت لبضع لحظات، كما لو كنت تائهة في أفكاري. "أنا لا أعتقد أنّكم تملكون بريده الإلكتروني الشخصي، أليس كذلك؟ أو رقم هاتفه؟".

أجاب كارسون وهو ينفض خصلة من شعره الأشقر الباهت عن جبهته: "بالطبع لدينا، لكن لا يمكنني إعطاءك إيّاه، بسبب قوانين الخصوصية وما إلى ذلك".

قلت بحزن: "صحيح". كنت أفكّر ما إذا كان بإمكاني إقناعه بمقايضة المعلومات مقابل إشاعة فاضحة ومزيّفة لآل ستوري، عندما رنّ هاتفه في جيبه. فأخرجه ونظر إلى الشاشة عابساً.

"حسناً، إنّهم يحتاجون إليّ لسبب ما. سأعود حالاً".

راقبته وهو يشقّ طريقه بين طاولات قاعة العشاء إلى أن تنحنح مارتي. لم أكن قد لاحظت أنّه ما زال واقفاً هناك. قال: "اسمعي، إذا كنت تريدين التواصل مع إدوارد، حاولي أن تسألي تشاز".

عبستُ قائلة: "ولماذا أسأل تشاز؟".

"لقد كان هو وإدوارد صديقَين حميمَين لفترة من الوقت، وربّما ما زالا على اتّصال".

أجبتُ وأنا أستوعب الأمر: "آه، حسناً". لم يكن قد خطر ببالي أن يكون تشاز شاذّاً، أو يواعد أحداً. أذكر أنّه فضّل تغيير الحديث عن حياته العاطفية في إحدى المرات التي تطرّقنا فيها إلى الموضوع. "شكراً، سأسأله. هل تعلم ما إذا كان سيداوم الليلة؟".

"كلّا، بل هو في إجازة مَرضية. ومن المحتمل أن يستمرّ مرضه لفترة من الوقت، إذا كنتِ تفهمين ما أعنيه"، قال مارتي ذلك، وهو يقلّد حركة إمالة زجاجة إلى شفتيه.

"أوه كلّا". لم تغب عنّي كمّية الشراب التي يستهلكها تشاز سرّاً في أثناء عمله، فالناس لا يلتقطون حيل البارات التي أستعملها إلّا إذا كانوا يلجأون إلى حيل خاصّة بهم. ولكنّه محترف للغاية بحيث افترضت أنّ عاداته في الشرب تحت السيطرة. "وهل يحدث هذا كثيراً؟".

"أكثر ممّا ينبغي. إنّه سرّ متداول على نطاق واسع في المنتجع، والكلّ يعرف ما عدا كارسون". اتّجه نظر مارتي إلى قاعة العشاء، فبدا رأس كارسون الأشقر يلمع تحت الإضاءة الخافتة للمطعم وهو يشقّ طريقه نحونا. "تشاز رجل جيّد، على الرغم من ذلك، كما أنّه نادل رائع عندما يكون بكامل وعيه. لهذا السبب، نحن نهتمّ لأمره".

قلت بينما كان كارسون يرفع يده ملوّحاً: "فهمت". لم يكن بمفرده، وتوقّف قلبي للحظة عندما أدركت وجود امرأة مسنّة تسير بجانبه. هل ظهرت ميلدريد أخيراً؟ ولكن عندما اقتربا، أدركتُ أنّني كنت مخطئة. فهذه المرأة في عمر جدّتي تقريباً، لكنّ شعرها رمادي، وليس أبيض نقياً، كما أنّها ترتدي ثوباً بنّياً بسيطاً مع قبقاب. لكنّ كارسون بدا سعيداً بجانبها، وهو يقودها نحوي بابتسامة عريضة.

"ميلي، أودّ أن أعرّفك بمساعدة جدّتك، تيريزا رايان. لقد أتت لرؤيتك، ولديها أخبار".

قال كارسون ذلك بترقّب وحماسة، فصدرت ضحكة خافتة عن تيريزا. مدّت يدها، وأحاطت أصابعُها الدافئة بأصابعي عندما صافحتها. "هذا يجعل لقاءنا يبدو حماسياً، أليس كذلك؟ مرحباً، ميلي. يسرّني لقاؤك".

أجبتها ونبضي يتسارع: "أنا أيضاً". لطالما كانت والدتي على علاقة جيّدة بتيريزا - كانتا المشجّعتين الوحيدتين لليانكيز في منزل مليء بالمتعصّبين لريد سوكس، كما اعتادت على إخباري - وبقيت على اتّصال بها لبضع سنوات بعد أن حُرمَت والدتي من الميراث. أخبرتني أمّي أنّ تيريزا كانت دائماً لطيفة، ولكنّها واثقة أنّ ميلدريد لم تشارك أسبابها مع أحد باستثناء دونالد كامدن. وفي النهاية، شعرَت والدتي بالإحباط وتوقّفت عن الحديث معها هي الأخرى.

"لقد طلبت منّي السيّدة ستوري المجيء. سترجع قريباً إلى الجزيرة، وتريد دعوتكم أنتم الثلاثة إلى كاتمينت هاوس لتمضية يوم الأحد. ليس غداً". أضافت ذلك عندما حملقتُ عينيّ بدهشة. "فهي ما زالت في بوسطن، وعلى أيّ حال، نحن في الرابع من

يوليو. عليكما أيّها الشباب البقاء بالقرب من المنتجع، فثمّة دائماً فعاليات جميلة يخطّط لها الموظّفون والضيوف، بالإضافة إلى عرض للألعاب النارية يخطف الأنفاس حقّاً. أنا متأكّدة من أنّ كارسون أخبركم كلّ شيء عن ذلك".

ألقيت نظرة على كارسون، واستطعتُ أن أقرأ التوسّل في ابتسامته الثابتة. من فضلك، يا ميلي. تظاهري لمرّة واحدة أنّك لم تسكتيني عندما بدأتُ أتحدّث عن أنشطة الطوهي. فأجبت: "آه نعم، بالطبع. وأنا أتطلّع إلى ذلك".

قالت تيريزا: "ممتاز، أتمنّى أن تستمتعوا. على أيّ حال، تودّ جدّتكم استضافتكم لتناول إفطار متأخّر يوم الأحد التالي، في الحادي عشر من يوليو. وآمل ألّا يتضارب ذلك مع جداول عملكم؟". أضافت ذلك وهي تلتفت إلى كارسون مبتسمة.

فأكّد لها: "بالطبع لا".

أجبت: "حسناً"، وبحثت في عينَي تيريزا عن أيّ تلميح وراء كلماتها. هل تريد جدّتي رؤيتنا؟ أم أنّها تشعر فقط أنّها مضطرّة لذلك، حفاظاً على المظاهر؟ لكنّ تعبير تيريزا اللطيف لم يتغيّر.

"تريد السيّدة ستوري أيضاً أن تحرصوا على ترك السابع عشر من يوليو حرّاً. سيكون يوم سبت، وهي ليلة الحفل الصيفي، وتودّ منكم الحضور كضيوفها". ومضت في ذهني صورة لأمّي في سنّ الثامنة عشرة، مرتدية ثوب سهرة أبيض مع قلادة على شكل دمعة من الألماس، تلك القلادة التي كنت أرغب في امتلاكها لدرجة أنّني تخلّيت عن هذا الصيف من أجلها.

إلّا أنّني أدركت أنّ الأمر ليس بهذه البساطة.

نعم، أريد القلادة، لكنّ الأهمّ أنّني أريد أن ترغب أمّي في إعطائي إيّاها. أريدها أن تكون من الأشخاص الذين يهتمّون بتوريث شيء ذي معنى من الأمّ إلى الابنة، من دون ضغوط، لكنّها ليست كذلك. لذا، إن لم يكن بإمكاني نيل ذلك، فإنّ ما جئت من أجله حقّاً هو التالي: فرصة أن أكون في حضور جدّتي، ودائرة المقرّبين منها، وكلّ هؤلاء الأشخاص في جزيرة النورس الذين يتذكّرون أمّي كطفلة ومراهقة. لأنّه بالتأكيد، لا بدّ أن يكون أحدهم على علم بما حدث قبل أربعة وعشرين عاماً ليدفع ميلدريد ستوري إلى قطع علاقتها بأولادها الأربعة وعدم النظر إلى الوراء قطّ. وربّما إذا عرفتُ، فسوف أتمكّن أخيراً من فهم أمّي.

كانت تيريزا مستمرّة في الحديث، فأعدت تركيزي الشارد عليها. كانت تشرح قائلة: "إنّها حفلة رسمية، يرتدي فيها الرجال البدلات الرسمية والنساء ملابس السهرة. نحن ندرك أنّكم لم تحضروا معكم ربّما الملابس المناسبة، ولذلك يمكنكم أنتم الثلاثة التسوّق من متاجر الجزيرة وتحويل ثمن مشترياتكم إلى حساب ستوري".

على الرغم من غرابة الموقف، إلّا أنّني شعرت بقليل من الإثارة. فهذا يشبه تقريباً تخيّلات التسوّق في طفولتي، باستثناء الجزء الذي تفوّض فيه ميلدريد التفاصيل لمساعدتها. و... قلت: "لا شيء سيناسب". عندما رفعت تيريزا حاجبيها مجدّداً، وجّهتُ يديّ إلى جسدي قائلة: "بقامتي القصيرة لن أجد في المتاجر ثوباً يناسبني".

ضحكت تيريزا ضحكة خافتة مجدّداً: "لا تقلقي. أيّ متجر تختارينه سيعتبر تعديل الثوب أولويّة بالنسبة إليه". قالت ذلك كما لو أنّ المسألة حُسمت.

وأعتقد أنّها حُسمت بالفعل.

الفصل الثامن

أوبري

نظرت إليّ ميلي بترقّب، ثمّ قالت: "إذاً، هل نفضح أمر جونا المزيّف قبل موعد الإفطار مع ميلدريد، أم لا؟".

ابتلعتُ آخر قطعة من حلوى بلومويتش قبل أن أجيب. كنّا في وسط مدينة النورس بعد ظهيرة يوم الثلاثاء، نحاول أن نجرّب طبق الحلوى المميّز في سويتفيرن بيكري وهو عبارة عن ساندويتش آيس كريم مصنوعة من آيس كريم بنكهة برقوق الشاطئ، مع الكعك المحلّى المقلي. بدا شكلها أفضل من طعمها، ولكن هذا لم يمنعنا من القضاء على الطبق.

أجبتها: "لا أدري، ولمن سنكشف ذلك؟".

"لأهالينا ربّما؟" خرج السؤال بشكل غير مؤكّد من ميلي الحاسمة عادة. "أو لتيريزا".

"يمكننا ذلك، ولكن..." تردّدتُ قليلاً. فعلى عكس ميلي، أعرف ما معنى أن يكون المرء بحاجة إلى المال. ولا يهمّني كثيراً أن يكون جونا نورث قد حلّ محلّ جونا ستوري. فصحيح أنّ جونا الجديد نيّق بعض الشيء، لكنّه يبدو عموماً نسخة أفضل من قريبنا

الفعلي. "إنّه ليس أكبر همومنا في الوقت الحاليّ، أليس كذلك؟".

ضحكت ميلي، لكنّني لم أكن أمزح. فجونا نورث يحلّ في المركز الرابع في قائمة همومي. المركز الأوّل يحتلّه أبي، والثاني يتمثّل في دعوة الإفطار والحفلة الرسمية لدى جدّة ما زالت بالكاد تعترف بوجودي. أمّا المركز الثالث، فقد حلّ فيه صمت توماس الغريب، وحقيقة أنّني لا أفتقد إليه بقدر ما ظننت. فقد توقّفتُ عن إرسال الرسائل النصّية، وفي بعض الأحيان أحدّق إلى هاتفي الصامت وأتساءل ما إذا كان هذا يعني أنّنا انفصلنا. كما أتساءل لماذا لا يمكنني استدعاء الطاقة الكافية للاكتراث، إذا كنّا قد انفصلنا بالفعل. فالأمر يبدو حتمياً تقريباً، كما لو أنّه ما من شيء في حياتي السابقة المريحة والمعتادة سيبقى على حاله.

كان الرابع من يوليو قبل يومين، وبين الألعاب النارية وحفلة الطوهي، بقيتُ مستيقظة لوقت متأخّر جدّاً. بعد ذلك لم أستطع النوم. وبينما كانت ميلي تتنفّس بانتظام على السرير الآخر في غرفتنا، تمدّدتُ في سريري ورحت أتتبّع صدعاً في الحائط بإصبع واحد وأنا أفكّر في العواقب غير المقصودة. تذكّرت كيف أنّني فعلت شيئاً في العام الماضي، بدا في ذلك الوقت أصغر وأقلّ أهمية من هذا العيب الصغير على مساحة خالية في ما عدا ذلك من الشوائب، وكيف تسبّب في سلسلة من ردود الفعل التي أدّت إلى انهيار عائلتي.

منعني الشعور بالذنب بعد وصولي إلى هنا من التحدّث إلى والدتي بقدر ما كنت أفعل عادةً، لكنّني أرسلت لها رسالة نصّية يوم الأحد عندما أنهكني الأرق. هل تحدّث أبي يوماً عن شاطئ كاتي؟

لم تجبني أمّي، التي تنام دائماً في ساعة مبكرة أمام التلفزيون، حتّى صباح يوم

أمس. شاطئ كاتي؟ ولماذا تسألين؟

لم أعرف بماذا أجيب، ولذلك اكتفيت بردّ غير واضح. ذهبتُ إلى هناك قبل يومين، وقد ذكّرني به.

أخذت وقتها في الردّ. كان يذكره من وقت إلى آخر، لكنّني لا أعتقد أنّه كان يحبّه حقّاً، ولا أستطيع إخبارك بالسبب، فهو مجرّد انطباع. مع ذلك، مضى وقت طويل منذ أن تحدّثنا أنا وأباك عن الوقت الذي أمضاه على الجزيرة.

هذا ما جعل معدتي تتشنّج بعدم ارتياح. ليس فقط لأنّه زاد من غرابة العلاقة التي بدأت تتشكّل في ذهني بين أبي وشاطئ كاتي، ولكن لأنّه ذكّرني أيضاً بمدى توتّر الأمور بين والديّ، حاليّاً، وربّما منذ وقت أطول ممّا عرفت. لذلك، تحجّجت بعذر لإنهاء المحادثة.

عندما أريت الرسائل لميلي، هزّت كتفيها بلا اكتراث، وقالت: "حسناً، إنّه شاطئ قبيح. لم يعجبني كثيراً أنا أيضاً".

أعادني صوت ابنة عمّتي إلى الحاضر، واضطررتُ لإنعاش ذاكرتي لأستعيد الموضوع الذي كنّا نتحدّث عنه. أجل، جونا المزيّف. قالت: "لا يمكنه الاستمرار في هذه الكذبة إلى الأبد. وعندما سيُكشف أمره، سنكون نحن الاثنتان في وضع حرج لأنّنا تستّرنا عليه".

"نحن بحاجة إلى مزيد من الكافيين من أجل هذا النقاش". قلت ذلك، ثمّ وقفتُ وجمعتُ فنجانَي القهوة المثلّجة الفارغَين. "هل تريدين الشيء نفسه؟".

"نعم شكراً".

كان صفّ الانتظار أقصر ممّا كان عليه عند وصولنا، ولكن مع ذلك، لا يزال أمامي

ثلاثة أشخاص. رحت أتأمّل المكان وأنا أنتظر. يشبه سويتفيرن قلب عصيّ الحلوى: جدران مخطّطة باللونين الأحمر والأبيض، وطاولات وكراسٍ من الحديد المطاوع، وأرضيّة حمراء لامعة بلون الكرز. كان الهواء دافئاً على الرغم من أزيز التكييف ومحمّلاً برائحة السكّر والشوكولاتة. على الحائط، خلف ماكينة المحاسبة، اصطفّت عشرات الصور ذات الإطار الأسود. نظرتُ إليها بشرود، ثمّ التفتُّ مجدّداً عندما تعرّفتُ على وجه مألوف في الصورة المعلّقة فوق الكتف الأيمن لأمينة الصندوق.

كان والدي في عزّ شبابه، بوسامته وشعره الداكن، يحتضن بإحدى ذراعيه أقبح لوحة رأيتها في حياتي. إذ بدت وكأنّ طفلاً جرّ كرة خيطان في الوحل. كانت ذراع أبي الأخرى تلتفّ بشكل عرضي حول كتفَي امرأة أكبر سنّاً، وضعت راحة يدها بحنان على خدّه. حتّى من مسافة بعيدة، استطعتُ رؤية البقعة المميّزة على يدها. إنّها جدّتي التي تظهر في أماكن غير متوقّعة.

اقتربتُ قليلاً لقراءة الكتابة أسفل الصورة: ميلدريد وآدم ستوري، مع الفائز بالمركز الأوّل في مسابقة الفنّانين المحلّيين في جزيرة النورس عام 1994. من الصعب التصديق أنّ امرأة تملك مجموعة فنّية مشهورة عالمياً تمنح شريطاً أزرق لذاك الشيء.

عندما حان دوري لأدفع، مرّرت بطاقتي الائتمانية باليد اليسرى، على الرغم من أنّني أعلم أنّه من السخف أن أتخيّل أنّ أمينة الصندوق المراهقة، التي بالكاد تنظر إليّ، سترى الوحمة على ذراعي وتدرك أنّني من آل ستوري. مع ذلك، فإنّ عدم التلويح أمامها بذراعي منحني الشجاعة لأسأل: "هل أيّ من هذه الصور المعلّقة على الحائط معروضة للبيع؟".

"ماذا؟" أخيراً، نظرت أمينة الصندوق مباشرة إلى عينيّ، ورفعت حاجبيها الرفيعين باستغراب. "لا أظنّ ذلك، فهي معلّقة هنا للزينة".

أجبتها وقد شعرت بحماقة سؤالي: "حسناً". كان والدي في عامه الأخير في جامعة هارفارد عندما حرمته ميلدريد من الميراث. كان يعيش في كامبريدج، وقد خسر فرصة العودة إلى كاتمينت هاوس وجمع مقتنياته الشخصية. ومع أنّ أحدهم قام بتعبئة أمتعته في صناديق وأرسل محتوياتها إليه، إلّا أنّها لم تتضمّن أيّ صورة عائلية. لذا، قد يكون من الرائع أن أحضر له معي صورة قديمة، ولكن ما من طريقة لأشرح كلّ ذلك لأمينة صندوق يبدو عليها الملل.

استدرت وكدت أصطدم بالشخص الذي يقف ورائي. قال صوت مألوف: "صورة جميلة، أليس كذلك؟ لكنّ اللوحة رهيبة". كانت هيزل باكستر كليمنت، التي أشارت للشخص التالي أن يسبقها وهي تقترب من الجدار الذي عُلّقت عليه الصور. لم أجد أثراً لجدّها في المكان. "هذه أوّل مسابقة فنّية محلّية سنوية. وأحبّ الاعتقاد أنّنا تحسّنا منذ ذلك الحين".

سألتها: "هل أنت فنّانة؟".

"أنا؟ كلّا، بل أهتمّ فقط بتاريخ جزيرة النورس". دفعت هيزل مجموعة أساورها الجلدية إلى الأعلى وهي تسألني: "كيف الحال؟".

"جيّد، وكيف حال جدّك؟".

"على ما يرام". أمالت رأسها مبتسمة. "كنت أتمنّى التواصل معكم يا رفاق".

أجبتها بضعف: "لقد كنّا مشغولين حقّاً". من فوق كتف هيزل، رأيت ميلي تشير إلى ساعتها الذهبية الكبيرة المتوقّفة ومن ثمّ باتّجاه الباب. "في الواقع، كنّا في طريقنا للخروج. فقد حان وقت العودة إلى العمل".

"حسناً، أخبريني عندما تكون جداول أعمالكم أقلّ ازدحاماً. فصحّة جدّي أفضل بكثير مؤخّراً، وربّما استطاع إخباركم ببعض القصص عن أهاليكم".

توقّفتُ للحظة، لأنّ الأمر كان مغرياً في الواقع. "هلّا أعطيتني رقمك مجدّداً؟ أعلم أنّ جونا يملكه، ولكنّه فوضوي نوعاً ما".

أشرق وجه هيزل وهي تجيب: "بالتأكيد"، ثمّ تلته عليّ مجدّداً وتنحّت جانباً للسماح لي بالمرور. "راسليني في أيّ وقت".

كانت ميلي لا تزال واقفة بجانب الباب، تبقيه مفتوحاً بإحدى قدميها بينما تضرب الأرض بقدمها الأخرى بنفاد صبر. تمتمت بصوت خافت عندما وصلتُ إليها: "ماذا تريد؟".

أجبتها وأنا أعطيها فنجان القهوة المثلّجة قبل أن نغادر المقهى: "ما زالت تريد التحدّث إلينا. قالت إنّ جدّها أفضل حالاً، وربّما أمكنه أن يشرح لنا عن كلّ الأشياء الغريبة التي قالها عندما التقينا به".

بدت ميلي متشكّكة وهي تضع نظّارتها الشمسية. "أو ربّما كانت تقول ذلك فقط لكي تتمكّن من تحويلنا إلى ورقة بحثية".

اتّجهنا إلى رصيف المشاة، بعيداً عن رصيف العبّارات، مروراً بصفّ من المتاجر والمطاعم. قالت ميلي: "المكان هنا أشبه بنسخة مصغّرة للجادة الخامسة". توقّفَت قليلاً

للنظر إلى واجهة متجر كُتب عليها متجر كايلا، ثمّ أضافت: "أوه، يبدو هذا لطيفاً. علينا شراء أثوابنا من هنا".

أجبتها: "حسناً"، لكنّ ذهني كان لا يزال مشغولاً بالصورة التي رأيتها على حائط سويتفيرن. أنا مدينة لأبي بمكالمة، وللمرّة الأولى منذ وصولي إلى هنا، شعرت بالرغبة في التحدّث إليه. فعندما رأيته مسترخياً وسعيداً للغاية مع الجدّة، تذكّرت ما كنت أشعر به عندما يبتسم إليّ تلك الابتسامة الجميلة. قبل أن أفكّر أكثر بما أفعله، أخرجت هاتفي وطلبتُ رقمه. تمتمت لميلي: "سأجري مكالمة سريعة".

رنّ الهاتف أربع مرّات قبل أن يجيب، وعندما فعل، بدا صوته حادّاً. "أوبري".

"مرحبا أبي". بدأت أسير مجدّداً، وانعطفت بشكل حادّ عبر شارع جانبي أقلّ ازدحاماً، تظلّل رصيفه أشجار طويلة مزروعة خلف جدار حجري. خلفي، سمعت وقع خطوات ميلي وهي تتبعني. "كيف حالك؟".

أجاب ببرود: "بخير". ثمّ صمت مجدّداً، ولو لم أكن أعرفه لظننت أنّ الخطّ انقطع. إنّه يعاقبني على تجنّبه طوال الأسبوع. هذا ما يفعله والدي عندما ينزعج: يحجب عاطفته واستحسانه ليوضح خيبة أمله. أنا أعلم ذلك، ولكن...

قلت له: "سأذهب لتناول الإفطار عند جدّتي في عطلة الأسبوع المقبلة، هل أخبرتك أمّي؟".

"أجل". تبع ذلك صمت طويل آخر. "لقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً حقّاً".

أجبته وأنا أكره النبرة الدفاعية التي تسلّلت إلى صوتي: "كان عليها الذهاب إلى

بوسطن". أخذت رشفة من القهوة المثلّجة وكدت أبصقها. لقد أعطتني أمينة الصندوق القهوة بالبندق عن طريق الخطأ، وهذه أقلّ نكهة أحبّها في العالم. رميت الكوب الممتلئ تقريباً في سلّة المهملات وأنا أواصل السير.

قال أبي: "لقد سمعت، وأنا مندهش لأنّك تركت ذلك يحدث".

أغلقتُ أذني الأخرى بسبّابتي، غير واثقة من أنّني سمعته بشكل صحيح. "ماذا تقصد؟ أنا لم أسمح بحدوث شيء. لقد ذهبَت وحسب".

"بالطبع، لأنّك لم تتصرّفي بطريقة استباقية بما فيه الكفاية".

"لم أتصرّف بطريقة استباقية بما فيه الكفاية". كرّرت جملته وأنا أتوقّف. توقّفت ميلي أيضاً. كنّا بجانب مدخل حجري مقنطر، تفيد اللوحة الذهبية المعلّقة بجانبه أنّ ما يوجد بداخله إمّا سياحي أو مهمّ تاريخياً، لكنّ رؤيتي أصبحت ضبابية للغاية لأميّز ما كتب عليه. "تعتقد أنّه كان يجدر بي أن أتصرّف بطريقة استباقية أكثر".

"نعم، فهذه مشكلتك الكبرى يا أوبري. أنت سلبية. تفضّلين أن تضيعي صيفاً كاملاً بدلاً من أخذ زمام المبادرة". كان يجمع الزخم، كما لو أنّه كان ينوي مناقشة هذا الموضوع معي منذ مدّة، وقد فتحتُ له المجال بنفسي. "هل خطر ببالك الاتّصال بجدّتك بنفسك، أو التحدّث إلى مساعدتها؟" لم أجبه، فتصاعدت نبرته أكثر. "لا أظنّ ذلك. لأنّك لا تبادرين، بل تتفاعلين وحسب. هذا ما عنيتُه بالتصرّف الاستباقي".

لم أستطع الردّ لبضع ثوان. وقفت جامدة على الرصيف، وومضت في ذهني الكلمات التي قالها د. باكستر في اليوم الأوّل لي في جزيرة النورس. كان آدم يملك بذور العظمة، أليس كذلك؟ لكنّه ضيّعها. يا له من فتى أحمق. كان بإمكانه أن يغيّر كلّ شيء

بكلمة واحدة.

أتساءل ما كانت تلك الكلمة، وما إذا كانت مثيرة للغضب بقدر-

سألته: "استباقي؟". انفجر الكلام منّي مثل الجليد، حادّ وبارد وقاتل. "هل تقصد استباقي مثلك عندما أقمتَ علاقة مع مدرّبتي في السباحة وحملَت منك؟ أهذا هو السلوك الاستباقي الذي يجب أن أهدف إليه؟".

شهقت ميلي، ثمّ ضغطت بكلتا يديها على جانبي لتدفعني بعيداً عن المارّة المتناثرين على الرصيف وعبر الممرّ المقنطر. كنّا في مكان هادئ ومحاط بالخضرة، لكنّني لم أستطع أن أركّز على شيء باستثناء صوت أبي القاسي والمصدوم الذي دوى في أذني. "ماذا قلتِ؟".

رحت أرتجف وأنا أمشي إلى الأمام بشكل أعمى، وميلي بجانبي. كان حلقي متشنّجاً، وبالكاد استطعت إخراج الكلام. "لقد سمعتني".

"أوبري إليزابيث. كيف تجرؤين على التحدّث معي بهذه الطريقة؟ اعتذري على الفور".

كدت أفعل. فالرغبة في إرضائه قويّة جدّاً، تأصّلَت على مدى سبعة عشر عاماً، بحيث أشعر، على الرغم من كلّ شيء، برغبة عارمة في إزالة الغضب من صوته. علماً أنّني أنا التي يجب أن تغضب. وكنت غاضبة بالفعل، ولكن ليس الغضب الجارف الذي يستحقّه، بل من النوع الذي سيتحوّل إلى اعتذار مثير للشفقة إذا بقيت على الهاتف. أجبت بصوت مخنوق: "كلّا، سأنهي المكالمة الآن. لا أريد التحدّث إليك بعد اليوم".

قطعت الاتّصال وأطفأت هاتفي على الفور، ثمّ دسسته في جيبي، وسقطتُ كالصخرة على العشب، وقد غطّيت وجهي بيديّ.

شعرت بحركة بجانبي، وبيد متردّدة تربّت على ذراعي. قالت ميلي: "يا إلهي، كان ذلك مذهلاً. لم أتوقّع شيئاً منه". وعندما لم أجبها، أضافت كما لو أنّها تحدّث نفسها: "لم أعتقد أنّك قابلة للانفجار بهذا الشكل".

خفضت ذراعيّ وقلت بنبرة لائمة: "حقّاً؟ إذاً أنت تتّفقين مع أبي على أنّني فاشلة؟ شكراً جزيلاً، يا ميلي".

اتّسعت عيناها برعب مجيبة: "أوه! كلّا، لم أقصد ذلك. كنت أعني... أنا آسفة. أنا لست بارعة في مواساة الناس، هذا واضح". ظلّت تربّت على ذراعي بشكل آلي، وكانت على حقّ. فما من شي مريح بتلك الحركة. أضافت أخيراً: "الخال آدم نذل، وأنا سعيدة لأنّني تقيّأتُ عليه عندما كنت في الثانية".

ضحكتُ ساخرة: "هل فعلتِ حقّاً؟".

"بحسب أمّي، نعم".

"لم يذكر هذا الأمر قطّ. ولا يدهشني ذلك، فنحن لا نتحدّث عن أيّ شيء يجعله يبدو غير كامل. لم يكن يفترض بي قول شيء". شعرتُ بغصّة في حلقي، فابتلعتها وتابعتُ قائلة: "لا يكفي أنّه خان أمّي، بل فعل ذلك مع تلك المرأة. كانت ماتسون مدرّبتي منذ المرحلة الإعدادية! وكنت أعشقها، حتّى إنّني أردت أن أكون مثلها، لا بل... يا إلهي، أنا الحمقاء التي عرّفتهما إلى بعضهما البعض".

كانت الصورة تسيطر على ذهني طوال الشهر: أنا أسحب أبي إلى حافة حوض السباحة، وأصرّ على أن يقابل أخيراً المرأة التي درّبتني لسنوات. وقفتُ بفخر بين مدرّبتي الشابّة الجميلة وأبي الوسيم والمميّز، وقد أسعدني أنا أكون حلقة الوصل بين أكثر شخصين أحبّهما في العالم. ولم يخطر ببالي قطّ أنّهما سيُعجبان ببعضهما البعض بأيّ شكل من الأشكال.

كان هذا الموقف بالغ السخافة، لكنّ أسوأ ما فيه كان إدراكي أنّ أيّاً منهما لم يفكّر بي يوماً بقدر ما ظننت.

بدأت الدموع تتجمّع في عينيّ وتسيل على خدَّي. لم أبكِ كما ينبغي منذ أن أعلن والدي الخبر في الشهر الماضي. في البداية، شعرت بصدمة شديدة منعتني من إبداء أيّ ردّ فعل، وبعد ذلك - كما فعلت طوال حياتي - نفّذتُ ما يريد. لم يرغب في التحدّث في الموضوع، ولذلك لم أفعل. تصرّف كما لو أنّ هذا الشيء حدث لعائلتنا، وليس هو من تسبّب به، أو كما لو كان حادثاً طبيعياً عشوائياً لم يكن بإمكان أحد توقّعه أو تجنّبه. واستغرق الأمر الابتعاد عنه ثلاثة آلاف ميل لأدرك حجم الضرر الذي ألحقه بأسرتنا.

أخذت نفساً عميقاً، محاولة أن أستعيد السيطرة على نفسي، وانتهى الأمر بخروج شهقة مخنوقة عالية، تبعتها أخرى.

قالت ميلي عندما أخذ بكائي يزداد شدّة: "أوه، أوه كلّا. الأمر، امم، سيكون كلّ شي على ما يرام. لديّ منديل هنا في مكان ما، انتظري...". سمعتها وهي تبحث في حقيبتها، ثمّ أصبح صوتها يائساً بعض الشيء. "حسناً، إنّه ليس منديلاً، بل إحدى تلك الخرق التي تُستخدم لإزالة البقع عن النظّارة، لكنّها جيّدة وناعمة، ونظيفة على الأغلب. هل

تريدينها؟".

أخذتها منها بضحكة مخنوقة ومسحتُ بها عينيّ. "كنتِ جادّة، أنت فاشلة في ذلك".

قالت: "على الأقلّ، جعلتك تضحكين، ولو قليلاً"، ثمّ أخذت إحدى يديّ بيديها وضغطت عليها بحزم. بدت أقرب إلى من يترشّح لمنصب منها إلى شخص يقدّم المواساة، ولكنّني تركتها تفعل. قالت بجدّية: "أنا آسفة حقّاً، ولكن هذا ليس خطأك. من الطبيعي تماماً أن ترغبي في اتّفاق الأشخاص الذين تهتمّين لأمرهم".

"وهل فعلا حقّاً؟ أسوأ ما في الأمر أنّني اعتقدت أنّهما اتّفقا بسببي. هذا مثير للشفقة، أليس كذلك؟".

قالت ميلي: "أجل". فألقيت عليها نظرة لائمة أخرى إلى أن أضافت: "أفترض أنّك تتحدّثين عن الخال الذي يعاني من أزمة منتصف العمر والمدرّبة مدمّرة الأسر؟ آه، يا له من كليشيه فظيع، أليس كذلك؟ هما الاثنان".

رففتُ عينيّ لإمساك دموع جديدة. "كلّ شيء في حالة فوضى. أشعر بالذنب لدرجة أنّه يصعب عليّ التحدث إلى أمّي كالمعتاد، على الرغم من أنّها أكّدت لي مليون مرّة أنّه لا علاقة لي بما جرى. توقّفتُ عن السباحة مع فريقي لأنّني لم أستطع الوقوف بجوار المدرّبة ماتسون، ولا أعتقد أنّني سأتمكّن من العودة يوماً. لا أستطيع أن أتخيّل ما ستكون عليه التدريبات العام المقبل بمجرّد أن يكتشف الفريق ذلك. فما من أحد في المدرسة يعرف القصّة بعد".

بمن في ذلك توماس. كنت أرغب في إخباره، لكنّني لم أجد يوماً التوقيت المناسب.

ولا أعرف ما يعنيه بالنسبة إلى علاقتنا أنّني أخبرت ابنة عمّتي التي تعرّفت إليها منذ أقلّ من أسبوعين قبل أن أخبر صديقي الذي عرفته لأربع سنوات. غير أنّه يفسّر على الأرجح ذلك الانفصال الصامت.

سألَت ميلي: "وماذا سيحدث؟ أعني مع الطفل وما إلى ذلك؟".

"ستحتفظ به. هذا يعني أنّني سأرزق بأخ غير شقيق في وقت ما هذا الخريف. وربّما سيكون الصبيّ الذي لطالما أراده أبي". ضغطت ميلي على يدي بقوّة أكبر وأنا أضيف: "لا أعتقد أنّ والديّ سيتجاوزان هذا الأمر، لا أرى كيف سيتمكّنان من ذلك. وبما أنّ أبي يرفض إيجاد عمل حقيقي ليعيل نفسه... فإنّ السيناريو الأسوأ باعتقادي أنّ مدرّبتي ستصبح زوجة أبي". ولّدت هذه الفكرة رعدةً سرت في جسدي بكامله، فتركتها تمرّ قبل أن ألقي نظرة اعتذار على ميلي. "أعني، أعلم أنّ لديك زوجة أب أنت أيضاً، لكن-"

سارعت بالقول: "الأمر مختلف تماماً. فالمسألة لم تنطوِ على خيانة، كما أنّ والدي لم يقابل ثريّا إلاّ بعد إتمام الطلاق. ولم يكن هو من أراد الطلاق في الأساس".

خفضتُ رأسي متسائلة: "تُرى ما خطب والدي؟ كان بإمكانه أن يكون أكثر من ذلك بكثير. ما قاله د. باكستر صحيح، كان يملك بذور العظمة، لكنّه ضيّعها. يا له من فتى أحمق".

قالت ميلي: "أعلم. يساورني الشعور نفسه تجاه أمّي. فصحيح أنّها ليست سيّئة مثل أبيك، لكنّها... باردة جدّاً. لم تسمح لأيّ شخص باختراق أسوارها. ولم يستطع أبي فعل أيّ شيء كما ينبغي معها، مع أنّه حاول جاهداً. وهذا ما يجعلني أتساءل عن جدوى المحاولة. ما دام هو قد بقي عاجزاً، فإنّ فرصي معدومة. ذلك أنّه أكثر لطفاً وصبراً منّي

بكثير". ضغطت مرّة أخيرة على يدي، ثمّ استندت إلى مرفقيها متنهّدة. "عائلة ستوري متضرّرة بشكل خطير".

أدهشتني هذه الحقيقة البسيطة أكثر ممّا ينبغي. فمع أنّني عرفت دائماً أنّ عائلة أبي ليست طبيعيّة تماماً، غير أنّني لطالما وجدتُ شيئاً... رومانسياً على ما أعتقد في خللهم الوظيفي المميّز. لكنّ الحقيقة أنّ والدي وإخوته جميعهم بائسون: هو مزّق عائلتنا انطلاقاً من حاجة عميقة للشعور بالتميّز من دون العمل على تحقيق أيّ شيء؛ العمّة أليسون دفعت العمّ توشي بعيداً عنها وأبقت ميلي على مسافة ذراع؛ علاقة العمّ آندرز سيّئة بابنه الوحيد لدرجة أن يدفع جي تي المال لمحتال لتحدّي أبيه؛ أمّا العمّ آرتشر فيغيب عن الأسرة لسنوات متتالية بسبب الإدمان. للحظة، تمنّيت لو أنّ أبي ما زال معي على الهاتف. لقلت له، عليك أن تواجه الذنب الذي ارتكبته وجعل ميلدريد تنقلب ضدّك، قبل أن تخسر إلى الأبد الشخص الذي كان من الممكن أن تكونه.

غير أنّ ذلك لن يجدي نفعاً. فإن كان لدى أبي اعتقاد واحد راسخ، فهو أنّه يعتبر نفسه عبقرياً أسيء فهمه.

رفعت عينيّ للتخلّص من آخر آثار الدموع، واستطعتُ رؤية محيطنا أخيراً. سألت ميلي: "هل نحن في... مقبرة؟".

"أوه، أجل، فقد وجدتُ هذا المكان أكثر خصوصية". ثمّ ابتسمَت قليلاً وهي تضيف: "انظري أين انتهى بنا المطاف، لقد اجتمع شمل العائلة".

تبعتُ نظراتها إلى الحروف المحفورة على قبر بجانبنا:

أبراهام ستوري

الزوج، والأب،

وفاعل الخير المحبوب

"العائلة أوّلاً، دائماً"

قالت ميلي: "يا لها من مقولة مثيرة للسخرية"، وخرجت منّي ضحكة قصيرة.

قلت: "أتعلمين؟ كان والدي محقّاً بشأن أمر واحد، واحد فقط". أضفت ذلك بينما رفعت ميلي حاجبها متشكّكة. شعرتُ أنّني أخفّ وزناً بعد أن أخرجتُ دموعي المكبوتة وأنّ ذهني أكثر حدّة، كما لو أنّني تخلّصت من الغمامات التي كانت تجبرني على إغفال معظم ما يحيط بي. "لا ينبغي أن نكتفي بالجلوس والتساؤل عمّا يحدث، بل علينا أن نفعل شيئاً".

سألتني ميلي وهي تنتقل فوراً إلى مزاج حلّ المشكلات: "مثل ماذا؟ التحدّث إلى تشاز؟ ربّما يمكنه مساعتنا للاتّصال بإدوارد فرانكلين".

"هذه فكرة، ولكنّني كنت أفكّر في شيء آخر". وقفتُ ونفضتُ سروالي متابعة: "دعينا نمنح هيزل تلك المقابلة التي تسعى خلفها، ونطرح بعض الأسئلة التي تهمّنا".

أليسون، 18 عاماً

يونيو 1996

توقّفت أليسون أمام باب مكتب والدتها لدى سماعها أصواتاً مألوفة. قال د. باكستر وهو يغلق حقيبته الطبّية: "الراحة والرياضة يا ميلدريد، كلاهما سيفيدانك كثيراً". لا يقوم د. باكستر عادة بالمعاينة في المنازل، فما بالك بإعطاء مواعيد عند الساعة التاسعة ليلاً، ولكنّه كان يستثني من ذلك آل ستوري دائماً، ولا سيّما في الأشهر الستّة التي انقضت منذ وفاة الوالد المفاجئة نتيجة نوبة قلبية. فقد أصبحت الوالدة فجأة شديدة القلق إزاء ضربات قلبها.

قالت وهي تضغط بإحدى يديها على صدرها: "يبدو لي غير منتظم".

لكنّ أليسون كانت تعرف ما المشكلة في قلب والدتها: إنّه محطّم.

تناهى إليها صوت آخر: "هذا ما أقوله لها باستمرار". كانت صوت تيريزا رايان، مساعدة الوالدة ووالدة مات. "فلنحضر مدرّب يوغا إلى هنا، يا ميلدريد. إنّه تمرين مهدّئ وممتاز، ويمكننا كلتانا الاستفادة منه".

بدت تيريزا متوتّرة أكثر من المعتاد. فقد انتقلت إلى كاتمينت هاوس قبل بضعة أشهر بناءً على إصرار الوالدة - "مؤقّتاً، فقط حتّى أتمكّن من الوقوف على قدميّ"، كما

وعدَت ميلدريد - وكانت أليسون متأكّدة من أنّ تيريزا وجدت هذا القرب متعباً. ولم يكن خوف ميلدريد المستمرّ وعجزها عن اتّخاذ حتّى أبسط القرارات أمراً مفاجئاً في هذه الفترة من الحزن، ولكنّه كان مقلقاً لكلّ من اعتاد على رؤية أعمال ستوري تسير كآلة دقيقة. عرفت أليسون أنّ آدم يواجه ضغوطاً هو الآخر، ذلك أنّ والدته تواصل التلميح إلى أنّها ترغب في عودته إلى المنزل أكثر في الفصل الدراسي التالي، والقيام بدور ناشط في إدارة بعض ممتلكاتهم.

اشتكى أمس بينما كان الإخوة الأربعة ممدّدين على مناشف كبيرة على الشاطئ أمام كاتمينت هاوس: "الهدف من ذهابي إلى الكلّية هو الابتعاد، ولا أريد العودة إلى هنا في عطلة كلّ أسبوع كما لو كنت قروياً".

"هذا الشابّ ليس دقيقاً في تعريفه القرويّين". قال آندرز ذلك بصوت مكتوم من تحت قبّعة على طراز قبّعات إنديانا جونز وضعها على وجهه. بقيّة ملابسه أيضاً جعلته أشبه بمنقّب عن الآثار، بذاك السروال الكتّاني والقميص طويل الكمّين. على عكس إخوته، كان آندرز يحترق في الشمس، بغضّ النظر عن مقدار الكريم الواقي الذي يستخدمه. لكن في ذلك اليوم، بدت ملابسه مناسبة للطقس المنعش، لا سيّما وأنّ الحرارة بالكاد تجاوزت العشرين درجة مئوية. أمّا أليسون، فارتدت كنزة قطنية، وظلّت تتمنّى لو أنّ سروالها لم يكن قصيراً.

قال آدم بكآبة: "أتعلم، يمكنك أن تتفضّل وتعرض العودة من حين إلى آخر. إذا تشاركنا المهامّ، فلن يكون الأمر بهذا السوء".

"كلّا شكراً". تثاءب آندرز مضيفاً: "الوالدة تستردّ أخيراً ثمن كلّ رقائق البطاطس

التي عشتَ عليها كلّ هذه السنوات. المسألة بينكما".

تذمّر آدم: "هذه الاستعارة غير منطقية حتّى".

نقرت أليسون بخفّة على إطار الباب المؤدّي إلى مكتب والدتها قبل أن تطلّ برأسها قائلة: "مرحباً"، فاستدارت ثلاثة رؤوس نحوها. "تسرّني رؤيتك د. باكستر".

"وأنا أيضاً يا أليسون".

"نحن ذاهبون، يا أمّي"، أضافت أليسون أمام نظرة والدتها المتسائلة: "عند روب فالنتاين، أتذكرين؟". كان آرتشر قد نجح في إقناع إخوته، وحتّى آندرز، بالذهاب إلى حفلة صديقه الليلة.

سألت الوالدة: "أنتم الأربعة؟".

أجابت أليسون، محاولة عدم إظهار نفاد الصبر في نبرة صوتها: "نعم، لقد سبق وأخبرتك". لقد ذكرَت الأمر مرّتين في الواقع، ولكن مؤخّراً، كانت الوالدة تتجاهل أيّ شيء لا ترغب في سماعه.

ظهرت الخيبة على وجهها وقالت: "لقد نسيت ذلك. ظننت أنّنا نستطيع تمضية الليلة في لعبة عائلية، وكنت أتطلّع إلى ذلك طوال اليوم".

"في الواقع...". تمنّت أليسون لو كان آدم هنا. فقد كان أفضل بكثير في التعامل مع مزاج الوالدة المتقلّب: "لقد مضت فترة منذ أن اجتمع آرتشر بروب، وقد وعدناه..."

ألحّت تيريزا قائلة: "أوه، ميلدريد، دعيهم يذهبون. إنّها ليلة السبت، وهم عندك طوال الصيف". لم تفارق النظرة المتشكّكة عينَي الوالدة، ولكنّها تنهّدت باستسلام بينما

ابتسمت تيريزا لأليسون بدفء. "أعتقد أنّ مات سيكون هناك هو الآخر. أخبريه أنّني أفتقد إليه، وأنّني آمل أن يأكل شيئاً غير نودلز رامين عندما يكون في المنزل بمفرده".

تخطّى قلب أليسون نبضةً. لم يكن موعد القهوة الذي ذكره مات الأسبوع الماضي خلال الإعداد للحفلة قد تمّ، لكنّها كانت تأمل رؤيته عند روب. قالت: "سأفعل"، ثمّ تراجعت عائدة إلى الردهة قبل أن تتمكّن الوالدة من الاحتجاج.

اشتكى آندرز بينما كان الأشقّاء الأربعة يعبرون الشارع من موقف السيّارات في شاطئ نيكل إلى منزل روب فالنتاين: "هذا الصيف رهيب". ثمّ أغلق سترة هارفارد القطنية وصولاً إلى عنقه، وأضاف: "لقد كان الجوّ بارداً جدّاً منذ وصولنا إلى هنا".

قال آدم بتلك النبرة التي يستخدمها كلّما أراد مشاركة معلومات يعتقد أنّ الناس يجب أن يعرفوها أساساً: "إنّه أبرد صيف منذ عشر سنوات، وهو يُلحق الخراب بأنماط المدّ الساحلي".

تمتم آندرز: "هذا مذهل"، ثمّ صمت فجأة عندما مرّوا بدرّاجة نارية خضراء مميّزة. "أوه، تبّاً، مات رايان الحقير هنا".

قال آرتشر بدبلوماسية: "أعتقد أنّ الجميع هنا". ولم يستطع مقاومة وكز آندرز بمرفقه مضيفاً: "نحن نعيش على جزيرة لا يتجاوز طولها اثني عشر ميلاً، أتذكر؟ والحياة الليلية هنا محدودة نوعاً ما".

بقيت أليسون صامتة. كانت تأمل أن يكون غضب آندرز تجاه مات قد برد بعد الفصل الدراسي الذي أمضاه بعيداً، لكن من الواضح أنّ ذلك لم يحدث.

قال آدم وهو يصعد الدرجات الأمامية هرولة: "انسَ أمر هذا الشابّ"، ثمّ فتح الباب مبتسماً وقال: "إنّه نكرة".

كان روب فالنتاين قد تخرّج من ثانوية جزيرة النورس العام الماضي، وانتقل للتوّ إلى منزل جديد، واحد من تلك الأكواخ المؤجّرة التي لا يقترب منها السيّاح لأنّ المالك لا يكلّف نفسه عناء الاستثمار في الصيانة. كان العشب الأمامي طويلاً ومصفرّاً، والطلاء يتقشّر، وإحدى النوافذ الأمامية مغطّاة بورق مقوّى لا ينفع لحجب الهواء البارد. أمّا داخل الكوخ، فكان معتماً ويضجّ بالموسيقى، وما بدا وكأنّه نصف هيئة الطلّاب الحالية والسابقة لثانوية جزيرة النورس. لم تستطع أليسون منع نفسها من مقارنة هذا المشهد الصاخب بالحفلات الأكثر رصانة التي حضرتها في المدرسة الداخلية قبل تخرّجها الشهر الماضي. كانت الطالبات يعشن في الحرم الجامعي في إعدادية مارتينديل، وكذلك كثير من الأساتذة، الأمر الذي أثّر إيجابياً على الحياة الاجتماعية للجميع.

مرّت شقراء جميلة ترتدي تاجَ برغر كينغ وتحمل وعاء من الثلج في طريق الإخوة ستوري وهم يدخلون. قالت وهي تكز صدر آدم بزجاجتها: "إنّه عيد ميلادي، هل أنت هديّتي؟".

ابتسم آدم، ولفّ ذراعه حول خصر الفتاة قائلاً: "هذا ممكن".

"آرتشرررررر!" لوّح شابّ بقوّة من زاوية جلس فيها الشبّان على وسائد حول طاولة منخفضة، وبالكاد عرفَت أليسون أنّه فالنتاين. "تعال للعب".

قال آندرز بينما كان آرتشر يُسرع نحو صديقه: "إنّهنّ يتساقطن كالذباب، تعالي". قال ذلك لأليسون، التي راحت تشاهد بذهول آدم والفتاة يتبادلان العناق أمام الحائط.

ثلاثون ثانية بعد الوصول، هذا رقم قياسي جديد يسجّله آدم. "فلنتناول شراباً".

لم تكن أليسون ترغب في تمضية الوقت مع آندرز، ولكنّها لم تتعرّف على أيّ شخص آخر هنا، لذلك تبعته إلى مطبخ الكوخ المتهالك. صاح من خلف كتفه: "شراب؟"، وتناول كوبين من مجموعة أكواب على المنضدة من دون أن ينتظر جواباً. كان الصفّ الواقف أمام البرميل يتجاوز عشرة أشخاص، لكنّ آندرز شقّ طريقه إلى الأمام كما لو أنّه لم يلاحظهم، واستولى على الصنبور من بين يدي الشابّ المذهول الذي كان يملأ كوبه.

سأل بصوت ساخر: "بعض الأشياء لا تتغيّر أبداً، أليس كذلك؟".

التفتت أليسون لترى أمامها كايلا دوغاس، حبيبة آندرز السابقة، والنقطة الثالثة في مثلّث الحبّ الشهير مات-آندرز-كايلا. تدلّى شعر كايلا المتموّج بطوله الذي يصل إلى خصرها، والذي لم يسبق لها أن قصّته مطلقاً طوال حياتها. بدت جذّابة من دون أيّ جهد في قميصها الأسود وسروال الجينز، بلا مساحيق تجميل، باستثناء أحمر شفاه على فمها الصغير. كانت أليسون قد فكّرت مطوّلاً بشأن ما سترتديه قبل أن تستقرّ على الكنزة القطنية والسروال القصير الذي اعتبره مات "عمليّاً للغاية". وشعرت فجأة أنّها لا تتعدّى من العمر عشر سنوات.

كان لكيلا هذا التأثير على الناس. لم تكن غير ودّية، بالضبط، لكنّها انعزالية بطريقة تجدها أليسون محبِطة. ولو كانت الحياة عبارة عن فيلم سينمائي، لكانت صديقة آندرز متلهّفة للتأثير على عائلته الثرية، لكنّ كايلا تتصرّف دائماً كما لو كانت هي من ينبغي أن يفوز بها الرجال. نتيجة لذلك، لم يشعر أيّ من آل ستوري بالحماسة تجاهها باستثناء والد أليسون، الذي اعتبرها نسمة من الهواء المنعش. قالت الوالدة ذات مرّة بجفاف: "أنا أعتقد

حقّاً أنّ والدك معجَب". الأمر الذي أكّد لأليسون أنّها تفرح بانفصال آندرز وكايلا المتكرّر أكثر من أيّ شخص آخر.

كان هذا الانفصال الأخير، بعد علاقتها بمات، الأطول على الإطلاق. فقد استأنف آندرز فصله الدراسي الثاني في هارفارد وأقسَم أنّه لن يتحدّث إلى كايلا مجدّداً، ولم تسمعه أليسون يذكر اسمها منذ ذلك الحين. إلى أن-

"كايلا". أعطى آندرز كأس أليسون لصديقته السابقة، كما لو أنّه كان قد جلبه لها من الأساس. "ما هذه اللامفاجأة السارّة!".

قبلت كايلا الكأس بابتسامة ماكرة. "آندرز، اعتقدت أنّك تتحدّث إلى شخص آخر".

ابتعدت أليسون قبل أن يتمكّن آندرز من الردّ. لم تفهم يوماً ديناميكيّتهما: كيف يمكن لأخيها المتغطرس أن يستجدي عاطفة كايلا إلى أن تمنحه إيّاها، ثمّ يتجاهلها فجأة. انتظرَت أليسون دورها عند البرميل، وشعرت أنّها غير مرئية بينما كان آندرز وكايلا يزدادان اقتراباً من بعضهما البعض، ليصبحا مركز اهتمام الغرفة على الرغم من تظاهر الجميع بعدم رؤيتهما.

تمتم صوت في أذنها: "الكارثة على وشك الوقوع".

التفتت أليسون لترى مات رايان يحمل كوبين مليئين بالشراب. أعطاها واحداً، فدفعَته على صدره بقلق أقرب إلى المزاح. "اهرب قبل أن يراك آندرز!" همست بذلك بإلحاح، لكنّ مات اكتفى بالضحك.

قال: "آندرز لا يرى سوى كايلا"، لكنّ أليسون قادته خارج المطبخ على أيّ حال.

أضاف بمجرّد أن أصبحا بعيدَين عن الأنظار في زاوية بجانب الدرج: "كنت آمل رؤيتك هنا".

نظرت أليسون إلى مات، متأمّلة خدّيه المتورّدتين، وشعره الأشعث، وابتسامته المائلة. بدا أنّه وصل إلى الحفلة منذ مدّة. قالت ساخرة: "شكراً على اتّصالك لاحتساء القهوة".

أووه، لم يكن هذا ما قصدَت أن تبدأ به الحديث. أرادت أن تتظاهر بالبرود، كما لو أنّها نسيت أمر دعوة مات بعدما افترقا. فتورّد خدّاها، لكنّ مات اكتفى بالابتسام. "هيّا، أنت تعلمين أنّني لا أستطيع الاتّصال بمنزلكم. فالجميع عداك سيغلقون الخطّ في وجهي". صدرت عنه ضحكة صغيرة حزينة قبل أن يضيف: "حسناً، وربّما أمّي".

"إنّها ترسل لك سلامها وتمنّياتها أنّك تأكل جيّداً". نقلت له أليسون الرسالة بإخلاص، ثمّ تمنّت لو تنشقّ الأرض وتبتلعها. فما من شيء أكثر جاذبية من نقل رسالة من والدة الرجل.

غير أنّ مات اكتفى بالضحك. "أنا لا أفعل، ولكن لا تخبريها بذلك، وإلاّ فستصاب بالذعر وستطلب من أختها المجيء للبقاء معي. وآخر ما أحتاج إليه هو خالتي بولا كرفيقة في السكن. إذاً، هل ترغبين في لعب الورق؟".

شربت أليسون نصف كأسها كتكتيك مماطلة. لم تكن ترغب في ذلك تحديداً، بل أرادت التحدّث إلى مات بمفردهما، لكنّها لم تكن واثقة من كيفية تحقيق ذلك في حفلة مليئة بأشخاص يعرفهم ولا تعرفهم.

هذا ما لم تستخدم إحدى حيل آدم. لوّحت أليسون بيدها أمام وجهها وعبست

قائلة: "الجوّ شديد الحرارة هنا. كنت أفكّر في المشي، هل تريد المجيء؟".

"بالتأكيد"، قال مات ذلك وهو يبتلع بسهولة الطعم الذي قاده، كما يحبّ آدم أن يقول متفاخراً، إلى كلّ شاطئ من شواطئ جزيرة النورس. لكن ليس هذا ما أفعله، قالت أليسون في نفسها ذلك، وهي تفرغ ما بقي من كأسها ثمّ تشقّ طريقها هي ومات عبر غرفة الجلوس المزدحمة. لم تكن تشعر بالارتياح في الحفلات. ومع أنّ أشقّاءها تركوها بمجرّد وصولهم، إلّا أنّها لم ترغب في أن يراها أيّ منهم مع مات رايان الحقير.

هذا بالإضافة إلى مشكلة كايلا. إذا شعرَت تلك الفتاة بالملل من آندرز، فقد تحوّل اهتمامها إلى مات مجدّداً، ولا يمكن لأليسون منافستها.

نسيَت كم أنّ الجو بارد، وسرعان ما بدأت ترتجف بمجرّد أن أُغلق باب الكوخ خلفها. قالت أليسون عندما هبّت الرياح وانتشرت قشعريرة عبر ساقيها العاريتين: "لم تكن فكرة حكيمة".

قال مات: "بلى، نحن نحتاج فقط إلى بعض التعزيزات". ثمّ فكّ سترته الجلدية وأخرج زجاجة شراب صغيرة من جيبه الداخلي. قال مبتسماً: "الدفء السائل"، وفتح الغطاء ثمّ أعطى أليسون الزجاجة. تردّدَت، فرفع حاجبه متسائلاً: "إلّا إن كنتِ قد غيّرتِ رأيك ولم تعودي راغبة في رفقتي؟".

شعرت أليسون أنّه يعرف بالضبط ما كان يدور في ذهنها عندما دعته إلى الخارج، وكان ردّ فعلها الأوّلي العودة إلى الكوخ. إلى أن تناولت رشفة صغيرة من الشراب، الذي كان دافئاً وحارّاً بحيث أخذت رشفة أخرى أكبر بكثير، وفجأة، أصبح آخر ما تريد القيام به هو اللعب بأمان. قالت في نفسها، ما كانت كايلا لتفعل ذلك، ثمّ عاتبت نفسها لتفكيرها في

صديقة مات السابقة في هذه اللحظة بالذات. لقد شغلت تلك الفتاة مساحة كبيرة من أفكار أسرتها.

قال أليسون: "بالطبع لا".

"حسناً". اتّسعت ابتسامة مات وهو يلفّ ذراعه حول كتفيها. "كنت أتمنّى أن تقولي ذلك".

الفصل التاسع

جونا

مهما حدّقتُ إلى هاتفي، فإنّ الأرقام في حسابي المصرفي لا تتغيّر البتّة.

10.71$، على الرغم من أنّ هذا الرقم سيرتفع أخيراً عندما أودع راتبي الأوّل الذي سأتقاضاه من منتجع النورس. لم يستغرب أحد في مكتب المحاسبة، في بداية هذا الصيف، عندما طلبت منهم استخدام اسم نورث. قلت لهم: "حسابي الجاري مقيّد بشهرة والدتي قبل الزواج"، وكان كلّ همّهم أن أعيد الأوراق في الوقت المناسب.

الرقم الذي ذبحني حقّاً كان حساب التوفير: 0.00 دولار. قبل خمسة أشهر، كان الرقم كافياً لتغطية عامين من الدراسة في الكلّية التي كنت أخطّط للدراسة فيها، بينما أعمل بدوام جزئي حتّى أتمكّن من الانتقال إلى الجامعة لإنهاء سنواتي الأربع. بذلك سأصبح أوّل خرّيج جامعي في عائلتنا، وسأفعل ذلك بأدنى حدّ من القروض لأنّني احتفظت بكلّ شيك استلمتُه في ذكرى ميلادي، وبكلّ سنت جمعته في قاعة البليياردو التي يملكها والدايّ، وكلّ المبالغ التي حصلتُ عليها من عملي في الدروس الخصوصيّة على مرّ السنين. وكنت لا أزال آمل الحصول على منح دراسية، ولكنّني لست بحاجة إليها. وأيّ شيء أحصل عليه سيكون كالزينة على وجه الكعكة.

ثمّ سلّمتُ والدي الحساب بالكامل، من أجل فرصة استثمارية "لا تفوَّت" كانت ستضاعف كلّ ما نملكه، وليس مرّتين لا بل ربّما ثلاث مرّات. وها نحن الآن: رصيدي صفر، وحساب التوفير الخاصّ بي لم يكن المجازفة الأكبر لعائلة نورث مع آندرز ستوري.

خسر أحد العملاء الساخطين كلّ مدّخراته التقاعدية، وأموال ابنه المخصّصة لدراسته الجامعية، وهو يواجه الآن خطر خسارة شركته العائلية الصغيرة.

يا لها من مفارقة برأيي أنّ أكبر ضحايا عملية احتيال آندرز ستوري ينتحل الآن شخصيّة ابنه. لكنّه أيضاً عمل مقصود. فقد كانت لديّ مخطّطات كبيرة لهذا الصيف، ومن المحتمل أنّني خسرتها بالكامل عندما تناولت طبقاً من لينغويني القريدس.

"يا صديقي". أعادني صوت إفرام إلى غرفتنا في منتجع النورس. لم يكن ثمّة مكيّف في الغرفة، ولذلك كانت مروحة إفرام العملاقة تصدر صوتاً صاخباً على مكتبه، وترسل هبّة من الهواء كلّما دارت. هواء دافئ، ولكنّ أفضل من لا شيء. "أنت حقّاً لا تسمع الباب؟".

نظرتُ إليه بدهشة وسمعتُ قرع الباب أخيراً. "ولماذا لا تجيب؟".

"يا صديقي"، كرّر إفرام مشيراً إلى المسافة بيني وبين الباب. كنت على مكتبي، بينما كان مستلقياً على سريره والكمبيوتر المحمول على ركبتيه، مع سمّاعتين كبيرتين حول عنقه. "أنت أقرب".

كانت المسؤولية المترتّبة على قرب المسافة إحدى القواعد غير المعلنة للشباب الذين يعيشون معاً، ولذلك نهضت من دون مزيد من التذمّر. عندما فتحت الباب، وجدتُ ميلي واقفة هناك مع أوبري، وقبضة يدها شبه مرفوعة. قالت وهي تدخل الغرفة: "لمَ العجلة؟".

قال إفرام، وتعبير مربك يعبر وجهه: "أهلاً يا رفاق، ما الأمر؟". لم يسبق أن زارتني قريبتاي هنا في الغرفة منذ وصولنا قبل أسبوع ونصف.

قالت ميلي وهي تدير مجموعة من المفاتيح في أحد أصابعها: "سنستعير جونا". أجبرت نفسي على إبقاء نظري على وجهها بدلاً من سروالها القصير للغاية، لأنّه ليس من المفترض أن ألاحظ هذا النوع من الأمور. "لقد سمح لنا كارسون باستخدام جيب المنتجع بعد الظهيرة. سنذهب للقاء هيزل".

قالت ذلك كما لو أنّه من المفترض أن أعرف الاسم، لكنّ ذهني كان فارغاً. "من؟".

"هيزل باكستر كليمنت، الفتاة التي التقينا بها في البلدة والتي تقوم بمشروع جامعي عن عائلة ستوري. أتذكر؟ الفتاة التي التقيناها بها مع جدّها؟". عندئذٍ، انقبضت معدتي، لأنّني تذكّرت بالفعل. بالكاد استطعت الوقوف للنظر إلى تلك الفتاة بينما كانت تتحدّث إلينا. فقد خشيتُ أن تكشف هويّتي حتّى قبل وصولي إلى المنتجع.

قلت بنبرة عادية: "صحيح، ولماذا سنلتقي بها؟".

قالت ميلي بإشراق: "من أجل المقابلة، فقد قرّرنا أنا وأوبري القيام بذلك، وعلينا جميعاً الذهاب. إنّها مسألة عائلية".

كانت لا تزال تدير المفاتيح بإصبعها، واستطعت قراءة التحدّي صاخباً وواضحاً في عينيها. بالكاد رأيت ميلي منذ أن كشفَت أمري، لكنّني كنت في حالة توتّر طوال الوقت، بانتظار أن تخبرني أنّها ستعيدني إلى بيتي. والآن، يبدو أنّها قرّرت عدم القيام بذلك، ما دمتُ ألعب بحسب قوانينها.

وهذا ما سأفعله، لكنّ الوضع ليس عظيماً، لا سيّما وأنّ تلك الفتاة هيزل درست فعليّاً عائلة ستوري. كان جي تي قد أعطاني بعض المعلومات عن الأسرة قبل أن أغادر، ولكن بما أنّه لم يكلّف نفسه عناء إخباري أنّه يعاني من تحسّس على القريدس، فأنا لا أعوّل على مدى كفاية المعلومات التي حصلتُ عليها. "ظننتُ أنّك لا تريدين التحدّث إليها". كان إفرام لا يزال مستلقياً على سريره وسمّاعاته حول عنقه، ولا يتظاهر حتّى إنّه يصغي إلينا.

قالت ميلي: "لقد غيّرنا رأينا، هل أنت آتٍ أم لا يا جونا؟".

الطريقة التي احتدّ بها صوتها حسمَت المسألة. تمتمتُ وأنا أتناول مفاتيحي عن الطاولة: "حسناً، ولكن ليس لديّ الكثير لقوله".

نظرَت إلى الأعلى مجيبة: "هذا حالك دائماً. إلى اللقاء يا إفرام".

ردّ عليها وهو يضع السمّاعتين على أذنيه: "إلى اللقاء، أيّها الأقرباء".

تبعتُ ميلي وأوبري إلى الردهة، ولكن انتظرتُ إلى أن أُغلق الباب خلفنا لأسألها: "هل يعني هذا أنّك لن تفضحي أمري؟".

نظرت إليّ ميلي بعينين واسعتين. "أفضح ماذا؟ نحن لا نعرف شيئاً عن أيّ شيء. وإذا كان ثمّة أمر غريب يحدث هنا، فإنّنا سنفاجأ مثل بقيّة الناس بمجرّد خروجه إلى النور". تحوّلت شفتاها إلى خطّ رقيق مضيفة: "وهذا ما سيحدث".

استدارت وتوجّهت نحو السلّم، بينما ربّتت أوبري على كتفي قائلة بلطف: "أنت لست بارعاً في دور قريبنا، لكن استمرّ في المحاولة".

تبعَت ميلي، ومشيتُ في أعقابها وقد تملّكني إحساس متعاظم بالارتياح. كرّرتُ سؤالي قائلاً، من باب التأكّد: "ولكن ألن تقولا شيئاً أيّتها الفتاتان؟ لا لكارسون، ولا لأهلكما، ولا لجي تي، ولا... لأيّ شخص؟".

انتظرت ميلي حتّى وصلتُ إلى أسفل السلّم قبل أن تجيب: "سرّك معنا بأمان، يا جونا نورث".

قادت ميلي سيّارة الجيب التي استعارتها من المنتجع بينما رحت أتصفّح آخر الرسائل النصّية التي وصلتني من جي تي. لم أخبره أنّ ميلي كشفت أمرنا، على أمل الحصول على فرصة، كتلك التي نلتها للتوّ، لكنّني أبقيته على اطّلاع على دعوات ميلدريد. لم يكن مسروراً على الإطلاق لفكرة تواجدي مع جدّته. ويمكنني القول من رسائله التي تتزايد فيها نبرة الانزعاج أنّه لم يعتقد أنّ الأمور ستصل إلى هذا الحدّ.

عليك الادّعاء أنّك مريض والاعتذار عن الإفطار

وبالنسبة إلى الحفلة

اختصر الكلام حتّى يصيبها الملل

هذا كلّه مجرّد لعبة بالنسبة إليها على أيّ حال

شعرت بموجة من الرضا الممزوج بالمرارة وأنا أضع هاتفي بعيداً من دون أن أجيبه. فالمسألة أنّه إن كان تصرّف ميلدريد ليس مجرّد لعبة - أي إن كانت مهتمّة حقّاً بالسماح لأحفادها بأن يكونوا جزءاً من حياتها - فإنّ جي تي على بعد خطوة من الثراء الفاحش. أنا أعرف في المدرسة عدداً قليلاً من الأشخاص مثل ميلي، الذين يملكون قدراً من

المال يغطّي تكاليف منزل كبير، وسيّارات جميلة، وأقساط جامعية، غير أنّ ميلدريد ستوري تمثّل المستوى التالي. فثروتها تفوق الخيال. وإذا حصل جي تي ولو على جزء صغير منها، فإنّ أسرته بأكملها ستغتني لمدى الحياة.

بيد أنّني وعدت نفسي، عندما وافقت على القيام بهذا الدور، أنّني لن أسمح بحدوث ذلك.

لم أخبر ميلي الحقيقة كاملة عندما واجهتني برخصة القيادة. ولو فعلت ذلك، لأجبرتني على حزم حقيبتي على الفور. في الحقيقة، أنا لم أوافق على خطّة جي تي لمجرّد المكافأة المالية التي سيدفعها لي، أو للإجازة المجّانية. وافقت لأنّ المرء لا يحصل كلّ يوم على فرصة حرمان الناس من أن يصبحوا من أصحاب الملايين، لا سيّما عندما يكون هؤلاء الأشخاص فرع أسرة ستوري في بروفيدنس. في الواقع، أنا لا أحقد على جي تي شخصياً. فصحيح أنّه نذل، ولكنّه غير ضارٍّ غالباً. إلّا أنّه عرض هذه الوظيفة بكلّ السفالة التي وهبته إيّاها الحياة: كجائزة ترضية لما فقدته عائلتي بسبب والده. لا أحقاد بيننا يا جونا، أليس كذلك؟ فالأمور السيّئة تحدث أحياناً.

لا تحدث الأمور السيّئة إلّا عندما نتسبّب بها. ويمكنني أن أتغاضى عن جي تي، أمّا والده...

أنا أكره ذلك الرجل.

وهذا أمر على جي تي أن يعرفه. وحقيقة أنّه طلب منّي أن أحلّ محلّه على الرغم من ذلك، تُثبت أنّ ذكاءه أكاديمي وليس حياتياً. لقد رأى وظيفة صيفية مريحة لشابّ يحتاج إلى المال، ورأيت فرصة لحرمان آندرز ستوري من فرصة استعادة ثروة عائلته إلى

الأبد.

وكنت لأفعل ذلك مجّاناً.

بمجرّد أن تصافحنا أنا وجي تي لختم اتّفاقنا، بدأت أحلم بما سأفعله إذا ما وقفتُ أمام ميلدريد ستوري؛ كيف سأكون نذلاً ومهيناً بكلّ معنى الكلمة، بحيث تُغلق على الفور أيّ باب كانت تفكّر في فتحه أمام أولادها، وكيف سيعرف آندرز ستوري أنّ ما حدث كان بسببي، ويتمنّى لو أنّه لم يعبث معنا قطّ.

عندما قابلت ميلدريد في ذلك اليوم الأوّل في مكتب كارسون فاين، فوجئت جدّاً لأتمكّن من قول شيء قبل ذهابها. ثمّ انكشف أمري، وظننت أنّ المسألة انتهت بالنسبة إليّ. والآن يبدو أنّني حصلت على فرصة أخرى، باستثناء...

تلاشى بعض من ارتياحي وأنا أشاهد الرياح التي تهبّ من النافذة وتشعّث خصلاً من شعر ميلي المربوط في ذيل حصان. لم أحسب أنّني سأقلق بشأنها هي وأوبري هذا الصيف، لأنّني لم أعتقد أنّني سأهتم لأمرهما. لكنّ أوبري واحدة من ألطف الأشخاص الذين قابلتهم على الإطلاق، وميلي... حسناً. لقد سبّبت لي إزعاجاً مستمرّاً منذ أن قابلتها على متن العبّارة، لكن لا يمكنني لومها على ذلك، ولم يمنعني ذلك من الإعجاب بها كثيراً.

لا أريد أيضاً أن أفسد الأمور على أيّ منهما. لكن ماذا لو أنّ الضرر الذي سألحقه بجي تي وآندرز دمّر فرصهما مع ميلدريد هما أيضاً؟ ماذا لو كرهَتاني بسبب ذلك؟

"يا إلهي". بدت ميلي مذهولة لدرجة أنّني ظننت للحظة أنّها قرأت أفكاري. لكنّها ما لبثت أن أبطأت من سرعة الجيب قائلة: "أعتقد أنّنا وصلنا إلى كاتمينت هاوس".

نظرتُ أمامنا بينما كانت ميلي توقف الجيب، مانحة إيّانا رؤية واضحة للطريق الساحلي المنحني الذي نسير عليه و- تبّاً. كان ثمّة منزل ضخم مبنيّ على حافة سفح شديد الانحدار يرتفع مباشرة من المحيط، وتتنافر خطوطه البيضاء النقيّة بشدّة مع الصخور السوداء الوعرة. كان الجزء الذي ننظر إليه عبارة عملياً عن نوافذ من الأرض إلى السقف تتألّق تحت شمس الصيف. يحيط بالسطح ممشى معدني متلألئ، ويمتدّ درابزين معدني أمام قسم مسطّح من جانب واحد من المنزل. وبحسب تخميني، ثمّة بركة كبيرة هناك، ولا شكّ أنّ الإطلالة لا تُصدَّق.

أنا لست مهندساً معمارياً، ولكن يمكنني مع ذلك أن أقدّر مدى جمال المكان، ناهيك عن ضخامته. إذ يبدو القصر تقريباً بحجم منتجع النورس، وهذا كثير على شخص واحد. ضاق صدري، وشعرت مجدّداً أنّه ما من شيء أريده على وجه الأرض أكثر من منع آندرز ستوري من العودة إلى هنا. أتمنّى أن يموت قبل أن تطأ قدمه القصر المطلّ على البحر الذي نشأ فيه، حتّى لو اضطررت لقتله بنفسي.

همست ميلي قائلة: "هذا لا يصدّق"، وسرعان ما تبخّرت أفكاري الإجرامية بمعظمها.

قالت أوبري بحسرة: "أتساءل كيف يبدو من الداخل". كلّما قضيت مزيداً من الوقت بالقرب من أوبري، ازدادت قناعتي أنّها لا تهتمّ كثيراً للمال. كلّ ما تريده هو أن يكترث لأمرها أحد في هذه العائلة المفكّكة.

قالت ميلي وهي تضغط بقدمها على دوّاسة السرعة: "أعتقد أنّنا سنكتشف يوم الأحد". كان كلامها عادياً، لكنّ صوتها بدا متوتّراً بينما كان كاتمينت هاوس يختفي عن

الأنظار. كان الأصعب قراءة مشاعر ميلي تجاه عائلة ستوري. فعندما أخبرتنا أنا وأوبري على متن العبّارة أنّ والدتها رشتها بقلادة من الألماس، كانت أوّل فكرة تبادرت إلى ذهني أنّها سطحية، تحبّ الأشياء البرّاقة، تماماً مثل آندرز ستوري. وكان بإمكانها بسهولة أن تنضمّ إلى جمهور الطوهي الثريّ، فمن الواضح أن ابن السناتور الشابّ ريد تشيلتون معجب بها بشدّة، لكنّها لم تفعل.

قادت ميلي السيّارة لبضع دقائق أخرى بصمت، إلى أن انعطفت في طريق طويل ومتعرّج لدرجة أنّنا لم نستطع رؤية منزل باكستر الكبير إلّا عندما أصبحنا في منتصف الطريق نحوه. قالت أوبري ونحن نقترب: "أوه، إنّه جميل. لقد رأيت على الإنترنت أنّ هذا المنزل كان ينتمي لقبطان يصطاد الحيتان. إنّه معلَم تاريخي".

سألتها ممازحاً: "رأيتِ على الإنترنت؟ هل قمت ببعض الأبحاث؟".

هزّت كتفيها مجيبة: "يبدو أنّ هيزل تعرف الكثير عنّا، هذا من حقّنا".

خفّفت ميلي من سرعة الجيب عندما اقتربت من سيّارة رينج روفر سوداء ثمّ ركنته. قلت ونحن نترجّل من السيّارة: "إذاً، ستتولّيان أنتما كلّ الكلام، أليس كذلك؟".

أجابت ميلي: "أوه، لا أعرف، هذا يعتمد على نوع الأسئلة التي ستطرحها هيزل، أليس كذلك؟ والخال آندرز يعتبر فرعاً رائعاً من شجرة عائلة ستوري".

كم تستمتع بانزعاجي!

ضغطت أوبري على الجرس، فتناهي إلينا سمعنا صوت مكتوم: "أنا قادمة!" تلاه وقع أقدام قبل أن يُفتح الباب، لنجد أمامنا هيزل. قالت: "مرحباً!" ثمّ تنحّت جانباً لتسمح

لنا بالدخول. جال نظرها على كلّ منّا بدوره، وسرعان ما خفضتُ نظري. "أنتم دقيقون بمواعيدكم يا رفاق. فكّرت أنّه يمكننا إجراء المقابلة في غرفة المعيشة، إذا كان الأمر يناسبكم. وقد سبقَنا جدّي إلى هناك".

قالت أوبري: "بالتأكيد". تبعنا هيزل عبر ممرّ مليء بما بدا صوراً عائلية تعود إلى أجيال.

سألتها ميلي: "هل تعيشين مع جدّك فقط؟".

"كلّا، أمّي تعيش هنا أيضاً. لقد عادت إلى المنزل بعد طلاقها من أبي منذ عامين". مررنا بصالة رسمية، وسررت لأنّنا لم نتحدّث هناك لأنّ جميع المقاعد بدت وكأنّها تنتمي إلى متحف، ولن يكون الحديث هناك مريحاً. "لكنّها تسافر كثيراً في الصيف، بينما أكون في المنزل أمضي بعض الوقت مع جدّي". خفضت صوتها مضيفة: "لدينا ممرضة تقطن في المنزل، ولكنّ حالة الخرف التي يعاني منها تزداد سوءاً من دون وجود أحد من أفراد العائلة".

سألتها أوبري بصوت هامس: "لكنّك قلتِ إنّه أفضل حالاً اليوم".

"تماماً"، أجابت هيزل بذلك ونحن ندخل غرفة مغمورة بضوء الشمس. كانت أقلّ رسمية من بقية المنزل، مع أرائك موزّعة أمام الجدران المطلية بألوان زاهية. جلس جدّها في أحد أركان الغرفة على أكبر الأرائك، وأمامه صينية خشبية عليها إبريق شاي وفنجان. ما إن نظر إلينا، حتّى شعرت بمدى اختلافه عن الرجل الذي قابلناه في وسط المدينة. لم تكن نظرته حادّة تماماً، ولكنّها أكثر تركيزاً. قالت هيزل وهي تمرّ من أمامه وتصبّ مزيداً من الشاي في الفنجان: "جدّي، أولاد آل ستوري هنا. دعني أعرّفك إلى أوبري، وجونا،

وميلي".

قالت ميلي بمرح: "من الجميل رؤيتك مجدّداً، دكتور باكستر". كرّرت أوبري التحيّة نفسها، بينما أقحمتُ يديّ في جيبيّ ونظرت إلى الأرض. بدأت عملية التخفّي.

قال د. باكستر بصوت خافت: "ربّاه، ظننت أنّني أسأت فهمك، يا هيزل. لكنّهم هنا حقّاً". نظرتُ إليه ولاحظتُ لمحة قلق طفيفة على وجهه، قبل أن يجبر نفسه على رسم ابتسامة متصلّبة على شفتيه متابعاً: "كم هذا جميل. اعذروني لعدم قدرتي على النهوض لتحيّتكم كما ينبغي، لكنّني لم أعد متوازناً كما في الماضي".

سألتنا هيزل: "هل ترغبون بشرب شيء؟". هززت رأسي نافياً بينما تمتمت ميلي وأوبري: "كلّا شكراً"، فأشارت هيزل إلى الغرفة وهي تجلس بجوار جدّها. "تفضّلوا بالجلوس أينما يحلو لكم".

جلستُ بعيداً عن د. باكستر قدر الإمكان، لكنّ أوبري فعلت العكس. فقد جلست على حافة الأريكة الموجودة على زاوية قائمة مع أريكة د. باكستر، بحيث لم يعد يفصل بينهما سوى الطاولة. قالت بابتسامة ودّية: "أنا ابنة آدم. لطالما أخبرنا كيف ساعدته على استعادة لياقته بعد أن أصيبت ركبته في الثانوية".

رطّب د. باكستر شفتيه مجيباً: "أوه حسناً، لقد كان آدم شابّاً قوي العزيمة. نعم، بالتأكيد كان كذلك".

يبدو أنّ أوبري أرادت سماع المزيد، لكنّ هيزل تناولت دفتراً عن الأريكة بجانبها وبدأت تتحدّث. قالت، وهي تتصفّح الدفتر وتتناول قلماً من طرفه: "إذاً، ينتابني الفضول حقّاً. كيف شعرتم وأنتم تكبرون وتدركون أنّه كان باستطاعتكم عيش حياة مختلفة تماماً

لو لم يُحرم أهاليكم من الميراث؟".

رفّت ميلي عينيها على طريقة ميلي ستوري-تاكاهاشي، وقالت: "أوه، لقد دخلتِ صلب الموضوع مباشرة، أليس كذلك؟".

ابتسمت هيزل معتذرة، لكنّها أبقت قلمها في وضعية الاستعداد. "من المثير للاهتمام حقّاً، من منظور علم الاجتماع، كيف يمكن أن تؤثّر الحياة النظرية الموازية على أهداف وتطلّعات جيل جديد".

غرقتُ أكثر في أريكتي، لكنّ ميلي استقامت في جلستها وقالت: "هل تعرفين ما هو الشيء المثير للاهتمام أيضاً؟ رأي الناس في جزيرة النورس بما حدث بين جدّتي وأهلنا. أودّ أن أعرف ما هي النظريات المحلّية".

صدرت عن هيزل ضحكة صغيرة وقالت: "أوه، ربّاه. هل تريدين أن تعرفي حقّاً؟ فبعض الأشياء التي يقولها الناس مثيرة للاهتمام". سمعتُ صوت قعقعة إلى يساري. كان د. باكستر، الذي تناول للتوّ رشفة صاخبة من الشاي، يعيد فنجانه إلى المنضدة ويكاد يخطئ الطبق.

أكّدت ميلي: "أودّ ذلك حقّاً".

راحت هيزل تعبث بقرطها قائلة: "حسناً، النظرية الأكثر شيوعاً أنّ جدّتك تعرّضت لانهيار عصبي بعد وفاة جدّك. أصبحت عملياً أشبه بناسكة لفترة من الوقت، ورفضت رؤية أيّ كانت باستثناء أولادها. وبعد ذلك، قرّرت عدم رؤيتهم هم أيضاً. لكنّ جدّي يعرف السيّدة ستوري منذ سنوات، ولم يعتقد يوماً أنّها كانت في وضع غير مستقرّ". ثمّ التفتت إلى د. باكستر وسألته: "أليس كذلك يا جدّي؟".

أجاب د. باكستر بتردّد: "حسناً، بلى". بدا أكثر انزعاجاً ممّا شعرت، وهو أمر... مثير للاهتمام. نسيتُ قراري بعدم لفت الانتباه، وملت إلى الأمام لإلقاء نظرة أفضل على وجهه. جعلته حركتي يلتفت نحوي، فتجعّد وجهه في عبوس عميق. قال فجأة: "أنت لا تشبة آندرز على الإطلاق".

تبّاً. ارتخيتُ في جلستي مجدّداً للابتعاد عن الضوء بينما قالت ميلي بسرعة: "أخبرينا بعض النظريّات الأخرى، يا هيزل، تلك المثيرة للاهتمام". وصنعت بإصبعها حركة تشبه الهلالين.

نظرت هيزل إليّ، ففركتُ وجهي بيدي كما لو كنت أفكّر، مع أنّ قصدي في الواقع كان الاختباء. قالت ببطء: "حسناً، غريب ما قاله جدّي عن جونا، هو لا يشبه آندرز بالفعل، أليس كذلك؟ كما أنّ آندرز لم يكن يشبه أحداً. يعتقد بعض الناس أنّ آندرز ليس في الواقع ابن ميلدريد، وأنّ أبراهام أنجب طفلاً من خارج الزواج وأجبر زوجته على تربيته كابنهما". حملقت أوبري بعينيها بينما كانت هيزل تضيف: "يقولون إنّ السيّدة ستوري حاولت أن تحرم آندرز من الميراث عندما توفّي زوجها، وأنّ أولادها الآخرين غادروا الجزيرة تضامناً معه".

قالت أوبري بسرعة كبيرة لدرجة أنّني ضحكت ساخراً: "من المستحيل أن يكون هذا قد حدث".

وافقتها ميلي: "بالطبع لا".

قالت هيزل: "وثمّة بعض القصص المخيفة. على سبيل المثال، ثمّة شائعة مقزّزة مفادها أنّ أليسون أقامت علاقة محرّمة، وحاول إخوتها التستّر عليها. لكنّ ميلدريد

اكتشفت ذلك، وثارت ثائرتها عليهم جميعاً. ويقال إنّ الطفل ما زال-"

قاطعتها ميلي بصرخة حادّة: "ماذا؟"بدت النظرة على وجهها قاتلة. "هل الناس يقولون ذلك حقّاً؟ كم هذا مقزّز!".

بدت هيزل وكأنّها تودّ أن تزحف تحت الأريكة. أعتقد أنّها نسيت بالفعل لبعض دقائق أنّها تتحدّث عن عائلة حقيقية. قالت وهي تغلق دفترها: "أعرف، أنا آسفة. في الواقع، لا أحد يصدّق ذلك، حقّاً. لكنّ الناس يحبّون النميمة والافتراء".

حدّقت ميلي بشرود إلى هيزل، وكأنّها على وشك أن تنفجر من شدّة الغضب، وانتابتني نوبة غير عقلانية في ضرب شخص ما. ليس هيزل بالطبع، ولا جدّها، ولكن شخص ما. حتّى أوبري، التي أدهشتني دائماً بكونها من أولئك الأشخاص الذين يفضّلون إطلاق الحشرات في الجوّ بدلاً من سحقها، بدت مستعدّة للقتال. فقد ضمّت قبضتيها قائلة: "أنا أفضّل التصديق أنّهم أقدموا جميعاً على قتل شخص ما من سماع قصّة كهذه".

سُمعت ضجّة في تلك اللحظة عندما ارتطمت ركبة د. باكستر بشدّة بالمنضدة الموضوعة أمامه. التفتت الفتيات الثلاث تجاهه في وقت واحد بينما كان يتلمّس المنضدة بحثاً عن فنجانه، ثمّ يحدّق إلى قعره بخيبة. سأل وهو يحرّك نظرته الشاردة من فوق كتف هيزل: "أين فنجان الشوكولاتة الساخنة؟ كاثرين، لقد حان موعد فنجان الشوكولاتة".

"كلّا يا جدّي، لا يُفترض بك تناول السكّر المكرّر. كما أنّ أمي ليست هنا". قالت هيزل ذلك متنهّدة. ثمّ وقفت وأبعدَت المنضدة لمسافة آمنة عن الأريكة مضيفة من خلف كتفها: "كاثرين أمّي. أعتقد أنّه من الأفضل أن أصطحبه ليستريح في الطابق العلوي، فهي

ليست إشارة جيّدة عندما يبدأ بالخلط بيننا".

ساعدَت جدّها على الوقوف، وأمسكت به جيّداً وهما يبدآن مسيرتهما البطيئة عبر الغرفة. كان لا يزال يتمتم بشيء عن الشوكولاتة الساخنة وهو يمرّ من أمام ميلي وأوبري، وكلاهما في حالة من الانزعاج الشديد. أنا متأكّد من أنّ أيّاً منهما لم تلاحظا أنّ عينَي د. باكستر كانتا صافيتين ويقظتين وهو ينظر إلى هيزل طوال حديثها، إلى أن صدم ركبته بالمنضدة عمداً.

الفصل العاشر

ميلي

سأعترف أنّني بالغتُ في كمّية الأمتعة التي أحضرتها معي هذا الصيف. لكن عندما ارتديت ملابسي لزيارة مكتب دونالد كامدن هذا الصباح، فرحتُ بفستاني الكحلي الضيّق وصندلي عالي الكعبين. فقد أردت أن أبدو أقرب ما يكون إلى بيئة الشركات في جزيرة النورس، بحيث أمتزج فيها. والآن بعدما جلست في قاعة الانتظار الفخمة، لم أعد واثقة من جدوى كلّ هذا العناء. فأنا لم أصادف شخصاً آخر باستثناء موظّفة الاستقبال، التي تقوم حالياً ببرد أظافرها.

أصغيت إلى الموظّفة وهي تجيب على مكالمة واردة - يبدو أنّ أحدهم يحاول بيعها آلة نسخ جديدة - بينما كنت أفرد المنشور الإعلاني التي أخذته من لوحة الإعلانات وأنا في طريقي إلى هنا.

الجمعة 9 يوليو

ارقصوا على أنغام

الفرقة الموسيقية الشهيرة من ثمانينيات القرن الماضي
في جزيرة النورس

الساعة 9:00 مساءً، في ديونز

كان رخيصاً للغاية، ولم آخذه إلّا بسبب الأحرف الصغيرة في الأسفل: بمشاركة روب فالنتاين، جون أوديل، تشارلي بترونيلي، وتشاز جونز.

صحيح أنّني لا أعرف شهرة تشاز، ولكن من المستبعد أن يكون في جزيرة النورس كثير من الأشخاص الذين يحملون اسم تشاز. لم يكن قد عاد إلى العمل بعد، ولذلك لم تتح لي الفرصة لأسأله عن معلومات الاتّصال بإدوارد فرانكلين. فأنا أودّ أن أعثر على إدوارد قبل الذهاب لتناول الإفطار مع ميلدريد يوم الأحد، ولذلك... يبدو أنّني ذاهبة إلى ليلة الثمانينيات في ديونز. ربّما يمكنني إقناع عدد من أفراد الطوهي للمجيء معي.

نادتني موظّفة الاستقبال قائلة: "آنسة ستوري-تاكاهاشي؟ السيّد كامدن بانتظارك". وقفَت وأشارت لي كي أتبعها عبر ممرّ ذي أرضيّة رخامية. مشيت خلفها، ومررت بصفّ من المكاتب الخالية، إلى أن رأيت أخيراً امرأة شابّة منحنية فوق هاتف، تكتب ملاحظات محمومة على ورقة أمامها. لا بدّ أنّه أسبوع إجازة في مكتب كامدن وشركاه.

توقّفت موظّفة الاستقبال أمام مكتب، جدرانه عبارة عن نوافذ تطلّ على منظر لميناء النورس. أشارت إليّ للدخول، فعبرتُ الباب. قال دونالد كامدن: "مرحباً ميلي". نهض من خلف مكتب أسود مصقول بطبقة شديدة اللمعان، بحيث أمكنني رؤية انعكاس صورتي وأنا أميل إلى الأمام لمصافحته. كان ديكور المكتب بالكامل بألوان الأسود والأبيض والفضّي، بما في ذلك الكرسي مستقبلي الطراز الذي جلس عليه دونالد بمجرّد أن جلست أمامه. "تسعدني رؤيتك مرّة أخرى".

"وأنا أيضاً".

قال دونالد للموظّفة: "شكراً لك يا ميراندا"، فغادرت بصمت، وأغلقت الباب من دون أيّ ضوضاء خلفها. شرد نظري إلى الصورة الكبيرة ذات الإطار الفضّي الموضوعة على زاوية مكتب دونالد، متوقّعة رؤية عدد من الأحفاد الشقر في الصورة. بدلاً من ذلك، كانت الصورة لدونالد، ود. باكستر، وتيريزا رايان، وجميعهم بالملابس الرسمية، يقفون على ما بدا لي السلّم الرخامي في منتجع النورس.

قلت في نفسي وأنا أنحني لإلقاء نظرة فاحصة، عائلة جدّتي البديلة. "يا لها من صورة جميلة. أهي من حفل الصيف؟".

قال دونالد وهو يمرّر أصابعه تحت ذقنه: "نعم، في العام الماضي". تسلّلت أشعّة الشمس من النافذة خلفه، فلمعت أزرار أكمامه الذهبية. "لقد سررت للغاية عندما سمعت أنّك تعيدين النظر في عرض العمل الذي قدّمته يا ميلي. ماذا يمكنني إخبارك بعد عن هذه الفرصة؟".

ليتني كنت أعرف. لم آتِ إلى هنا بخطّة مسبقة باستثناء التواجد في غرفة واحدة مع كلب الحراسة المفضّل لدى ميلدريد، لمعرفة ما إذا كان سيترك شيئاً مهمّاً يفلت منه، أو ما إذا كان بإمكاني انتزاع شيء منه. "كنت أشعر بالفضول حيال نوع العمل الذي تقوم به شركة صديقك للفيلم. فأنا مهتمّة بالقانون كمهنة، وظننت أنّه ربّما يمكنني المساعدة من هذه الناحية".

عبر وجهه تعبير متسامح. "أخشى أنّ عملهم القانوني متخصّص جدّاً، كما أنّه جافّ للغاية، ومن المستبعد أن تستمتع به شابّة مثلك".

أوه، يا له من نذل متعالٍ. أنا أعرف الكثير عن العمل القانوني المتخصّص من

والدي. لكنّ دونالد يبدو من النوع الذي قد يتخلّى عن حذره إذا ما شجّعتُه ليلعب دور الخبير، ولذلك سألته: "أهو من الأعمال التعاقدية؟".

انطلق دونالد في شرح طويل بالكاد أصغيتُ إليه، لأنّني لم أكن مهتمّة في الواقع. فحواري أمس مع هيزل سبّب لي صدمة شديدة. وبقيت في الليلة الماضية أتقلّب في سريري، وقد أذهلتني الشائعات المقزّزة التي تسري في جزيرة النورس عن والدتي، من دون رادع من قبل الناس الذين يعرفون ما حدث بالفعل.

بمن في ذلك هذا الرجل المستعدّ لدفع ثروة صغيرة بهدف التخلّص منّا.

قلت مبتسمة عندما توقّف دونالد أخيراً لالتقاط أنفاسه: "هذا ممتع حقّاً، يبدو أنّها فرصة رائعة. أنا محتارة فقط لأنّني، كما تعلم..." عضضت شفتي متابعة: "كنت متحمّسة لفكرة التعرّف إلى جدّتي. فأنا لم أفهم يوماً ما حدث بينها وبين أمّي. ولو تسنّى لي أن أفهم، فسيكون من الأسهل عليّ المغادرة".

هزّ دونالد رأسه قائلاً: "ميلي، هذا بالضبط نوع الحديث الذي لا يجب أن تجريه مع جدّتك، لأنّه سيزعجها وسيهدّد صحّتها الضعيفة".

"ولذلك أنا لا أسألها، بل أسألك أنت". ألقيتُ كلماتي بأكبر قدر من البراءة التي استطعت حشدها، ثمّ أضفت بقليل من الإطراء: "السيّدة رايان تثني عليك كثيراً".

في الواقع، لم تقل لي تيريزا رايان كلمة واحدة بخلاف التعليمات التي أرسلَتها بالبريد الإلكتروني حول وجبة الإفطار، ولكن ما من داعٍ ليعرف دونالد ذلك. قال: "هذا لطف منها"، ولكن كان جوابه مشوباً بتحفّظ لم أستطع فهمه تماماً.

"أنا لم أخبرها أنّني قادمة إلى هنا". قلت ذلك تحسّباً في حال كان هذا مصدر قلقه. "ولن أخبر جدّتي أيضاً. من غير الضروري على الإطلاق أن تعرف أنّنا تحدّثنا عن ذلك".

استقام دونالد في جلسته عابساً، وأدركت أنّني ذهبت بعيداً في تلك الجملة الأخيرة. "أنا لن أنتهك ثقة جدّتك، يا ميلي. فهذا ليس خطأ أخلاقياً فحسب، بل هو غير قانوني أيضاً. فأنا محاميها، في النهاية".

"حسناً، ولكن..." حافظت على ابتسامتي المزيّفة وسلكت مساراً آخر، مع أنّني عرفت أنّني أخسره. "لكن ألا يمكنك أن تحثّها لكي تتحدّث إلينا عمّا جرى في الماضي؟ تصفية الأجواء مثلاً؟ فمن المحتمل أن تصبح أكثر صحّة وسعادة إذا ما خرجت المسألة إلى العلن".

نظر إليّ دونالد بثبات وقال: "ميلي، هل تهمّك نصيحة من رجل عجوز؟".

حتماً لا. "بالطبع".

"اتركي الماضي حيث هو. يبدو لي أنّكم تأقلمتم جيّداً أنتم الثلاثة، وبصراحة لم يكن الحال كذلك مع أهاليكم عندما كانوا في سنّكم. وما من شيء يمكن كسبه من إعادة فتح الجروح القديمة، لا بل قد نخسر الكثير". منحني ما ظنّه على الأرجح ابتسامةَ جدٍّ حنون، وأضاف: "والآن، هل يمكنني إجراء مكالمة مع صديقي والتأكيد له أنّكم ستنضمّون إلى فريق العميل السرّي؟".

من الواضح أنّه لن يبوح لي بشيء مفيد، لكنّني حظيت بفرصة مشاهدة الخيبة على وجهه وأنا أقول: "كلّا".

كان الجوّ حارّاً ومزدحماً في ديونز، ويصعب إجراء محادثة لأنّ أغاني الفرقة تصدح بأعلى صوت. كان تشاز في زاوية مظلمة، جالساً على كرسيّ مرتفع في آخر المسرح. غير أنّني لم أرَ منه سوى ساقيه المسكوّتين بسروال الجينز وطرف غيتاره.

هتفت بريتاني في أذني للتغطية على صوت الموسيقى: "ميلي! لديّ سؤال". كنّا مزدحمين حول طاولة صغيرة مع إفرام وأوبري وشابّين آخرَين من برنامج الطوهي. خلفنا، كان جونا يلعب البلياردو مع رجل أكبر سنّاً لا أعرفه. ربّما كان شخصاً من هنا، لأنّ الحشد في ديونز يضمّ من أبناء المنطقة أكثر ممّا يضمّ من السيّاح. هرّب إفرام قارورة شراب إلى الداخل وراح يلغم كؤوس الكوكا كولا للجميع، باستثناء أوبري. فكنت في تلك الحالة من الاستمتاع والاسترخاء التي يبدو فيها الجميع تقريباً محبوباً أكثر من المعتاد، ولذلك ابتسمتُ بإشراق لبريتاني على الرغم من أنّنا لا نتحدّث كثيراً في العادة.

ربّتت على ذراعي، وأدركت أنّني مدينة لها بجواب. صرختُ متسائلة: "ماذا؟". ختمت الفرقة أغنيتها وهتف الحشد بصوت عالٍ، مطالبين بالمزيد.

"هل لدى قريبك صديقة؟ إنّه لطيف جدّاً". تبعتُ نظرة بريتاني إلى حيث وقف جونا يستعدّ لضربته، وقد غطّى شعره البنّي الداكن إحدى عينيه وتراقصت عضلات ذراعيه الهزيلتين. موضوعياً، نعم، كانت تلك وضعيّة جذّابة بالنسبة إليه. كما أنّ خطوط وجهه بدت مثالية: أنف مستقيم، شفتان ممتلئتان، وفكّ مربّع. بدا من الغريب، لا بل من الخطأ بعض الشيء، ملاحظة ذلك، تماماً كما حدث على متن العبّارة، عندما أدركت أنّ الشابّ الجذّاب على السلّم الذي لفت نظري كان ابن خالي.

ولكنّه لم يعد كذلك الآن.

نظر جونا إلى الأعلى والتقت نظراتنا، فغمزني ورسم ابتسامة ماكرة قبل أن يضرب بعصاه. توهّج خدّاي ونظرتُ إلى بريتاني، التي تنقّل نظرها بيننا بتعبير مشوّش. قلت: "عليك أن تتحدّثي معه. فقد غمزك للتوّ".

قالت: "لا أعتقد أنّه كان-"

حرّكتُ الثلج في شرابي قبل أن أقضي عليه. "أتعرفين، أنا لا أدري ما إذا كان لدى جونا صديقة أم لا. فنحن لسنا مقرّبَين حقّاً، ولكنّني سأحاول أن أعرف من أجلك".

تصاعدت أنغام "لا تتخلَّ عن اعتقادك" وأنا أنزل من على مقعدي، فجنّ جنون الحشد. أنهى جونا آخر رشفة من شرابه، وهو يحدّق إلى الكرة كما لو أنّها خانته، عندما وكزتُه بذراعي قائلة: "لا تقل لي إنّك أضعتَ فرصتك".

أتى الشابّ الذي كان جونا يلعب ضدّه إلى طاولتنا حاملاً العصا بيده. قال بصوت عالٍ بينما كان المغنّي الرئيس في فرقة تشاز يصرخ بالكلمات نفسها وراءنا: "اعذريني أيّتها القرويّة الصغيرة". فنظرتُ إلى الأعلى بسأم وتنحّيت جانباً.

غمزني جونا بشبه ابتسامة، وقال: "لم أنتبه".

هسستُ قائلة: "كفّ عن ذلك".

"عن ماذا؟".

"عن مغازلتي".

"أنا لا أغازلك". أسند جونا عصا البلياردو على الجدار، واتّكأ بجانبها وقد علت وجهه ابتسامة كسولة. من الواضح أنّ الكحول أثّر به بقدري، لأنّني لم أره مطلقاً بهذا

الاسترخاء. "أنت شديدة الثقة بنفسك، أليس كذلك؟".

"لقد غمزتني!".

"كانت غمزة أقارب. من النوع الذي يقول، مرحباً يا قريبتي، آمل أنّك تقضين وقتاً ممتعاً في مطاردة نادل جدّتنا. وليس من نوع، مرحباً ميلي، تبدين جميلة حقّاً هذه الليلة". ثمّ أمال رأسه باتجاهي مضيفاً: "علماً أنّك تبدين كذلك بالفعل".

تمتمتُ قائلة وأنا أقاوم ابتسامة: "كم أنت سخيف". تبّاً. أنا لم أهتمّ بأيّ شخص منذ ما يقرب العام، ولا يمكنني أن أبدأ بذلك الآن. يكفيني فوضى هذا الصيف ولست بحاجة إلى إضافة هذا التعقيد. "سأعود إلى الطاولة".

"لا تذهبي". أحاط جونا خصري بيديه لفترة وجيزة وهو يديرني لمواجهة طاولة البلياردو، بينما حاولت جاهدة تجنّب نظرات عدم التصديق التي طغت بلا شكّ على وجه بريتاني. ولا يمكنني لومها. "لقد خسر أساساً، وحان دوري مجدّداً. أنت محظوظة".

عليّ الانصراف، فما يجري أكثر من غريب بالنسبة إلى المراقب العادي. ولكن في حين أنّني أستطيع التعامل مع جونا الأحمق وجونا المحتال، إلّا أنّني غير مستعدّة إطلاقاً لهذه النسخة. وقفت في مكاني بينما كانت الفرقة تعزف وجونا يدور حول الطاولة كما لو كان يملكها. أدخل أربع تسديدات بالإضافة إلى الكرة الثامنة، وبهذه الطريقة، انتهت اللعبة. ضمّ خصم جونا يديه في حركة صلاة، وانحنى بطريقة مبالغ فيها، بدت أنّها تنمّ عن الاحترام بطريقة ما، ثمّ مدّ يده لضرب قبضته بقبضة جونا قبل أن يذوب مجدّداً في الحشد. ختمت الفرقة أغنيتها مع تصفيق صاخب، ولكن بدلاً من الانطلاق في أغنيتهم التالية، بدأوا يتشاورون على المسرح.

قلت لجونا وهو يضع عصاه على الرفّ: "عليك أن تشرح لي في يوم من الأيام أين اكتسبت مهاراتك الجنونية". عنيتُها كمجاملة، لكنّ الابتسامة الواثقة غابت عن وجهه كما لو أنّني مسحتتها بممحاة.

قبل أن أتمكّن من الاعتذار، ولا أعرف علامَ حتّى، انحنى المغنّي الرئيس في الفرقة إلى مكبّر الصوت. كان يتمتّع بمظهر قرويّ، تماماً مثل الرجل الذي هزمه جونا للتوّ: سمرة قوية، وبشرة متعبة، ومظهر أكبر من سنّه على الأرجح. قال: "مساء الخير جميعاً، وشكراً على مجيئكم. لقد أوشكت الحفلة على الانتهاء هذه الليلة، ولكن قبل الانصراف، سنغيّر الأمور قليلاً. فعازف الغيتار في فرقتنا، والذي يفضّل عادة البقاء في الظلّ، طلب أن يختتم الحفلة بأغنيته المفضّلة، لذلك أرجو منكم التصفيق لتشاز!".

قلت لجونا، وأنا أتوجّه إلى الطاولة التي ما زال يجلس عليها كلّ من أوبري وإفرام وبريتاني: "دعنا نستمع إليه. تبعني عن مسافة قريبة، لدرجة أنّني عندما استدرت فجأة، كدت أصطدم به. كان يجدر بي أن أتراجع على الأرجح، لكنّني لم أفعل. "أوه! ثمّة أمر آخر. كان من المفترض بي أن أعرف ما إذا كانت لديك صديقة أم لا". خرج صوتي هامساً أكثر ممّا نويت، ولذلك حاولت أن أتكلّم بنبرة عملية وأنا أضيف: "من أجل بريتاني".

حدّق إليّ جونا للحظة، ولمعت عيناه البنّيتان تحت الأضواء المنبعثة من المسرح. قال: "كلّا، ليست لديّ صديقة. ولكنّني لست مهتمّاً ببريتاني".

غزت الحرارة وجهي. فقلت وأنا أستدير قبل أن يلاحظ توهّج خدّاي: "حسناً، عُلِم". وصلنا إلى الطاولة في الوقت الذي وقف فيه تشاز في وسط المسرح، وغمز كما لو أنّه ليس واثقاً تماماً من كيفيّة وصوله إلى هناك. حتّى من تلك المسافة بدا مضطرباً، وأعتقد

أنّه لم يتخلَّ عن عادته في الشرب طوال اليوم، والتي تشكّل موضوع نميمة بين الجميع العاملين في منتجع النورس.

عدت للجلوس على مقعدي متجنّبة نظرة بريتاني. تمتم تشاز: "أُهدي هذه الأغنية لعائلتي"، وغصّ صوته أمام مكبّر الصوت، ثمّ بدأ بعزف نغمة مألوفة. تبعته الفرقة بعد ثوانٍ، فاستقامت أوبري في مقعدها.

قالت: "أهذه-"

قالت بريتاني: "فرقة ويزر، أفريقيا".

مال إفرام إلى الأمام قائلاً: "ليس في الأصل، بل توتو هو الذي غنّاها أوّلاً. فهذه الفرقة تغنّي أغاني الثمانينيات، أتذكرين؟" ثمّ عبس قليلاً وأضاف: "هذه الأغنية هي حقّاً... نتاج عصرها، ما رأيكم؟ فهم لم يزوروا أفريقيا قطّ على الأرجح، ولكنّهم قرّروا الغناء عنها على أيّ حال، وبطريقة مؤثّرة للغاية".

كان محقّاً، ولكن ليس هذا ما كنت أفكّر فيه وأنا أحاول لفت انتباه أوبري. هل كانت هذه الأغنية جزءاً من طفولتها بقدر ما كانت بالنسبة إليّ، أم أنّ الخال آدم لم يخبرهم بهذا التقليد الخاصّ من تقاليد آل ستوري؟ هل شاهدَت فيديو والدتي وأبيها وإخوتها وهم يغنّون هذه الأغنية بأعلى صوتهم وهم أولاد؟

كانت أوبري تحدّق باهتمام إلى المسرح، ولذلك حوّلت نظري منها إلى تشاز، الذي أمال رأسه وأغمض عينيه وهو ينشد مع الجوقة و-أووووه.

يا إلهي.

وقفتُ فجأة، وشققت طريقي بين الحشد إلى أن أصبحتُ أمام المسرح تقريباً. كنت أقرب إلى تشاز في The Sevens ممّا أنا عليه هنا، لكنّني استطعت رؤيته بوضوح تحت الأضواء الساطعة على المسرح.

لا أصدّق أنّ الأمر استغرق منّي كلّ هذا الوقت لمعرفته.

بمجرّد أن انتهت الأغنية وتبعها التصفيق الصاخب، أسقط تشاز غيتاره على المسرح ورفع إحدى يديه في الهواء، مشيراً إلى النادل وهو يغادر المسرح. استدرت وتوجّهت إلى البار أنا أيضاً، لكنّني علقت خلف مجموعة من الشباب في مثل سنّي. كان عليّ أن أبدأ بالتنفس من فمي عندما اجتاحتني روائح الكولونيا المتعدّدة.

قال ريد تشيلتون بابتسامة عريضة، بينما رفعت عنقي لأنظر خلفه: "مرحباً ميلي، كيف الحال؟". بدا تشاز مذعوراً بعض الشيء، ولكنّه مصمّم أيضاً، كما لو أنّه أدرك للتوّ أنّه بحاجة للهرب، ولكنّه ليس على استعداد للمغادرة من دون تناول شراب.

قلت وأنا أتقدّم بينه وبين شابّ آخر بقميص بولو أزرق: "بأفضل حال، ولكن لا يمكنني التحدّث الآن". ضحك الشابّ الثاني وأنا أمرّ.

"تبّاً ريد، إنّها لا تشعر بك على الإطلاق".

واصلتُ اختراق الحشد إلى أن أصبحت قريبة بما يكفي لأمسك بكمّ تشاز. شددتُ بقوّة فالتفت إليّ. كانت العينان اللتان نظرتا إليّ مألوفتين لدرجة أنّني انزعجت من نفسي مجدّداً لأنّني لم أكتشف ذلك سابقاً. علت الأحاديث من حولنا، ولكنّني خفضت صوتي، وأنا أقرّب شفتيّ من أذنه حتّى يتمكّن من سماعي.

قلت: "خال آرتشر!". حملق أخ أمّي الأصغر إليّ وأنا أضيف: "هل أنت من أحضرَنا إلى هنا؟".

الفصل الحادي عشر

أوبري

تمتم العمّ آرتشر، وهو يمرّر يده المرتعشة على فمه: "أنا لم أشرب بما فيه الكفاية لإجراء محادثة كهذه".

قال المغنّي الرئيس في الفرقة بصوت كئيب: "بل أنت كذلك". كنّا في منزله الآن - أو بالأحرى في الكوخ الواقع خلف منزله، والذي يعيش فيه العمّ آرتشر. لا يبدو الكوخ كبيراً من الخارج، ولكنّه من الداخل كبير ونظيف على نحو ملفت.

كان اسم المغنّي روب فالنتاين، كما أخبرنا في ديونز. يدير أعمال طلاء في الجزيرة، وكان صديقاً للعمّ آرتشر في الثانوية. لولاه، لهرب العمّ آرتشر على الأرجح من الباب الخلفي لديونز بمجرّد أن لفظت ميلي اسمه الحقيقي. قال روب وهو يصارع العمّ آرتشر ويدفعه نحو سيّارة هوندا إس يو في مركونة في موقف السيّارات:
"تعال". لحقنا بهما أنا وميلي، وجونا، وقد غلبت علينا الصدمة ولم نستطع فعل شيء سوى المشاهدة. "لا مزيد من الاختباء. أخبر الأولاد بما يجري".

تمتم العمّ آرتشر عندما استسلم أخيراً: "سأفعل في المنزل". وترك روب يدفعه إلى المقعد الأمامي لسيّارة الهوندا. ثمّ ما لبث أن أغمي عليه على الفور، أو تظاهر بذلك.

كانت الرحلة إلى منزل روب قصيرة، والوقت كافياً ليسأل بإرباك عن أهالينا قبل أن نصل إلى منزله. بعد ذلك، مررنا بمحاولات مطوّلة لإخراج العمّ آرتشر من السيّارة، وإدخاله إلى الكوخ، ومن ثمّ إجلاسه على أريكة صغيرة. كان قد اعتدل في جلسته الآن، ولكنّه مسترخٍ على الوسائد المزركشة بالمربّعات، بينما جلس روب على الطرف الآخر من الأريكة. أمّا أنا وميلي، وجونا، فاصطففنا على أريكة يابانية أمامهما ننتظر.

أخيراً، تنحنح العمّ آرتشر وقال: "في الواقع... هذا ليس بالضبط ما خطّطتُ له لكي أعرّفكم بنفسي أنتم الثلاثة". شردت نظرته باتّجاهنا من دون أن تستقرّ علينا تماماً. "لدى التفكير في الأمر الآن، ما كان ينبغي لي..." صمت وتململت ميلي بجانبي. كان صبرها ينفد للحصول على تفسير لما يجري. أنهى جملته قائلاً: "ما كان يجدر بي عزف تلك الأغنية".

استقامت ميلي في جلستها وعبست قائلة: "أهذا ما ستبدأ به؟ اختيارك للأغنية؟".

قال العمّ آرتشر، كما لو كانت ميلي تطلب تفسيراً ولا تعبّر عن إحباطها: "هذه الأغنية علامتي الشخصية، لا بل في الحقيقة علامة عائلتي، عندما كنّا نعيش هنا. أعتقد أنّ والدتك أخبرتك بذلك. والناس هنا..."

صمت مجدّداً، فأنهى روب الجملة عنه: "يتذكّرون. ما فعلته كثير بالنسبة إلى شخص متخفٍّ، يا تشاز".

تمتم العمّ آرتشر مجيباً: "لقد كُشف أمري أساساً. كُشف في الأسبوع الماضي".

قال روب: "أنت لا تعرف ذلك". كانت نبرته تنمّ عن نفاد الصبر، كما لو أنّه قدّم الحجّة نفسها أكثر من مرّة. "لم يقل شيئاً بعد، أليس كذلك؟".

تبادلنا أنا وميلي نظرات الحيرة قبل أن تسأل: "من الذي لم يقل شيئاً؟ عمّ تتحدّثان؟".

قال روب: "أخبرهم يا آرتشر، من البداية".

انخفض رأس العمّ آرتشر ردّاً على ذلك. انتظرنا جميعاً لكي يتحدّث مرّة أخرى، إلى أن تنهّد روب وألقى علينا نظرة اعتذار، قائلاً: "قد تكون هذه إحدى الليالي التي يتوجّب علينا فيها أن نتركه ينام".

تمتم العمّ آرتشر: "أنا متعب جدّاً".

ألقت عليهما ميلي نظرة تقييمية قبل أن تنهض متوجّهة إلى المطبخ. عندما عادت، كانت تحمل نصف كوب من الماء. وقفت أمام العمّ آرتشر، ثمّ رفعت الكوب، وألقت الماء على وجهه.

اهتزّ رأسه وجحظت عيناه من شدّة الصدمة ولكنّهما أصبحتا يقظتين. "تبّاً!" علقت قطرات الماء على لحيته وبلّلت قميصه بينما راح يمسح وجهه بكمّه.

قالت ميلي: "أنت مدين لنا بإجابات".

تحدّث روب بصوت لطيف ولكنّه حازم: "اسمعوني، أنا أفهم إحباطكم، لكنّ عمّكم ليس صعباً باختياره. أنتم تتعاملون مع شخص مريض، ومع الأسف، هكذا يبدو الإدمان أحياناً".

فتحت ميلي فمها، ثمّ أغلقته وسقطت مجدّداً على الأريكة، وقد احمرّ وجهها خجلاً. كانت المرّة الأولى التي أراها فيها نادمة، وعليّ الاعتراف أنّني سعيدة بذلك. فعادةً،

أحبّ أسلوبها المندفع، لكنّ رؤية العمّ آرتشر بهذه الحالة آلمتني. قالت ميلي في طريقنا إلى هنا إنّه كان يجب علينا أن ندرك هويّته الحقيقية، لكنّني لا أفهم كيف كان سيتسنّى لنا ذلك. فآخر ذكرياتي عن العمّ آرتشر هي لرجل وسيم وضاحك، جالس معي على الأرض لبناء مدينة من قطع الليغو عندما كنت طفلة صغيرة. وما من شيء مألوف في هذه النسخة إلّا إذا كنت أعلم ما أبحث عنه.

قالت ميلي بهدوء: "أنا آسفة".

قال العمّ آرتشر وهو يرمش بعينيه المبتلّتين: "لا بأس، أنا أستحقّ. وفي النهاية، من يدري؟ ربّما أفادني ذلك". ضحك وهو يرتعش ومسح آخر قطرات الماء عن لحيته. "أنا مدين لكم باعتذار أيضاً، لكم جميعاً. لقد سألتني في ديونز ما إذا كنت أنا من أحضركم إلى هنا. والحقيقة أنّني أنا من فعل، أجل".

ها هو الجواب إذاً على لغز امتدّ لأسبوعين. لكنّه لا يثير سوى مزيداً من الأسئلة، وللمرّة الأولى، بدت ميلي متردّدة في طرحها. كان جونا عديم الفائدة أساساً، لأنّه خائف جدّاً من الرتكاب الأخطاء، لذا أعتقد أنّ الأمر متروك لي. "لماذا؟ وكيف؟".

نظر العمّ آرتشر بشوق إلى كأس ميلي الموضوع جانباً، كما لو أنّه يتمنّى لو كان لا يزال ممتلئاً ويحتوي على شيء أقوى من الماء. "لقد بدأ الأمر مع إدوارد - هل تذكرون إدوارد فرانكلين؟" نظر إلينا بتساؤل، فأومأنا جميعاً برأسنا. استعادت ميلي طبيعتها بما فيه الكفاية لوكزي في خاصرتي بابتسامة راضية، لأنّها كانت تحاول تعقّب إدوارد فرانكلين طوال الأسبوع. "حسناً، لقد تعرّفنا إلى بعضنا أنا وإدوارد عبر صديق مشترك في بوسطن في الشتاء الماضي، وكانت نقطة البداية. عندما اكتشفت أين يعمل، بدا الأمر وكأنّه القدر. فقد

كنت أفكّر كثيراً بالأسرة والمنزل، وأردت العودة ببساطة، لكنّني كنت أعلم أنّني لا أستطيع التجوّل هنا بصفتي آرتشر ستوري. فطلبت من إدوارد أن يجد لي وظيفة نادل في المنتجع، وسألتُ روب ما إذا كان بإمكاني التظاهر أنّني أحد أصدقائه من خارج المدينة ريثما أصبح جاهزاً".

كرّرتُ متسائلة: "جاهزاً؟" فابتسم لي آرتشر ابتسامة ساخرة.

"كانت لديّ تلك الفكرة الخيالية السخيفة في البداية أنّني سأقابل أمّي في وقت ما، وسيذوب كلّ الغضب الذي كان يعتمل في صدرها. ظننت أنّها ستدرك أنّها تريد لمّ شمل أسرتها بقدر ما أريد، لكنّ ذلك لم يحدث. لم ألقِ حتّى نظرة خاطفة عليها طوال فترة إقامتي هنا. فهي تعزل تماماً. وحتّى عندما تأتي إلى المنتجع من أجل العمل، فإنّها لا تقابل سوى حفنة من الأشخاص".

اقتربت قليلاً من طرف مقعدي قائلة: "عمّ آرتشر، هل تعرف ما تعنيه الرسالة؟" تغضّن جبينه فأوضحتُ قائلة: "الرسالة التي قالت فيها هذا ما جنته أيديكم، والتي أرسلها دونالد كامدن. ماذا... ماذا فعلتم؟".

"ليست لديّ أدنى فكرة". وبسط يديه في إيماءة تنمّ عن العجز. "لم أستطع أن أفهم قطّ ما عنته. أنا مستعدّ لتقديم أيّ شيء مقابل ذلك".

إنّها الإجابة نفسها التي أعطاها أبي دائماً، والتي قبلتها في كلّ مرّة من دون سؤال. ولكن الآن، بعد أن عرفت كم يمكن أن يكون أبي مخادعاً، بدأتُ أفكّر في ردّه من منظور مختلف. فقد كان نظره ينحرف قليلاً، وفكّه يتوتّر، وأنفه يتقلّص. تشنّجات لا إرادية صغيرة جعلتني أتساءل عمّا كان يخفيه. لكن عندما أبحث في وجه العمّ آرتشر، لا أرى أيّاً

من ذلك، لا أرى في الواقع، سوى الحزن والارتباك.

سألته: "هل فكّرت يوماً في محاولة رؤية جدّتي؟".

"باستمرار، لكن كلّما طال مكوثي هنا، ازداد إدراكي أنّني كنت أخدع نفسي وأنا أتخيّل أنّه بإمكاني أن أصبح مجدّداً جزءاً من حياتها. لا أنا، ولا آدم، ولا آندرز، ولا أليسون. فأيّاً يكن ما حدث وغيّر مشاعر الوالدة بقي موجوداً على الرغم من مرور أكثر من عشرين عاماً. لقد انتهى فصلنا من إرث ستوري منذ زمن طويل. لكن في أحد الأيّام، رأيت مقالاً عنك أنت يا أوبري".

أملت رأسي بإرباك. "عنّي أنا؟".

"نعم، فقد كان فريق السباحة الذي تنتمين إليه مشاركاً في المباراة الوطنية التي غطّتها مجلّة يو إس آي توداي. قرأتُ المقال، وأدركتُ من جديد كم أنّ أسرتنا مفكّكة. كما أسفتُ كثيراً لأنّني لا أعرفك لدرجة أنّني لم أدرك أنّك أصبحت سبّاحة من النخبة".

أجبت بخجل: "أنا لست من النخبة، بل كانت مباراة جماعية".

أصرّ العمّ آرتشر: "إنّه إنجاز هائل!"، فرففت عينيّ لمقاومة دموع مفاجئة. لم يذهب أبي لحضور تلك المباراة. قال إنّه لم يكن على ما يرام، لكنّه لم يرغب على الأرجح في الالتقاء بصديقته وهو مع زوجته هناك. "لقد شعرت بالفخر بك، وأردت أن أهنّئك، لكنّني خشيت أن يبدو ذلك غريباً ومفاجئاً، لأنّنا بالكاد نعرف بعضنا. ثمّ فكّرت بالوالدة، وكيف أنّها لم تقابل يوماً أيّاً منكم. أخبرتُ إدوارد أنّها إذا فعلت، فربّما تدرك الخطأ الذي ارتكبَته عندما أبعدت أسرتها بكاملها. وعندئذ، سيطرت عليّ الفكرة ولم تفارقني".

أمسكت ميلي لسانها طوال الوقت الذي كنّا نتحدّث فيه أنا والعمّ آرتشر، لكنّها لم تعد قادرة على الصمت، فقالت: "فكرة إحضارنا إلى هنا تحت ذرائع كاذبة؟"

كان كلامها فظّاً، لكنّ نبرتها لم تكن كذلك. فابتسم العمّ آرتشر بحزن. "بدا الأمر حسن النيّة في رأسي، ولكن نعم. باختصار، أعتقد أنّ هذا ما فعلتُه. كان إدوارد يخطّط لمغادرة جزيرة النورس على أيّ حال، ولذلك أقنعته بدعوتكم باسم الوالدة". تنحنح مضيفاً: "لكن بما أنّ علاقتي ليست على أفضل ما يرام مع أهاليكم، فأنا لم أشركهم في المسألة. مع ذلك، فكّرت أنّهم سيغفرون لي هذه الخدعة إذا سارت الأمور كما تمنّيت".

بدأ رأسي يؤلمني من كلّ المعلومات الجديدة التي أحاول استيعابها. "هل أنت من أبلغ مجلّة النورس؟".

أقرّ العمّ آرتشر قائلاً: "أجل، فقد ظننت أنّ ذلك سيوفّر لكم بعض الوقت، لأنّ الوالدة تهتمّ بالمظاهر كثيراً. ومع أنّني لم أتوقّع أن تصادفوها في يومكم الأوّل هنا، لكنّني سعيد بذلك، لأنّني كنت على حقّ، صحيح؟ فهي تريد التعرّف إليكم. لقد دعتكم إلى كاتمينت هاوس، وإلى الحفل الصيفي، أليس كذلك؟".

"في الواقع، نعم، ولكن بعد أن تجاهلتنا لمدّة أسبوعين. الأمر الذي يبدو وكأنّها تحاول حفظ ماء الوجه أكثر ممّا تسعى إلى إصلاح العلاقات". عبست ميلي وهزّت رأسها مضيفة: "أعني، ما هي الخطّة طويلة المدى هنا؟ هل تعتقد أنّها لن تكتشف أبداً أنّك الشخص الذي أتى بنا إلى هنا؟".

بدا آرتشر مصدوماً من الفكرة: "آه كلّا، كنت أخطّط لإخبارها بكلّ شيء بعد الحفل الصيفي". فرك وجهه بيده وتابع قائلاً: "ربّما في رسالة، فمن غير المرجح أن توافق

على رؤيتي".

حدّقت إليه ميلي وكأنّ رأساً آخر نبت له للتوّ. "لكنّها ستغضب منك بسبب فعلتك هذه، ولن توافق على إعادة الإرث إليك".

عبس العمّ آرتشر متسائلاً: "إعادة إرثي؟".

قالت ميلي: "أعني أن تذكرك في الوصيّة كوريث مجدّداً. أليس هذا ما تريده؟ هذا ما يأمله أهالينا". أضافت ذلك وهي تنظر إليّ ومن ثمّ إلى جونا: "صحيح؟".

تنحنح جونا قائلاً: "هذا بالتأكيد ما يأمله والداي".

قلت: "وأنا أيضاً".

قال آرتشر: "في الواقع، سيبدو ذلك ساذجاً على ما أعتقد، ولكن كلّ ما أردته حقّاً أن تتعرّف إليكم وتتعرّفون إليها".

خيّم علينا الصمت لدقيقة ونحن نحاول استيعاب ذلك. ولم أصدّق تقريباً أنّ شخصاً من آل ستوري لا يهتمّ بالثروة المفقودة؟ فهذا يتعارض مع كلّ ما عرفته عن أسرة والدي. لكنّ المسألة أنّني لا أستطيع أن أتخيّل أيّ سيناريو تنتهي فيه هذه القصّة لصالح العمّ آرتشر. وحتّى لو أنّ الجدّة فرحت في نهاية المطاف بوجودنا هنا - الأمر الذي يبدو بعيد الاحتمال - فإنّ هذا لا يلغي الخدعة التي تعرّضت لها من قبل ابنها الأصغر. ونحن نعلم أساساً أنّها ليست من النوع المتسامح.

"على أيّ حال، أنا متأكّد من أنّني سأطرَد في المرّة التالية التي سأحضر فيها إلى العمل". تنهّد العمّ آرتشر ونظر إلى الأرض متابعاً: "ولهذا السبب كنت أتجنّب الأمر، إذا

جاز التعبير".

"لماذا؟". طرحتُ عليه السؤال ثمّ تذكّرت حديثه مع روب في وقت سابق. لقد كُشف أمري أساساً. "هل تعرّف عليك أحد؟".

تجهّم العمّ آرتشر مجيباً: "فريد باكستر، من بين كلّ الناس. لقد كان طبيب العائلة في صغري، وهو الآن يعاني من الخرف. صادفته في صيدلية ماغ في الأسبوع الماضي. كان بمفرده، وبدا تائهاً، فظننت أنّه ضاع من ممرّضته. عرضت مساعدته في العثور عليها، فأجاب: كلّا شكراً يا آرتشر، يمكنني قضاء بعض الوقت بمفردي". هزّ العمّ آرتشر رأسه متابعاً: "كان أمامي رجل ظننت أنّه عاجز عن إيجاد الباب، وكان الوحيد على سطح الجزيرة بأكملها الذي اخترق قناع تشاز جونز. سألني أين أقيم، و... من شدّة ذهولي، أخبرته بالفعل".

قلت مواسية: "حسناً، ربّما نسي الآن، فقد التقينا به، وهذا يحدث معه كثيراً".

سألنا آرتشر: "هل التقيتم بالدكتور باكستر؟" وفي الوقت نفسه، قال جونا: "وهل ينسى حقّاً؟".

حارت نظراتي بينهما، ولكنّ جونا لم يقل شيئاً آخر، فأجبت عمّي قائلة: "التقينا بالأحرى بحفيدته، لكنّه كان... هناك". لزمت الصمت، لأنّني لن أُقدم على مشاركته شائعات هيزل القبيحة.

بدا العمّ آرتشر مربكاً. "حسناً إذاً... سواء كان فريد باكستر يتذكّر رؤيتي أم لا، بمجرّد أن أخبر الوالدة الحقيقة، لن يعود لي مكان هنا". مال إلى الأمام، وأسند مرفقيه على ركبتيه، فبدا منهكاً فجأة. "ربّما كنتم تعتقدون أنّني فقدت عقلي، وقد يكون هذا صحيحاً. لكنّ نيّتي

كانت حسنة حقّاً".

رنّ هاتفي في تلك اللحظة، فأخرجته من جيبي تلقائياً من دون اهتمام كبير. غير أنّ عينَيّ اتّسعتا دهشة عندما رأيت الاسم على شاشتي. توماس: كيف الحال؟

كدت أضحك. كم من الوقت لديك يا توماس؟ ولماذا يحاول الاتّصال بي الآن، بعد أسبوعين من الصمت؟

لكنّني أعرف السبب، هذا لأنّني كففت عن التفكير فيه.

لدى توماس حاسّة سادسة بشأن أمور من هذا القبيل. لسنوات، كنت أمطره بالاهتمام بينما أحصل على فتات بالمقابل، والمرّة الوحيدة التي تغيّرت فيها تلك الآليّة هي عندما تراجعت، حتّى من دون وعي. هذا ما حدث في السنة الثانوية الثانية، عندما رفض اصطحابي إلى الحفلة الراقصة التي كانت ستقام في الربيع لأنّ "الرقص مملّ"، إلى أن اتّفقت على الذهاب مع شابّ جديد في علم الأحياء، ولم يسعني إلّا أن ألاحظ جمال عينيه البنّيتين الداكنتين. ومع أنّني لم أذكر اسم الشابّ قطّ، لكنّ توماس لاحظ أنّني لم أعد مهتمّة به كالعادة. وفجأة، أصبحنا ذاهبَين إلى الحفلة الراقصة كما لو أنّه كان يخطّط لها طوال الوقت.

هذا لأنّ توماس لا ينتبه حقّاً إلّا عندما يبدأ الاهتمام الذي يعتقد أنّه يستحقّه بالتلاشي. تماماً مثل...

يا إلهي. عندما فهمت ذلك، شعرت أنّني على وشك التقيّؤ. ليس فقط اشمئزازاً من نفسي لأنّني بقيت معه كلّ هذه المدة، ولكن لأنّه لم يخطر ببالي قطّ حتّى هذه اللحظة أنّني كنت أواعد نسخة شابّة عن والدي.

وكزتني ميلي مجدّداً وأعادتني إلى الحاضر. سألتني: "هل أنت موافقة على ذلك، يا أوبري؟".

نظرتُ حول الغرفة. كان الجميع ينظرون إليّ باستثناء العمّ آرتشر، الذي استرخى على وسائد الأريكة، كما لو أنّ الطاقة التي خدمته خلال الحديث قد تبدّدت أخيراً. سألتُ: "علامَ؟".

قالت ميلي: "سنذهب للنوم ونتحدّث مطوّلاً غداً".

"أنا-" أشار العمّ آرتشر بيد غير ثابتة ارتطمت بكومة من المغلّفات الموضوعة على الأرض بجانب الطاولة. "تبّاً، ما هذه؟" ثمّ انحنى إلى الأسفل لجمعها.

أظهر روب أولى بوادر نفاد الصبر هذه الليلة وهو يجيبه: "هذا بريدك. إنّه بالضبط في المكان نفسه الذي أضعه فيه كلّما أحضرتُه".

تمتم العمّ آرتشر: "آه، كلّه بريد بلا أهمّية. عزيزي المستأجر، كذا وكذا".

تصفّحتُ البريد بيدي ثمّ قلت: "لديك رسالة"، وحملت ظرفاً كُتب عليه آرتشر ستوري بخطّ واضح على الجهة الأمامية. لم يكن ثمّة طابع أو عنوان، كما لو أنّ شخصاً ما أدخله ببساطة في صندوق البريد.

"حقّاً؟" تناول العمّ آرتشر الرسالة مستغرباً وفتح المغلّف. "من يرسل إليّ رسالة بحقّ الجحيم؟ لا أحد يعرف أنّني هنا، باستثناء..." أخرج ورقة واحدة، وازداد عبوسه وهو يقرأها: "هذا- أنا لا أفهم".

"ما هذا؟" أخذتُ الورقة من يده من دون أن يقاومني وقلبتها. قرأت السطور

القصيرة بسرعة، ثمّ نظرتُ إلى عمّي. كانت حيرتنا واضحة وأنا أقول: "أعتقد أنّه يتذكّر في النهاية".

قالت ميلي: "من؟ ماذا يتذكّر؟".

رفعتُ حاجبيّ وأنا أنظر إلى العمّ آرتشر في سؤال صامت، فهزّ رأسه وقرأتُ الرسالة بصوت عالٍ.

آرتشر،

أنا لم أشعر بالراحة منذ أن رأيتك في ذلك اليوم.

ثمّة أمور كان يجب أن أخبرك بها منذ فترة طويلة، وأخشى أنّ وقتي ينفد.

هل توافق على مقابلتي؟

مع فائق الاحترام،

فريد باكستر

أليسون، 18 عاماً

يوليو 1996

"مرحباً، مات، أنا أليسون. سيتمّ عرض فيلم يوم الاستقلال في سينما النورس، وكنت أفكّر في الذهاب في عطلة نهاية الأسبوع القادمة. فأنا لا أكتفي من أفلام الغزوات الفضائية. أخبرني ما إذا كنت ترغب في المجيء معي؟ يمكنك الاتّصال بي على هذا الرقم، إذا أردت. حسناً، سأكلّمك لاحقاً. إلى اللقاء".

أغلقت أليسون الهاتف وبدأت على الفور تذرع غرفة نومها ذهاباً وإياباً والغضب يتآكلها. لا أكتفي من أفلام الغزوات الفضائية؟ ما خطبها؟ ولكن لم يكن لما قالته أو لم تقله أيّ أهمّية. فمات لم يردّ على رسالتيها السابقتين، ومن المحتمل ربّما أن يحذف هذه الرسالة من دون الاستماع إليها حتّى. لقد حان الوقت لمواجهة الحقيقة. فما اعتبرته ليلة رومانسية قد تغيّر حياتها، على الشاطئ في حفلة روب فالنتاين، كانت مجرّد ليلة واحدة.

مات رايان يتهرّب منها.

لم تره سوى مرّة واحدة خلال الأسابيع الثلاثة التي انقضت منذ حفلة روب، عندما كان يسلّم الأزهار في مكتب دونالد كامدن الواقع على الواجهة البحرية. تبعته أليسون إلى الداخل، وهي تتدرّب على احجلّة التي تنوي استخدامها عندما يراها: أوه، لقد مررت وحسب لإيصال غرض أرسلته أمّي. لكنّ كايلا دوغاس، التي كانت تعمل في ذلك الصيف

ضمن طاقم تنظيف المكتب، استحوذت على اهتمام مات أوّلاً. فقد نادته دافعة ممسحتها نحوه وهي تتراقص قليلاً على نحو جعل مات يضحك: "مرحباً، أيّها الغريب". حتّى في رداء أزرق عديم الشكل وقفّاز بلاستيكي، بدت كايلا رائعة الجمال. فاختبأت أليسون خلف أحد الأعمدة، لكنّها كانت غير مرئية أساساً. فأيّ منهما لم يرفع نظره عن الآخر، وانتهى الأمر بأليسون بالانسحاب إلى الخارج مجدّداً.

روت لنفسها جميع أنواع القصص لتبرّر صمت مات. إنّه يحاول أن يبدو غير مكترث. إنّه قلق بشأن ما ستقوله والدته. إنّه خائف من عائلتي. لكن مرّ وقت طويل ولم يعد أيّ من هذه الأعذار يجدي في تفسير غيابه.

هذا أمر مؤسف، ولكنّه لم يكن أكبر مشاكلها في الوقت الحالي.

شعرت أليسون فجأة أنّ غرفتها صغيرة جدّاً وتملّكها إحساس شديد بالوحدة. فخرجت إلى الردهة، وأصغت إلى إشارات حياة في كاتمينت هاوس. كان أشقّاؤها على الشاطئ، وهي دعوة رفضتها لأنّها أرادت أن تكون بمفردها أثناء اتّصالها بمات. هذا في حال تمكّن من الردّ، الأمر الذي بدا سخيفاً الآن.

لا بدّ أنّ الوالدة في مكان ما، ذلك أنّها بالكاد تغادر المنزل مؤخّراً.

نزلت أليسون إلى الطابق السفلي، ووجدت والدتها بالفعل جالسة على الطاولة المجاورة لطاولة النافذة في المطبخ، تتصفّح كتالوغات تصميم المنازل. فقد أعادت مؤخّراً تصميم الجدار خلف الفرن المزدوج ببلاط مرسوم يدوياً من إيطاليا، ثمّ رأت أنّه "مبهرج" جدّاً وقرّرت استبداله بشيء آخر. سألتها عندما دخلت: "أليسون، ما رأيك بهذه؟"، وأدارت الكتالوغ بمواجهة أليسون وهي تقترب من الطاولة.

حدّقت أليسون إلى صفحة من البلاط الأبيض الباهت، وقالت: "ستحطّمين قلب تيريزا، كما تعلمين". كانت تيريزا قد أوصت بالبلاط الإيطالي، ووافقتها أليسون على أنّه رائع، كما لو كان أعمالاً فنّية صغيرة أضفت اللون والحيوية على المطبخ. لكنّ الوالدة أرادت وسيلة تتلهّى بها ولا تتطلّب منها مغادرة المنزل، واختارت إعادة التصميم.

علّقت الأمّ وهي تستعيد الكتالوغ مجدّداً: "حسناً، تيريزا لا تعيش هنا، أليس كذلك؟".

ذكّرتها أليسون: "بل تفعل في الواقع". بعد ذلك، ولأنّها بحاجة ساحقة إلى اتّخاذ أيّ عذر لذكر اسمه، أضافت: "لا بدّ أنّ مات يشعر بالوحدة من دونها".

قالت الأمّ: "الأولاد في هذا العمر لا يفتقدون إلى أمّهاتهم أو يصغون إليهنّ. هذه حقيقة كونية أعرفها جيّداً". ثمّ قسا صوتها وهي تقلب صفحة في الكتالوغ: "آندرز يقابل تلك الفتاة مجدّداً، أليس كذلك؟".

"أيّ فتاة؟". طرحت أليسون السؤال مع أنّها كانت تعرف تماماً أنّ والدتها تعني كايلا. وكانت الأمّ على حقّ. فعلى الرغم من كلّ ما يدور بين كايلا ومات، عادت الفتاة إلى عاداتها القديمة مع آندرز.

شدّت الأمّ على شفتيها وهي تقلب الصفحات بسرعة أكبر. "لقد أصبح كبيراً على هذا الهراء. في هارفارد عديد من الفتيات الرائعات، من النوع الذي يمكنه بناء مستقبل حقيقي معهنّ. لقد خُطبنا أنا ووالدك عندما كنّا طلّاباً في السنة الثانية".

كانت أليسون على وشك أن تضحك لو لم تبدُ والدتها بتلك الجدّية. "آندرز في التاسعة عشرة، يا أمّي، وهو لا يفكّر في الزواج".

أجابت الأمّ ساخرة: "أمّا هي، فإنّها تفكر، أنا أضمن لك. ومن الأفضل أن يكون حذراً إن لم يكن يرغب في الوقوع في الفخّ".

أصبح الحديث غير مريح على عدّة مستويات. فقالت أليسون وهي تنهض: "سأذهب لأرى ما إذا كان الشباب قد عادوا".

قالت الأمّ من دون أن ترفع نظرها عن الكتالوغ: "أتوقّع وجودكم جميعاً في المنزل لتناول العشاء الليلة".

وعدتها أليسون قائلة: "سنكون هنا".

خرجت مسرعة من المطبخ، وعبرت الممرّ المؤدّي إلى الردهة، لكنّها كادت تصطدم بتيريزا، التي تستلم غرضاً عند الباب.

قالت أليسون، وهي تصطنع ابتسامة: "مرحباً"، وأملت بشدّة ألّا تكون تيريزا قد سمعت شيئاً من الحديث الذي دار في المطبخ.

لكنّ تيريزا ابتسمت من دون انتباه. "أهلاً أليسون، من هنا". أضافت ذلك مخاطبة عامل التوصيل، الذي كان يقود عربة تحتوي على صندوق كرتوني كبير مستطيل الشكل لوضعه في الردهة. ثمّ قالت لأليسون بصوت خافت: "إنّها منحوتة جديدة، قطعة برونزية أخرى".

"آه". لم تستطع أليسون قول المزيد. فوالدتها تمرّ مؤخّراً بفترة برونزية، وكلّ منحوتة أقبح من الأخرى. ولا شكّ أنّ تيريزا بذلت جهداً بطولياً حقّاً لتمالك أعصابها وهي تتحدّث عن ذلك. "هل رأيت الشباب؟".

قالت تيريزا مشيرة إلى الباب الذي لا يزال مفتوحاً: "إنّهم هناك بالسيّارة". كانت سيّارة آدم البي إم المكشوفة ذات اللون الأحمر الكرزي مرئيّة من خلال إطار الباب. "أعتقد أنّهم في طريقهم إلى وسط المدينة".

نظرت أليسون نحوهم قائلة: "حقّاً؟". كان وسط البلد وجهة مفيدة. فاندفعت من خلال الباب، وهي تلوّح لآدم بينما كان يتراجع بالسيّارة إلى الخلف.

سألها بنفاد صبر، وهو يضغط على الفرامل: "ماذا؟".

قالت أليسون، وهي تصعد للجلوس على المقعد الخلفي مع آرتشر: "أنا قادمة معكم، فعليّ شراء بعض الأشياء".

* * *

كان شارع هيرلي مزدحماً، بحيث اضطرّ آدم للإبطاء من سرعته بسبب حركة المرور السياحية. شاهدت أليسون شقيقها وهو يعدّل نظّارة راي-بان على وجهه في المرآة الخلفية، ويحرّك عضلة ذراعه التي كانت بارزة من نافذة السيارة. لم يكن آدم شغوفاً بشيء بقدر الظهور أمام الجمهور، وكان يعتبر جزيرة النورس بأكملها مسرحه الشخصي.

"لماذا لا يوجد موقف سيّارة؟" قال ذلك متذمّراً كما لو أنّنا لم نكن في ذروة موسم الإجازة. "أتمنّى ألّا يكون سويتفيرن الآن أشبه بحديقة حيوانات".

قال آرتشر وهو يلقي نظرة جانبية على أليسون: "أنا ذاهب إلى متجر الكتب المصوّرة أوّلاً". كانت هي وحدها تعرف السبب، فهو معجب بالشابّ اللطيف المسؤول عن السجلّ هذا الصيف. كان آرتشر قد أخبر أليسون في الميلاد عن وضعه، وقد تأثّرت لأنّه وثق بها بما فيه الكفاية لإخبارها بمعلومات لم يشاركها مع أيّ شخص آخر في عائلته. كان

ينوي إخبار والدتهم بعد ذلك، لكنّ الأب توفّي بعد فترة وجيزة، ولم يجد آرتشر توقيتاً مناسباً قطّ، على حدّ قوله.

سألها الآن: "هلّا حجزتِ لي مقعداً؟".

قالت: "أنا ذاهبة إلى ماغ أوّلاً".

تثاءب آندرز بصوت عالٍ في المقعد الأمامي. "سأرافقك معك، فأنا أحتاج إلى موس حلاقة".

قالت أليسون بسرعة: "سأحضر لك واحداً".

صدر من حنجرته صوت رافض قبل أن يجيب. "ستحضرين النوع الخاطئ".

"لن أفعل إذا أخبرتني أيّ نوع تريد بالضبط".

"من الأسهل شراؤه بنفسي. بالإضافة إلى ذلك، أنا لا أملك أيّ نقود لإعطائك إيّاها".

قالت أليسون، محاولة إبقاء صوتها عادياً: "سأدفع ثمنه". لم تكن تريد مطلقاً أن يرافقها آندرز إلى صيدلية ماغ، ولكن إذا عرف ذلك، فلن تتخلّص منه أبداً.

استدار آندرز في مقعده لينظر إليها. "إنّه موس حلاقة مصنوع بيد حرفيين يتجاوز ثمنه مائتي دولار، هل تريدين دفع ثمنه من أجلي؟".

تمتمت أليسون: "بالتأكيد، لا مشكلة". حمداً لله على وجود بطاقات الائتمان. تلا آندرز تفاصيل حول موس حلاقته باهظ الثمن، بينما أبقت أليسون نظرها على الشارع.

قالت: "فهمت".

"آه، ممتاز! انظروا ماذا وجدت". انسحبت سيّارة من موقف أمامهم مباشرة، فركن آدم سيّارة البي إم بمهارة مكانها". قال بمرح: "حسن الحظّ يرافقني". كانت مواقف السيّارات تُفتح دائماً لآدم، على نحو يسبّب الإزعاج، في الواقع.

قالت أليسون ببساطة: "تهانينا. أراكم في سويتفيرن". ما إن أطفأ آدم المحرّك، حتّى خرجت من السيّارة من دون انتظار إخوتها. كانوا قد ركنوا السيّارة على بعد مبنى سكني واحد من صيدلية ماغ، فاجتازت أليسون بسرعة الرصيف المزدحم إلى أن وصلت إلى المظلّة المميّزة المخطّطة باللونين البنّي والأبيض. فتحت الباب وصدرت رنّة خافتة عنه.

"مرحبا أليسون. ما الذي أتى بك اليوم؟" كان دينيس، ابن السيّد ماغ العشريني، جالساً وراء الصندوق، وهذا أمر طبيعي. فمن غير الممكن هناك أن تجد طالباً جامعي يعمل في وظيفة صيفية بحيث لن تراه مرّة أخرى.

قالت وهي تجبر نفسها على الابتسام: "مرحباً. حسناً، أوّلاً، أريد موس حلاقة من نوع Zephyr AS أحادي الحافّة لأخي. قال إنّه خلف المنضدة؟".

أجاب دينيس، وهو يخرج مجموعة من المفاتيح من حلقة حزامه: "بالفعل. إنّه خيار ممتاز". ثمّ فتح الخزانة الزجاجية خلفه وأخرج منها صندوقاً مخملياً أسود، كما لو كانت أليسون على وشك شراء قطعة مجوهرات. قال دينيس، وهو يفتح الصندوق ليظهر موس الحلاقة بداخله: "إنّه كتلة واحدة من الفولاذ المقاوم للصدأ ومصقول بلمسة نهائية غير لامعة". كان على على أليسون الاعتراف أنّه، كموس حلاقة، كان قطعة جميلة. ربّما يعلّقه آندرز على حائط غرفته، لأنّه بالكاد يحتاج إلى الحلاقة. "إنّه رفيع للغاية ومريح. هل تريدين مجموعة شفرات معه؟".

لم يحدّد آندرز مواصفات الشفرات، وبما أنّ ثمنها قد يبلغ مائتي دولار أخرى، فيمكنه شراؤها بنفسه. "كلّا، بل الموس فقط".

سألها دينيس، وهو يضع الصندوق في كيس ورقي باللونين الأبيض والبنّي: "هل ترغبين في شيء آخر؟".

"نعم، لكنّني سأحضره بنفسي وأعود". فتحت أليسون الجزء العلوي من حقيبتها، ثمّ قالت الكلمات التي ستضمن ألّا يحاول دينيس الاسترسال في الحديث عند عودتها. "أنا بحاجة إلى بعض الفوط الصحّية".

ودخلت أحد الأجنحة قبل أن يحمرّ وجه دينيس ويبدأ بالتلعثم. فهو لم يتقن بعد فنّ تمالك نفسه عندما يتعلّق الأمر بالمنتجات الصحّية النسائية.

كانت صيدلية ماغ فارغة على الأقلّ. تصاعدت موسيقى خفيفة عبر مكبّرات الصوت بينما كانت أليسون تشقّ طريقها إلى الجزء الخلفي من الصيدلية. فتناولت علبة تامباكس، ثمّ تقدّمت أكثر عبر الجناح للعثور على ما أتت أجله.

اختبار حمل مبكر

النتيجة في خمس دقائق!

دقيق في غضون أسبوعين من الحمل

تلت أليسون صلاة شكر صامتة لأنّ السيّد ماغ كان من الطراز القديم جدّاً بحيث لم يثبّت كاميرات مراقبة بعد، ثمّ تناولت اختبار الحمل من على الرفّ وأسقطته في حقيبتها. استدارت على عقبيها ثمّ تجمّدت في مكانها فجأة.

"حسناً، حسناً". كان آندرز واقفاً على بعد بضعة خطوات منها، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة لا تدع مجالاً للشكّ في أنّه رأى بالضبط ما كانت على وشك سرقته. "ماذا لدينا هنا؟".

الفصل الثاني عشر

جونا

أيقظني الرنين المستمرّ صباح السبت. كانت غرفتي حارّة وخانقة، فدفعت جانباً مجموعة الملاءات المتشابكة التي تضغط بثقلها عليّ قبل أن أمدّ يدي إلى الأرض لتناول هاتفي. كان إفرام قد ذهب، ربّما إلى دوام مبكر عند المسبح. ولن يحين موعد مناوبتي فيThe Sevens حتّى الظهيرة، ولذلك، على الرغم من أنّ الوقت قد تجاوز العاشرة، إلّا أنّني لست مضطرّاً للاستيقاظ قبل ساعة أخرى. وما كنت لأفعل لولا... أوه تبّاً.

إنّه أبي. كنت أودّ تحويله إلى البريد الصوتي، لكن لا يمكنني ذلك، فأنا أعرف لماذا يتّصل. "مرحباً أبي". أجبت وأنا أنهض للجلوس. "كيف كانت محكمة الإفلاس؟".

أجاب: "تمّ تأجيلها".

"عفواً، لماذا؟".

"أنا وأمّك بحاجة إلى مزيد من الوقت لإنهاء خطّة إعادة الهيكلة التي نقترحها. ولذلك طلبنا من الوصيّ التمديد حتّى الأسبوع المقبل، وقد وافق".

قلت بحذر: "حسناً، وهذا جيّد أم سيّئ؟".

"إنّه جيّد، فهو يعطينا فرصة أفضل للتمسّك بالإمبراطورية".

الإمبراطورية هي صالة البليياردو، وقد سُمّيت باسم فيلم أمّي المفضّل، إمباير ريكوردز، Empire Records. اشترى والداي الصالة عندما كنت صغيراً جدّاً لأتذكّر كيف كانت الحياة قبل أن تصبح الإمبراطورية شركة العائلة. وأولى ذكرياتي عنها هي الذكرى السنوية الثانية عندما كنت في الخامسة من عمري. يومذاك، حمل أبي أمّي عبر الباب وتركني أدخل خلفهما، إلى ما بدا كأنّه أكبر حفلة رأيتها على الإطلاق. على الرغم من ذلك، عندما أتذكّر ذلك اليوم بعد أكثر من عشر سنوات، أجد أنّ الحاضرين كانوا على الأرجح أقاربنا، وعدد من من عمّال البناء والسبّاكين الذين أصبحوا من العاملين المنتظمين في الإمبراطورية، فضلاً عن عدد كبير من البالونات.

لم يكن لذلك أيّ أهمّية، فقد أحببت ذلك المكان وبدا لي ساحراً، أتعلّم فيه لعبة جديدة ويكون فيه الكبار سعداء دائماً. استغرق الأمر بالنسبة إليّ سنوات عديدة لأدرك أنّ جزءاً كبيراً من هذا المزاج الجيّد يرجع إلى الزجاجات الموجودة خلف البار، ولعدد المرّات التي كان فيها النادل إنزو يستخدم دبلوماسيّته لوضع حدّ للروّاد المنتظمين عندما يكثرون منه. لكن لم يخرج شيء عن السيطرة يوماً في الإمبراطورية. كانت منزلي الثاني المظلم والعفن بأرضه القذرة.

أعادني صوت أبي إلى الحاضر. "جونا؟ أما زِلت معي؟".

"نعم، قلتَ إنّه سيكون لديك فرصة أفضل للتمسّك بالإمبراطورية. لكنّ هذا ليس أمراً مؤكّداً، أليس كذلك؟".

"ما من شيء مؤكّد، نحن نبذل قصارى جهدنا".

كنت قد أعددت نفسي، عندما عملت في المناوبة المتأخّرة في الإمبراطورية في الليلة التي سبقت مغادرتي إلى جزيرة النورس، أنّني قد أجدها مغلقة عند عودتي. وظننت أنّني مستعدّ لذلك. لكن كلّما اتّصل والداي لإبلاغي بأي جديد، أتعرّض للمزيج المخيف نفسه من الاستياء والقلق. لم يبدُ أنّه سيتم حلّ أيّ شيء، فثمّة تأجيلات متكرّرة، واجتماعات مع الدائنين، ومجموعة من المصطلحات القانونية التي لا أفهمها. إنّه الموت البطيء، ومع أنّني طلبت من والديّ إبقائي على اطّلاع على المستجدّات، إلّا أنّني بدأت أتمنّى لو أنّهما يوفّران عليّ التفاصيل.

سألت: "لكنّك ما زلت متفائلاً، أليس كذلك؟".

أجاب: "بالفعل. فنحن نعمل على عدّة طرق مختلفة لخفض التكاليف". شيء ما في الطريقة التي تنحنح بها جعلني واثقاً أنّ ما سيقوله بعد ذلك لن يعجبني. "مع الأسف، اضطررنا لترك إنزو يرحل".

كم كرهت كوني على حقّ. اعترضتُ قائلاً: "أبي، لماذا؟!". كان إنزو نادلاً في الإمبراطورية منذ افتتاحها، وهو الرجل الوحيد الذي ما زال بإمكانه أن يهزمني. كما أنّه مضحك ومخلص وأقرب إلى عمّ بالنسبة إليّ منه إلى رجل يعمل لدى والديّ. "كيف أمكنك إقالة إنزو؟ إنّه من مؤسِّسي الإمبراطورية! كما أنّه مجتهد ومخلص!" بدا صوتي قاسياً وغير مألوف حتّى على مسمعيّ، كما لو أنّني ابتلعت شيئاً حادّاً.

"إنّه مكلف يا جونا. علينا اتّخاذ قرارات صعبة".

"هذا إنسان، ولا يمكنك وضع سعر عليه والتخلّص منه!".

"إذا فكّرتَ لثانية واحدة-" ارتفع صوت أبي ليصبح بمستوى صوتي، ثمّ صمت. أخذ

يتنفّس ليتماسك نفسه مجدّداً. وعندما تحدّث مرّة أخرى، كانت نبرته أقرب إلى المعتاد باستثناء شيء من الحدّة: "إن كنت تعتقد أنّ التخلّي عن إنزو لم يحطّم قلبي وقلب والدتك، فإنّك مخطئ. لكن لم يكن لدينا خيار آخر".

كان لديك خيار عدم الإصغاء إلى آندرز ستوري، كدت أقول ذلك، لكنّني أمسكتُ نفسي في الوقت المناسب، فهو يعرف ذلك تماماً. "حسناً، إذاً..." قاطعني طرق عالٍ على بابي. "مهلاً، ثمّة شخص عند الباب. دعني أتخلّص منه ثمّ أعود".

قال أبي، وقد بدا مرتاحاً لإمكانية إنهاء هذه المكالمة: "كلّا، اذهب وابدأ يومك. هذه كلّ المعلومات التي لديّ الآن على أيّ حال". تنحنح مجدّداً وأضاف: "ربّما أكتفي بإرسال رسالة نصّية في المرّة القادمة".

شعرت بغصّة في صدري بسبب الإزعاج الذي سبّبته له، لكن كان لديّ غضب كبير بشأن إنزو لتحويله إلى اعتذار. قلت: "حسناً"، وأغلقت الخطّ. تركت الهاتف يسقط على وسادتي وأنا أتذمّر ثمّ مرّرت أصابعي في شعري، وشددته حتّى آلمني. قُرع الباب مجدّداً بصوت أعلى من ذي قبل.

قلت بحدّة: "أنا آتٍ، صبراً". هذا ما كان يقوله إنزو، كلّما ألححتُ عليه لأخذ قسط من الراحة ولعب البلياردو معي. صبراً يا فتى، لديّ عمل أقوم به. اللعنة. إذا واصلت التفكير بهذه الطريقة، سأكون عديم الفائدة طوال اليوم. أجبرت نفسي على أخذ أنفاس عميقة، ثمّ وقفت واتّجهت نحو الباب. مرّرت يدي في شعري المشعّث عندما لمحت نفسي في المرآة المعلّقة فوق خزانة الملابس، لكنّ هذا ليس مهمّاً، فمن المحتمل أن يكون الطارق ريد تشيلتون طالباً استعارة معجون الأسنان مجدّداً.

بالكاد فتحت الباب عندما دفعه أحدهم ليفتحه على مصراعيه، ولم يكن ريد.

"أرأيت هذا؟" بادرتني ميلي بالسؤال فوراً وهي تدفع هاتفها نحوي.

تمتمت متذمّراً: "صباح الخير لك أنت أيضاً"، لكنّ مزاجي تحسّن عند رؤيتها. أخذت قميصاً عن ظهر كرسي مقعدي، وتورّد خدّا ميلي عندما أدركت أنّني لا أرتدي سوى سروالاً قصيراً. إنّها تستحقّ ذلك لدخولها في هذه الساعة المبكرة - حسناً، العاشرة والنصف. ربّما كان ينبغي أن أكون مستيقظاً الآن. "أين أوبري؟" فأنا لا أرى عادة إحداهما من دون الأخرى.

أجابت ميلي: "إنّها تعمل". بدت رائعة كعادتها بقميصها الأبيض المخرّم وسروالها القصير وصندلها المعقّد مع كثير من الأشرطة. عندما خرج رأسي من ياقة قميصي القطني، كان نظرها مثبّتاً على بقعة فوق كتفي وهي لا تزال ممسكة بهاتفها. "كان الخال آرتشر على حقّ، لقد أخطأ في عزف تلك الأغنية. فمجلّة النورس تلقّفت الخبر فوراً".

"ماذا تقصدين؟" أخذت هاتفها وبدأتُ أقرأ. غاص قلبي بمجرّد أن رأيت العنوان الرئيس في الجزء العلوي من زاوية نمط الحياة.

وتستمرّ الحكاية: هل كان الابن المبعَد آرتشر مختبئاً على مرأى من الجميع؟

قلت وأنا ألقي نظرة على المقالة: "لكن تبّاً". كانت المقالة تتحدّث عن "مصادر مختلفة" رأت رجلاً يشبه آرتشر ستوري وهو يعزف في ديونز الليلة الماضية. "ما هذا الخبر؟ وهل اكتشف الناس أمره حقّاً لمجرّد أنّه غنّى إحدى أغنيات توتو؟".

تنهّدت ميلي مجيبة: "إنّها جزيرة النورس، تذكّر، والناس هنا مهووسون بآل

ستوري".

"من الأفضل أن أخبر جي تي. كنت أنوي أن ألزم الصمت إلى أن تتاح الفرصة لآرتشر للتحدّث مع ميلدريد، ولكن بما أنّ أمره كُشف إلى العلن...". أرسلتُ الرابط لنفسي وأعدت الهاتف إلى ميلي. بعد ذلك، أخذت هاتفي عن السرير وأرسلت المقال إلى جي تي مع نصّ أطلب فيه أن يتّصل بي. "هل تعتقدين أنه قرأها؟".

سألت ميلي بريبة: "جي تي؟".

"كلّا، بل آرتشر".

"لا أدري". عضّت على عقدة إبهامها متابعة: "لقد اتّصلت به وأرسلت إليه عدّة رسائل هذا الصباح، لكنّه لم يجب".

"الوقت مبكر، وربّما كان نائماً". ثمّ شعرتُ بالقلق لأنّ الأمر بدا كما لو أنّني عنيت "غائباً عن الوعي". لذلك أضفت: "ما كنت لأستيقظ أنا أيضاً لو لم تطرقي بابي".

"نعم، ولكن ظننت... لا أدري. ظننت أنّه سيرغب بالتحدّث إلينا مجدّداً في أقرب وقت ممكن". انخفض كتفاها وشعرتُ بهذا الضيق الغريب في صدري والذي يحدث كلّما بدت ميلي حزينة.

"سيكلّمنا قريباً". قلت ذلك بثقة أكبر ممّا أشعر به، لأنّه ثمّة فرصة خمسين بالمائة أن يكون توتّر الليلة الماضية قد دفع آرتشر ستوري إلى الانغماس في الشرب مجدّداً. وإلّا فإنّ أخبار هذا اليوم ستفعل بالتأكيد.

قالت: "ربّما كان يتحدّث إلى د. باكستر، فأنا لن أطيق الانتظار لو كنت مكانه.

كانت تلك الرسالة غريبة جدّاً".

د. باكستر غريب الأطوار، هذا محسوم. فقد انزعجت ميلي وأوبري كثيراً في ذلك اليوم في منزله لدرجة أنّني لم أخبرهما بما اعتقدت أنّني رأيته، أي عندما ارتطم بالطاولة عمداً لمقاطعة المحادثة حول الشائعات التي لاحقَت الإخوة ستوري. لم يبدُ ذلك مهمّاً في ذلك الوقت، على أيّ حال. فقد كنّا جميعاً غير مرتاحين، وكنت ممتنّاً لأنّه وضع حدّاً للجلسة. لكن لم يخطر ببالي، إلى أن قرأت رسالته في الليلة الماضية، أنّه فعل ذلك لأنّ هيزل كانت على وشك قول شيء لا يريدنا لنا سماعه.

قال في الرسالة، ثمّة أمور كان يجب أن أخبرك بها منذ فترة طويلة. لو كنت مكان آرتشر ستوري، وأمضيت أكثر من عشرين عاماً وأنا أتساءل لماذا تمّ حرماني من ثروة عائلتي، لاستعدتُ وعيي بما فيه الكفاية لأطرق بابه في أسرع وقت ممكن.

قلت: "ربّما كنتِ على حقّ". رفعت ميلي يدها لتبعد خصلة شعر خلف أذنها، فانزلقت تلك الساعة الكبيرة التي تضعها دائماً على ذراعها. تلاشى كلّ من د. باكستر وآرتشر ستوري من ذهني عندما اقتربتُ منها، ومرّرتُ أناملي على الساعة الذهبية المصقولة. "هل فكّرتِ يوماً في تعديل حجم هذا الشيء ليناسب معصمك؟".

"كلّا". ثمّ أخرجَتها بسهولة من يدها وأعطتني إيّاها. "كانت لجدّي، وهي معطّلة".

أدرت الساعة بيدي. كانت ثقيلة الوزن ولا تزال دافئة من بشرتها، معدنها أملس ومتوهّج. "لماذا تضعينها ما دامت لا تعمل؟".

"لأنّها تعجبني ببساطة".

كان ثمّة نقش على ظهر الساعة: Om-nia vincit amor. مع حبّي، م. "أهي هدية من ميلدريد؟". أجابت ميلي بإيماءة من رأسها. "وما معنى هذه الجملة؟".

"الحبّ يتغلّب على جميع الصعوبات". ارتعشت شفتاها وهي تهزّ أحد كتفيها متابِعة: "ما لم تكن تتحدّث عن أولادها، على ما أظنّ، أو أحفادها".

ميلي تهتمّ كثيراً عندما يتعلّق الأمر بكيفيّة تقديم نفسها للعالم. فقد جررتُ حقيبتها العملاقة مسافة كافية لأدرك كم تهتمّ بالمظاهر. ولذلك، من المثير للاهتمام أن تكون الحلية الوحيدة التي تضعها كلّ يوم هي عبارة عن أداة معطَّلة تذكّرها أنّها منبوذة.

أخذت يدها وأعدت الساعة إلى معصمها. "ميلدريد هي التي فقدَت عقلها عندما رفضت منحكم فرصة حتّى أجبرها آرتشر على ذلك. أنت تفهمين، أليس كذلك؟ هي التي تعاني من مشكلة، وليس أنتم".

"أنا أدرك ذلك". نظرَت إلى الأعلى بسأم مضيفة: "لكن شكراً على التحليل النفسي المجّاني".

"لديّ المزيد في الواقع". كانت لا تزال يدها في يدي. "هل تعلمين أنّ السخرية آلية دفاع؟".

تأمّلَت غرفتي ونظرَت في كلّ الاتّجاهات ما عدا إليّ. "هل تعلم أنّ غرفتك منطقة منكوبة؟ هل تدرك أنّ لديك خزانة هنا؟ وأنّه بإمكانك وضع الملابس فيها؟".

"تغيير الحديث أيضاً آلية دفاع".

ارتعشت شفتاها وقالت: "دفاع ضدّ ماذا؟".

"ضدّ مشاعر الهجران، على الأرجح". ضحكَت قليلاً، ونظرَت إليّ من تحت رموشها بتلك الطريقة التي تجعل نبضي يتسارع دائماً. فجأة، تذكّرت حديثاً أجريته قبل يومين مع إفرام، عندما أخبرني كيف عرض على صديقته الحالية الخروج عندما توقّفَت بجانبه عند إشارة حمراء، وراحت تتمايل على أنغام موسيقى كانت تتصاعد من سيّارته. عليك أن تقتنص فرصتك عندما تظهر، فمن يدري متى تنال فرصة أخرى. هذا ما قاله، وجعلني أفكّر في ميلي آنذاك، وكيف أنّه من المستحيل أن يحصل المرء على فرصة مع فتاة يتعيّن عليه التظاهر أنّه ابن خالها أمام العالم بأسره.

ولكن للحظة، شعرت أنّه ما من أحد مهمّ غيرنا نحن الاثنين.

أبقيت نبرتي خفيفاً، لأنّني لم أرغب في إخافتها. "أو ربّما كانت لديك مشاعر انجذاب نحو شخص غير مناسب".

"أوه؟" رفعت حاجبيها باستغراب متسائلة: "مثل من؟".

قلت: "أحد معجبي ريد سوكس، أو أحد أبناء البلدة العجائز، ربّما؟ أو قريب مزعوم. يمكن أن يكون أيّاً من هؤلاء، حقّاً".

لوّحت ميلي بيدها، لكن لم يبد أنّها غاضبة. "بالكاد".

قلت بصوت احترافي للغاية: "لا تقاومي ذلك، فالكبت غير صحّي".

الآن ضحكَت بالفعل. لا بل كادت تقهقه، وهو أمر لا يشبهها. وجدتُ ذلك لطيفاً لدرجة أنّني أجهدت عقلي في محاولة التفكير في أمر مضحك آخر أقوله. لكنّها ما لبثت أن كتفت ذراعيها، وعاد نظرها إلى تلك البقعة فوق كتفي. قالت متّهمة: "أنت تفعل ذلك

مجدّداً".

"ماذا أفعل؟".

"تغازلني".

"كلّا، هذا ليس صحيحاً". انتظرتُ للحظة ثمّ أضفت: "ما لم تكوني مهتمّة بذلك، فهل أنت مهتمّة؟".

قاومَت ابتسامة وقالت: "حقّاً، عليك ارتداء بنطال من أجل محادثة كهذه".

بدا ذلك بعكس الاتّجاه الذي أودّ أن تسير فيه الأمور، لكنّني لم أكن راغباً في مجادلتها الآن. "أنت محقّة. هلّا-" أشرت إليها لكي تدير ظهرها وتنظر إلى الباب. ثمّ تناولتُ سروالي من طرف السرير وارتديته. كان الطقس حارّاً في هذه الجزيرة لارتداء الجينز، ولكنّني لم أكن يوماً من محبّي السراويل القصيرة إلّا عندما ألعب كرة السلّة. وأنا لم أمارس هذه الرياضة منذ أن بدأت العمل لمناوبتين في الإمبراطورية. وهو أمر لا أودّ التفكير فيه الآن، لأنّ ميلي في غرفتي، و-

شهقت ميلي. وعندما استدرت، رأيتها تحملق إلى هاتفها. سألتها: "ما الأمر؟ هل اتّصل آرتشر أخيراً؟".

هزّت ميلي رأسها نافية ووضعت يدها على حنجرتها. "كلّا. أوه كلّا".

توتّرت كتفاي. لم يسبق لي أن رأيت نظرات ميلي مرعوبة بهذا الشكل، مع أنّني كنت معها خلال كشف هويّتين مزيّفتين، بما في ذلك هويّتي. "هل كلّ شيء على ما يرام؟" لم تجبني على الفور، لذلك بدأت بطرح التخمينات. "هل ثمّة ما حدث لجدّتك؟ لوالديك؟

لأوبري؟".

قالت أخيراً: "نعم. أعني، كلّا، الأمر لا يتعلّق بأوبري نفسها، لكنّها راسلتني من المسبح. لقد أخبرها كارسون فاين بأمر للتوّ". كانت عيناها لا تزالان مذهولتين ومصدومتين عندما نظرت إليّ. "عن د. باكستر. لقد توفّي هذا الصباح. غرق في جدول في الغابة خلف منزله".

الفصل الثالث عشر

ميلي

ظهرت البوّابة للعيان قبل وقت من المنزل نفسه. لا بدّ أنّ طولها يبلغ خمس عشرة قدماً، مصنوعة من الحديد المطاوع السميك، ويحيط بها من الجانبين جدار حجري طويل يمتدّ على مدّ النظر في كلا الاتّجاهين. وما من طريقة لدخول كاتمينت هاوس باستثناء هذه البوّابة، ما لم تكن راغباً في تجربة تسلّق المنحدر الممتدّ إلى البحر، والذي يحيط بالجهة الخلفية من المنزل.

قال سائقنا وهو يضغط على الفرامل ويفتح نافذته: "لقد أوشكنا على الوصول". سرعان ما اجتاح أنفي عطر زهرة العسل. سحب مستطيلاً فضّياً رفيعاً يشبه بطاقة الائتمان من حاجب الشمس، وحمله أمام جهاز استشعار معلّق على عمود خشبي. فسُمعت طقطقة عالية، وفُتح البوّابة ببطء.

كنّا نركب سيّارة بنتلي مولينير التي تحتوي على أربعة مقاعد في الخلف، اثنان من كلّ جانب مواجهَين لبعضهما البعض، تفصل بينهما طاولة من الكروم وخشب الجوز. كانت المقاعد الجلدية بنّية اللون ومزوّدة بعشرات الأزرار التي تتيح لنا ضبط درجة الحرارة ووضعيّة المقعد. أمضى جونا الرحلة في العبث بأدوات تحكّم مقعده، لكنّه نظر الآن إلى الأعلى بينما كانت السيّارة تعبر ببطء ممرّاً متعرّجاً. تسلّقت أجمات زهر العسل

تعريشات طويلة إلى يميننا، بينما توزّعت إلى يسارنا أشجار خضراء مورقة لم أرها في أيّ مكان آخر على جزيرة النورس.

تنّهدت أوبري. بدت متشنّجة وغير مرتاحة في فستان مخطّط مزوّد بأزرار، وهو الفستان الوحيد الذي رأيتها ترتديه على الإطلاق. "لقد تلقّيتُ رسالة نصّية من هيزل هذا الصباح. قالت إنّ الجنازة ستقام يوم الأربعاء. علينا أن نطلب يوم إجازة من كارسون".

"نعم بالطبع". مرّرت أصابعي على الجلد الأملس لمقعدي. "هل تعتقدان أنّ الخال آرتشر حصل على فرصة للتحدّث مع د. باكستر قبل وفاته؟".

"أعتقد..." تردّد جونا كما لو أنّه يقدّر مدى استعدادنا لسماع النبأ السيّئ، ثمّ قرّر الاستمرار في الكلام: "بصراحة، أعتقد أنّه يشرب منذ أن رآنا."

قد يكون على حقّ. فقد مرّت ستّ وثلاثون ساعة منذ مغادرتنا منزل الخال آرتشر، ولم يحاول الاتّصال بنا بتاتاً. لم يردّ على أيّ من رسائلنا النصّية، وكانت المكالمات تحوَّل مباشرة إلى البريد الصوتي.

قالت أوبري: "لا شكّ أنّ الجدّة باتت تعرف الآن بأمر العمّ آرتشر، أليس كذلك؟ أعني، لا بدّ أنّها رأت المقال."

أجبتها: "أنا واثقة أنّها فعلت". فأنا لا أتخيّل أنّها ستغفل عن خبر كهذا".

عضّت أوبري على شفتها ثمّ قالت: "هل يجدر بنا إخبارها أنّه هو من أتى بنا إلى هنا؟".

"كلّا". أتى ردّنا واحداً أنا وجونا. فابتسم لي مميلاً رأسه، وتشنّجت معدتي. لست

متأكّدة ممّا كان سيحدث في غرفته بالأمس لو لم يشتّت انتباهنا الخبر المتعلّق بالدكتور باكستر، لكنّ جزءاً صغيراً منّي يتمنّى لو اكتشفت ذلك.

قال: "أنا أعرف أسبابي. فأنا أحاول التمسّك بهذه الوظيفة لأطول فترة ممكنة. وجي تي أساساً في حالة ذعر بسبب قصّة آرتشر. فما هي أسبابك؟".

رفعت ذقني مجيبة: "نحن لسنا مدينين لميلدريد بأيّ شيء. يمكنها اكتشاف ذلك بمفردها، تماماً كما فعلنا". ولاحظتُ بينما كنت أقول ذلك، أنّني أفكّر حقّاً بأوبري وجونا وبنفسي كفريق الآن عندما قلت "نحن". فريق تشكّل بظروف غريبة، وهو عالق الآن في شيء لا يفهمه أحد سوانا نحن الثلاثة. يستمرّ هذا الصيف بإدهاشنا على نحو غير متوقّع، ومن المريح أنّهما معي في هذه الرحلة.

كنّا أنا وأوبري جالستين جنباً إلى جنب، ووجهانا إلى الأمام، وعندما شهقَت، عرفتُ أنّ انتباهها تحوّل إلى منظر كاتمينت هاوس. قالت: "أوه، إنّه رائع". رفعتُ عنقي لأتمكّن من الرؤية أنا أيضاً، ولكن في غضون ثوانٍ لم يعد ثمّة حاجة إلى ذلك. فقد استقام الطريق أمامنا، وامتدّ المنزل أمام أعيننا مباشرة.

كان الجزء الخلفي من المنزل الذي لمحناه من الطريق عبارة عن نوافذ متلألئة وخطوط حديثة، لكنّ الواجهة الأمامية كانت على طراز قصور نيو إنغلاند بالكامل. جناحان متماثلان، كلّ منهما بحجم منزل نموذجي على جزيرة النورس، يحيطان بجزء في الوسط تهيمن عليه أعمدة بيضاء تؤدّي إلى شرفة على طراز شرفة جولييت. كان السطح داكناً ومنحدراً بشكل كبير، مع ممشى بدرابزين في الأعلى تحيط به أربعة مداخن حجرية. جميع النوافذ، التي لم أعد أحصيها، طويلة وبيضاء اللون، ذات مصاريع خضراء. وكان ثمّة

مرآب ذو أربعة أبواب متّصل بالجناح الأيسر ومبنيّ من حجر المداخن نفسه، مع جدار مكسوّ بتعريشات زهر العسل ذات الظلال المتباينة. خلف المنزل، يلتقي المحيط الأزرق الداكن بسماء زرقاء شاحبة تتخلّلها غيوم بيضاء مخرّمة.

كنت قد رأيت صوراً له، لكنّها لم تعدّني للمشهد الحقيقي. إنّه مذهل. لثانية، لم أستطع التنفّس وأنا أتخيّل عالماً بديلاً أمضي فيه كلّ صيف هنا تحت العين الساهرة لجدّة حميمة.

وقفت امرأة ترتدي فستاناً رمادياً عديم الشكل وقبقاباً بين الأعمدة المحيطة بالباب الأمامي، وبدت غير منسجمة مع كلّ هذه العظمة. أوقف السائق السيّارة، ولوّحت تيريزا رايان لنا ونحن نترجّل من البنتلي. نادت قائلة: "أهلاً وسهلاً بكم". كانت أوبري أوّل من وصل إليها. فأمسكت تيريزا بيدها بين يديها الاثنتين. "لا بدّ أنّك أوبري. وهذا جونا بالطبع". بقيتُ في الخلف وهم يتبادلون التحيّة، بما أنّني سبق وقابلتُ تيريزا.

عندما تحدّثتُ إلى أمّي في الليلة الماضية، بدت حزينة بشأن مساعِدة والدتها. قالت لي: "أخبري تيريزا أنّني أشعر بالرضا حيال فريق يانكيز هذا العام. وأنّه يكاد يذكّرني بعام 1996". لكن عندما مدّت تيريزا يدها للترحيب بي، لم تخرج الكلمات من فمي. فقد وجدتُ صعوبة في محاولة التقرّب منها. كانت الشخص الأكثر لطفاً في دائرة ميلدريد ستوري المقرّبة، لكنّها مع ذلك اختارت الوقوف بجانبها قبل سنوات، وهذا ليس طرفنا.

وضعت تيريزا يديها على مقبض الباب، من دون تحريكه، ثمّ قالت والعبوس يعلو جبينها: "هل لي بكلمة سريعة قبل أن ندخل؟ لقد كانت عطلة هذه الأسبوع صعبة للغاية. ففريد باكستر هو واحد من أقدم وأعزّ أصدقاء جدّتكم، وقد دمّرها موته. علاوة

على ذلك، أعتقد أنّكم قرأتم ما قيل عن عودة عمّكم إلى المدينة؟". نظرت إلينا متسائلة، لكنّني أبقيتُ تعبيري محايداً بحذر.

تمتمتُ مجيبة: "نعم، هذا غريب". أمّا أوبري وجونا فنظرا إلى الأرض.

قالت تيريزا: "من الصعب استيعاب كلّ ذلك دفعة واحدة. آمل أن تتفهّموا أنّنا قد نحتاج إلى اختصار وجبة الإفطار".

أومأتُ برأسي مجيبة: "بالطبع."

فتحَت الباب وأشارت لنا لدخول بهو كبير. كانت الجدران بيضاء نقيّة، والسقف مرتفعاً، والمساحة مليئة بأروع مجموعة من اللوحات والمنحوتات والأصص التي رأيتها خارج متحف. كان ثمّة رجل نحيل يرتدي ملابس سوداء بالكامل يحدّق باهتمام إلى أحد الجدران، ويدوّن شيئاً في دفتر ملاحظات. لقد أمضيت سنوات في التسكّع في معرض فنون والدة صديقتي كلوي، وأنا متأكّدة من أنّه ينظر إلى لوحة أصلية لسي تومبلي.

عندما رآنا الرجل، أغلق دفتر الملاحظات قائلاً لتيريزا: "أنا متأكّد من أنّه يمكننا عقد اتّفاق. سأتواصل معك".

"هذا رائع، شكراً لك"، قالت تيريزا ذلك وهي تتراجع لتفتح له الباب. تحدّثا لفترة وجيزة بنبرة منخفضة، وعندما عادت، ابتسمت لنا برقّة قائلة: "جدّتكما تفكّر في التجرّد من جزء من مجموعتها الفنّية."

التجرّد. هذه كلمة تعلّمتها مؤخّراً عندما جعلتني أمّي أدرس لخوض امتحان القبول في الجامعات الأميركية، وهي تعني التخلّص من شيء لم يعد المرء يريده أو يحتاج

إليه. قد تكون تلك اللوحة التي توشك ميلدريد على التجرّد منها قليلة الأهمّية من بين أعمال تومبلي، لكنّ قيمتها مع ذلك تغطّي جميع نفقات الرسوم الدراسية في جامعتنا بأسعار جامعات آيفي ليغ. علماً أنّ مجموعي لا يتيح لي دخول إحدى جامعات آيفي ليغ، ولكن...

شغلتني تلك الفكرة المريرة إلى أن قادتنا تيريزا عبر باب زجاجي فرنسي الطراز. خرجنا منه إلى شرفة واسعة تطلّ على البحر، ويحيط بها درابزين فولاذي. فداهمني إحساس أنّني سبق ورأيت هذا المشهد، مع أنّه لم يسبق لي المجيء إلى هنا من قبل، لأنّ أمّي وصفت هذه الشرفة بتفصيل بالغ. كان هذا الجزء المفضّل لديها في المنزل بأكمله.

قالت تيريزا: "ميلدريد، لقد وصل الأولاد".

جلست جدّتي إلى طاولة من خشب الساج، وخلفها مظلّة رقيقة ضخمة. كانت الجلسة معدّة لأربعة أشخاص، مع ثلاث صوانٍ متدرّجة تحتوي على تشكيلة شهيّة من السندويشات والمعجّنات والفواكه. كانت ميلدريد تعتمر قبعة تقيها من الشمس، على الرغم من المظلة، وتضع وشاحاً مزخرفاً جميلاً على فستان طويل الأكمام من الكتان بلون الكريم. وكان قفّازها من اللون الكريمي نفسه، وقصير بما فيه الكفاية لأتمكّن من رؤية مجموعة الأساور الذهبية حول ذراعها اليسرى. استرسل شعرها الأشيب في تموّجات، بينما اختفت عيناها خلف نظّارة شمسية سوداء كبيرة.

هذا ليس عدلاً، هذا ما فكّرتُ فيه وأنا أجلس. فقد اعتقدتُ أنّ وضع نظّارة شمسية في لقاء كهذا ليس لائقاً، وإلاّ لأحضرتُ نظّارتي. إذ يمكنني الاستفادة من بعض التمويه في هذه اللحظة.

قالت ميلدريد وهي تميل رأسها باتّجاه كلّ منّا بدوره: "أوبري، جونا، ميلي، أهلاً بكم في كاتمينت هاوس". ابتعدت تيريزا، بينما ظهر رجل بمريلة سوداء خلفنا، يقدّم القهوة أو الشاي أو العصير متحدثاً بنبرة خافتة. أضافت ميلدريد: "من فضلكم، تفضّلوا بتناول ما ترغبون".

أجبنا معاً: "شكراً لك"، لكن لم يقترب أحد من الطعام.

"إلّا إن لم يرق لكم شيء". قالت ذلك بجفاف، وسرعان ما سُمع ضجيج الأواني الفضّية ونحن نحاول جميعاً ملء أطباقنا في الوقت نفسه. تبّاً لها، هذا ما فكّرتُ فيه وأنا أطعن شريحة من البطّيخ بشوكتي. لم تكد تمضي دقيقتان على وجودنا هنا، وها هي تدفعنا للامتثال لرغباتها.

حدّق جونا، الجالس بجانبي، إلى السندويشات بشيء من الخوف، ثمّ همس قائلاً: "كلّها مليئة بالخسّ، ولا شيء غير ذلك".

غرزتُ شوكتي في إحداها قائلة: "إليك هذه، أعتقد أنّها تحتوي على لحم البقر المشويّ". فأخذها جونا بامتنان. أمّا أوبري، ففضّلت عدم المجازفة وكدّست في طبقها مجموعة من المعجّنات الصغيرة.

"إذاً". طوت ميلدريد يديها تحت ذقنها وانتظرتُ السؤال البديهي: ماذا تفعلون هنا؟ لكنّه لم يأت. بدلاً من ذلك، أمالت رأسها نحو جونا وقالت: "يجب أن أعترف يا جونا أنّني لا أرى شيئاً من آندرز فيك".

حاول جونا كسب الوقت بقضم نصف شطيرة لحم البقر المشويّ ومن ثمّ... الكارثة. تحوّل وجهه إلى اللون الأحمر، ودمعت عيناه، وقحّ قبل أن يندفع لتناول منديل وبصق

الطعام شبه الممضوغ. شهق متسائلاً: "ما هذا؟" ومدّ يده لشرب الماء. نظرتُ إلى نصف الشطيرة غير المأكول على طبقه، ولاحظت مادة بيضاء كريمية بين طبقات اللحم.

قلت بينما كان جونا يفرغ كوب الماء بكامله في جرعتين: "أوه... يبدو أنّه فجل حارّ. أنا آسفة". أضفتُ قائلة لميلدريد: "ليس طعامه المفضّل".

"هذا ما يبدو". قالت ذلك، ثمّ انتزعت حبّة كبيرة من التوت البرّي من أعلى قطعة صغيرة من التارت وألقتها في فمها. كانت الحركة مذهلة، فهل هذه المرأة تأكل حقّاً؟ ما كنت لأفاجأ لو علمت أنّها تتغذّى على عقود من المرارة.

عندما مضغت ميلدريد الفاكهة وابتلعتها، خلعت أخيراً نظّارتها الشمسية، ووضعتها على الطاولة بجانب طبقها. بقي نظر عينيها المحاطتين بطبقة سميكة من الكحل، كما رأيناها أوّل مرّة، مركّزاً على جونا. سألته قائلة: "أخبرني، هل آندرز بخير؟".

جمد جونا طويلاً، باستثناء عضلة صغيرة انتفضت في فكّه، لدرجة أنّني تساءلت عمّا إذا كان قد فهم السؤال. مدّ يده بعد ذلك إلى إبريق الماء المثلّج وصبّ لنفسه كوباً جديداً، وأخذ وقته كما لو أنّه لم يدَع الصمت المحرج يخيّم علينا. عندما انتهى، نظر إلى ميلدريد وأخذ نفساً عميقاً وبطيئاً، كما لو أنّه على وشك إلقاء خطاب. سألها أخيراً: "هل تريدين أن أجيب على هذا السؤال بصدق؟".

كان صوته هادئاً مع نبرة تحدٍّ. وبدا لي كما لو أنّ كلّ قلقه السابق قد اختفى فجأة، ولسبب ما جعلني أنا غير مرتاحة.

قوّست ميلدريد أحد حاجبيها مجيبة: "نعم".

خرجت منّي قحّة عصبية لا إرادياً. فرفّ جونا عينيه ونظر إلى عينيّ، ثمّ علا احمرار عميق وجنتيه. التفت إلى ميلدريد، وتمتم مجيباً: "أعتقد أنّه بخير. أنا لا أعرف، فنحن لسنا مقرّبَين".

لاحت عاطفة لم أستطع فكّ رموزها على وجه ميلدريد وهي تلتفت نحو أوبري. "أنت أيضاً شبهك بوالدك قليلٌ جدّاً، مع أنّني أرى شيئاً منه في شكل عينيك وذقنك". بدت أوبري متفاجئة ومسرورة بتلك المقارنة. "كيف حال آدم هذه الأيّام؟".

عدّلت أوبري ياقة فستانها ورطّبت شفتيها. لم تلمس شيئاً من معجّناتها بعد ولا من المشروبات الثلاثة التي كانت أمامها. كانت متوتّرة، لكنّ صوتها خرج ثابتاً وهي تجيب: "إنّه على حاله، كالعادة".

تناولت ميلدريد رشفة صغيرة من الشاي وسألَت: "بمعنى آخر، يظنّ أنّ الشمس تشرق وتغرب عليه، ويحيط نفسه بأناس يوافقونه على ذلك؟".

شعرتُ أنّ عينيّ تكاد تخرجان من محجريهما بينما تحوّل لون أوبري إلى الأحمر. ربّاه أيّتها المرأة، إن كان هذا هو حاله، ألا تعتقدين أنّه قد يكون لك علاقة بذلك؟

كانت موافقة أوبري الواضحة على طعنة ميلدريد في حالة صراع مع ولاء لا يستحقّه والدها، وبدت حيرتها بوضوح على ملامح وجهها. تراجعت ميلدريد عن هجومها، وذهبت إلى حدّ التربيت على يد أوبري بأناملها المغطّاة بالقفّاز، ثمّ قالت: "سامحيني، لقد كانت نهاية هذا الأسبوع صعبة. أنا لم أقصد أن أبدأ الحديث بهذا الشكل، فلنتحدّث عن أشياء أكثر سعادة. سمعت أنّك سبّاحة ماهرة؟".

أومأت أوبري برأسها بامتنان، بينما أضافت ميلدريد: "لا بدّ أنّ والدك فخور بك.

فلطالما قدّر الموهبة الرياضية".

تردّدت أوبري، كما لو أنّها تشتبه بوجود فخّ. "أنا... أنا آمل ذلك".

التفتت ميلدريد مجدّداً إلى جونا، الذي كان ينظّف فمه بهدوء بقطع تارت الفاكهة الصغيرة. "سمعت أنّ درجاتك ممتازة يا جونا، هل ستتقدّم إلى جامعة هارفارد؟".

أخذ جونا وقته في ابتلاع الحلوى، لكنّه بدا مرتاحاً من السؤال السهل نسبيّاً. "أجل، على الأرجح".

مرّت خمس عشرة دقيقة قبل أن أفهم تماماً نمط المحادثة. ثمّة عديد من الأشياء الرائعة التي يمكن أن نتحدّث عنها الآن، مثل حرمان والدينا من الميراث، وموت د. باكستر، وظهور الخال آرتشر، وبالطبع السؤال الذي يجب أن يكون من الأولويّات في ذهن ميلدريد: ما الذي أتى بكم إلى هنا أنتم الثلاثة بالله عليكم؟ لكنّ أيّاً من هذه المواضيع لم يُطرح. كانت جدّتي تقسّم انتباهها الشبيه بالليزر بين أوبري وجونا، وتطرح عليهما أسئلة حول حياتهما وإنجازاتهما وأبويهما. وفي بعض الأحيان، يبلغ استجوابها حدّاً غير مريح - من الواضح أنّها تبحث عن شيء يتعلّق بولديها الأكبر سنّاً، مع أنّها لا تطرح سؤاها على الفور بشكل صريح - لكنّ تركيزها بقي عليهما.

بدا جونا غير مرتاح على الإطلاق معظم الوقت، لكنّه لم يكشف ذلك. أمّا أوبري، فانفتحت مثل زهرة في الشمس، وتركَت اهتمام جدّتنا غير المتوقّع يغمرها.

كان من الممكن ألّا أكون هناك حتّى.

لطالما تخيّلت ما سيكون عليه الحال إذا التقينا أنا وجدّتي أخيراً. نعم، كانت

تخيّلات التسوّق سخيفة، لكن بخلاف ذلك، اعتقدت أنّ كوني أحمل اسمها قد يعني لها شيئاً، وأنّ شبهي الكبير بأمّي قد يعني شيئاً أيضاً، وحمل ساعة جدّي في معصمي كلّ يوم، واهتمامي بالفنّ والموضة كما تفعل قد يهمّها.

والآن، بينما أنا جالسة في بقعة أمّي المفضّلة في كاتمينت هاوس الأسطوري، أشاهد القمم المغطّاة بالثلوج في الأفق، وأتناول أكثر من نصيبي العادل من الإفطار لأنّني لست مضطرّة للإجابة عن أيّ أسئلة، كل ما أمكنني التفكير فيه أنّ أيّاً من هذا لا يعني شيئاً على الإطلاق.

ربّما كانت عنصرية ولا تكترث للتعاطي مع حفيدتها الوحيدة غير البيضاء. وربّما تكون متحيّزة جنسياً وتهتمّ فقط بأبنائها، أو ربّما هي لا تحبّني ببساطة.

قلت، وأنا أقف فجأة: "أودّ دخول الحمّام".

أشارت ميلدريد إلى الباب فرنسي الطراز: "انعطفي يساراً عند الرواق. ثمّة غرفة بين بابين في آخره".

قلت: "حسناً". لكن ما إن غادرت الغرفة المتّصلة بالشرفة، حتّى انعطفتُ يميناً بدلاً من ذلك. لتذهب ميلدريد وتوجيهاتها إلى الجحيم، فأنا لم يسبق لي أن دخلت منزل والدتي من قبل، وأودّ إلقاء نظرة عليه. خلعت صندلي وأمسكته بإحدى يديّ، ثمّ تنقّلت بهدوء عبر الغرف الواسعة والمفروشة بشكل جميل، والتي بدت وكأنّها صورة في إحدى المجلّات. انتشرت الأعمال الفنّية والأزهار الطبيعية المقطوفة حديثاً في كلّ مكان. وعندما استرقت نظرة إلى المطبخ، تعجّبت من الأجهزة المتطوّرة التي تتألّق كما لو أنّه لم يتمّ استخدامها من قبل في شيء عادي كالطهي. لفت انتباهي بعد ذلك صوت خافت، فتبعتُه عائدة إلى

الردهة.

كانت تيريزا رايان تقول: "أعتقد أنّ ذلك كان زائداً". كانت في غرفة مجاورة للمطبخ، ومن مكاني في الردهة استطعت رؤية جدار كامل من الأرفف المحمّلة بالكتب. "لقد مررنا بذلك من قبل. تعتقد أنّك تتخلّص من مشكلة، ولكن كلّ ما تفعله هو التسبّب بعشرات المشاكل الأخرى".

بدت غاضبة، وهذه ليست عاطفة يمكن أن تقترن بمساعدة جدّتي الهادئة. فاقتربتُ أكثر.

قالت: "إنّهم هنا الآن. أنا أحاول أن أبقي اللقاء قصيراً، ولكنّني لست متأكّدة متى يمكنني إبعادها. لديها فضول شبه مَرضي، على ما أظنّ". بعد صمت طويل، أضافت: "حسناً، ما رأيك؟ الهوس القديم نفسه. والآن ليس الوقت المناسب لتُشتّت انتباهها هكذا". بعد صمت آخر أضافت: "سيكون هذا أفضل للجميع، أنا أوافقك. حسناً، فلنتواصل لاحقاً بعد ظهر اليوم".

سمعتُ وقع خطوات، فتراجعتُ بسرعة إلى المطبخ، واختبأتُ خلف الطاولة في الوسط. مرّت تيريزا عبر الردهة من دون أن تتوقّف وهي تتمتم بصوت منخفض. وعندما لم أعد أسمعها، خرجتُ من المطبخ وألقيت نظرة على الغرفة التي خرجَت منها. كانت مكتباً مليئاً بالكتب وخزائن الملفّات، فضلاً عن مكتب خشبي ضخم منحوت. كنت أتوق لإلقاء نظرة على المكان، ولكنّني هنا منذ وقت طويل أساساً. لديّ فقط الوقت الكافي للتحقّق من أمر ما.

رأيت هاتفاً أرضياً على المكتب، من النوع الذي يحتوي على شاشة. كان لدى أمّي

شيء مشابه في مكتبها، إذ لا يبدو أنّها استطاعت أن تتخلّى عن التكنولوجيا القديمة. فضغطتُ على قائمة في الهاتف، ومن ثمّ على زرّ آخر مكالمة.

وسرعان ما ظهر اسم على الشاشة: دونالد كامدن.

الفصل الرابع عشر

أوبري

كانت ميلي زبونة الأحلام بالنسبة إلى متجر كايلا. "كلّ شيء يبدو جميلاً عليك!". هتفت المالكة بذلك وهي تشبك يديها أمامها، بينما كانت ميلي تخرج من غرفة الملابس وتقف على منصّة أمام مرآة كبيرة. "ولكنّني أعتقد أنّنا وجدنا الثوب المناسب. ها هو".

أظنّ أنّها على حقّ. فقد كانت ميلي ترتدي ثوباً رائع الجمال بلا أكمام، نصفه العلوي أسود وأنيق مع تنّورة بيضاء واسعة ومنتفخة. تجمّع الطول الزائد من القماش حول قدميها اللتين انتعلت فيها حذاء أسود عالي الكعبين، لكن بخلاف ذلك بدت جاهزة لاستلام الأوسكار.

هذا باستثناء وجهها المنغلق والشارد. كانت على هذه الحال منذ وجبة الإفطار في منزل الجدّة قبل يومين، والتي انتهت فجأة عندما أعلنت الجدّة أنّها مصابة بصداع مفاجئ. اعتقدت أنّ التسوّق سيرفّه عن ميلي بالتأكيد، لكن يبدو أنّ الانزعاج لم يفارقها. كانت مؤدّبة، ولكنّها غير مهتمّة حقّاً.

قالت المالكة: "سنحتاج إلى تقصير الثوب بالطبع، ولكنّ الباقي مناسب تماماً". كان امرأة جذّابة في أواخر الثلاثينيات من عمرها، ذات شعر داكن وبشرة سمراء، ترتدي فستاناً

بسيطاً تعلوه عدّة قلائد. عند وصولنا، أغلقت المتجر، وراحت هي والعاملة المناوبة تعاملاننا كملكتين منذ ساعة تقريباً.

لم يسبق لي أن دخلت متجراً كهذا من قبل. كان داخله يتوهّج بضوء أبيض يجعل بشرة الجميع خالية من العيوب. كانت المقاعد من الجلد الكريمي، والمرايا فضّية معتّقة، والأرضية تشبه اللؤلؤ المضيء. انتشرت الأزهار الحمراء في كلّ مكان، وملأت الهواء برائحتها الناعمة. وكان التأثير العامّ كما لو أنّنا داخل صندوق مجوهرات مريح وباهظ الثمن.

"تبدين ساحرة". قلت ذلك لميلي من مقعدي بجانب المرآة. كنت جالسة هناك شبه مكوّرة منذ أن جرّبتُ ثوباً واحداً لم يناسبني على الإطلاق.

قالت المالكة: "أنا أوافقك. إذا أعجبك، يمكننا المباشرة في التعديلات حالاً".

قالت ميلي: "حسناً". لوّحت المالكة باتّجاه الجزء الأمامي من المتجر، فأتت إلينا العاملة مع خيّاطة خلفها. لم تكن هنا عندما وصلنا، ولذلك لا بدّ أنّه تمّ استدعاؤها خصّيصاً من أجلنا. انحنت الخيّاطة بجانب ميلي وبدأت تضع الدبابيس في حاشية الفستان بحركات سريعة وبارعة. وبدا أنّ الاهتمام أعاد الحياة إلى ميلي، التي وجّهت للمالكة ابتسامة حقيقية قائلة: "شكراً على كلّ شيء، لقد أعجبني الثوب".

قالت المالكة: "أنا واثقة أنّه سيعجب والدتك".

سألتها ميلي: "هل تقصدين جدّتي؟".

"حسناً، نعم، آمل ذلك، ولكنّه سيعجب أمّك أيضاً. فقد عرفتُ أليسون قليلاً في الماضي. كنت أصغر من أن أرافق آل ستوري، ولكنّ أختي كانت ودودة معهم جميعاً".

ألقيت نظرة على واجهة المتجر، الذي كُتبت عليه عبارة متجر كايلا بأحرف سوداء صارخة فوق مكتب المحاسبة. سألتُها: "هل أنت كايلا؟".

لاح شيء من الحزن على وجهها وهي تجيب: "كلّا، أنا أونا. كانت كايلا أختي، لكنّها توفّيت عندما كنتُ في الثانوية. لذلك، عندما فتحت هذا المتجر، أطلقت اسمها عليه".

"أنا آسفة". قلنا ذلك أنا وميلي معاً، وشعرتُ أنّ وجهي توهّج. ما من أحد غيري قادر على تحويل رحلة تسوّق فاخرة إلى جلسة كئيبة.

ابتسمت أونا ابتسامة مطمئنة، وأجابت: "شكراً لكما. لقد مضى وقت طويل على ذلك. لكنّني أذكر أهاليكم جيّداً. كانت أليسون جميلة جدّاً، وآدم، حسناً-" أفلتت منها ضحكة ناعمة. كانت للنسخة المراهقة من والدي هذا التأثير على الجميع. "كان آدم حالماً جدّاً، في زماني".

لمرّة واحدة، لم أرغب في سماع شيء عن أبي. سألتها: "هل تعرفين آرتشر أيضاً؟".

كان قد مرّ يومان على تناولنا الإفطار في منزل الجدّة، ولم نسمع شيئاً من العمّ آرتشر. لم يذهب إلى العمل في المنتجع أيضاً، وبدأت أتساءل عمّا إذا كان قد رحل بمجرّد أن افتضاح أمره. جعلتني هذه الفكرة أشعر بالفراغ وعدم الاستقرار، كما لو أنّني فقدت شيئاً قبل أن أعرف أنّني حصلت عليه. ما زلت أتذكّر النسخة الأصغر من عمّي وهو جالس وسط بحر من الليغو معي منذ سنوات، يبحث بصبر عن قبّعة شرطي بعد أن سئم والدي من بكائي لأنّني أضعتها. يومذاك، قال العمّ آرتشر: "القبّعة الصحيحة مهمّة، سنبحث عنها إلى أن نجدها". وقد وجدناها في النهاية.

أجابت أونا: "بالطبع كنت أعرف آرتشر". كانت خفيفة الظلّ وحسنة المعشر، كما لو أنّ الجزيرة بأكملها ليست قدراً يغلي بالشائعات عنه. "كان دائماً شخصاً ودوداً مع سكّان جزيرة النورس، كما لو أنّه واحد منّا. بقينا على اتّصال على مرّ السنين. فهو رجل ودود على الرغم من بعض..." تردّدت أونا قليلاً قبل أن تنهي جملتها قائلة: "التحدّيات".

سألتُها: "هل تعرفين عمّنا آندرز أيضاً؟".

"نعم بالتأكيد، أفضل من أيّ منهم. فقد كانت كايلا تواعده من وقت إلى آخر خلال دراستها الثانوية، وكان هو في الجامعة". نظرنا أنا وميلي إلى بعضنا البعض باستغراب، فضحكت أونا بحزن. "لا أعتقد أنّ جدّتكما وافقت على علاقتهما يوماً".

سألتها: "وماذا عنك؟"، فرفعت أونا حاجبها باستغراب. "أعني، هل أحببته كصديق؟" كان العمّ آندرز لا يزال لغزاً بالنسبة إليّ، عمّي الذي لا أعرف عنه سوى القليل.

هزّت أونا كتفيها مجيبة: "لقد كان حاداً جدّاً"، قالت ذلك بينما كانت الخيّاطة تنهض واقفة. أصبحت تنّورة ميلي بمستوى حذائها، فوافقت أونا على الطول بإيماءة من رأسها. "إنّه ممتاز. ليندا، هلّا ساعدتِ ميلي على خلع الثوب لكي نتمكّن من تعديله؟".

قادت العاملة ميلي من المنصّة إلى غرفة تبديل الملابس. أمّا الخيّاطة، فذهبت إلى واجهة المتجر، وتركتني بمفردي مع أونا. فرفعت حاجبها المرسوم بشكل مثالي مع ابتسامة لطيفة وقالت: "أنت لست مرتاحة تماماً مع هذه المسألة بقدر ابنة عمّتك، أليس كذلك؟".

شرد نظري نحو كومة الأقمشة على الكرسيّ المجاور لي. بدت بريئة جدّاً الآن، ولا تشبه إطلاقاً الوحش الوردي الذي جرّبته. "الأثواب لا تبدو جميلة عليّ".

"هذا كلام فارغ". خفضت أونا صوتها وأمالت رأسها نحوي قائلة: "ليندا لا تزال جديدة نسبيّاً، وهي لم تتقن بعد فنّ اختيار الفستان المناسب. كان هذا اللون الوردي رائعاً عليك لكن لديّ شيء مختلف في ذهني. لماذا لا تدخلين غرفة تبديل الملابس وتدعيني أحضره لك؟". أومأتُ برأسي بفتور، ولكنّها توجّهت مسرعة نحو أحد الأرفف. قالت من خلف كتفها: "اخلعي كلّ شيء باستثناء ملابسك الداخلية! سأعود حالاً!".

هذا هو الجانب السلبي من التسوّق الشخصي - الانعدام التامّ للخصوصيّة.

خلف الستارة، خلعت قميصي وسروالي القصير وقد تملّكتني الرهبة. ستبدو ميلي رائعة الجمال في الحفل. وسيبدو جونا بالغ الوسامة بلا شكّ بالبدلة الرسمية التي يقوم بشرائها من متجر في الشارع نفسه. أمّا أنا فسأكون الأقلّ أناقة بينهم وسأجعل الجميع يتهامسون قائلين، أهي حقّاً من آل ستوري؟

"ها قد عدت!" ظهرت أونا مجدّداً مع ثوب ملفوف على ذراعها. كان بلون أزرق فاتح جميل، لكنّني لمحت عليه بعض الخرز و... لا أدري. كلّما كان الثوب أكثر بساطة، كان ذلك أفضل، عادة. لكنّ أونا علّقت الثوب على خطّاف على الحائط وبدأت بفتح سحّاب الظهر بثقة تامّة. "ما رأيك؟".

قلت بتردّد: "إنّه جميل". أردت أن أصرفها عن اللحظة التي سأضطرّ فيها إلى حشو نفسي في ما يبدو وكأنّه عمود من القماش لا يرحم، فأضفت: "قلتِ إنّ عمّي آندرز كان حادّاً. ماذا قصدت بذلك؟" عبست وهي تنظر إليّ في المرآة بينما أضفت: "أنا لم أره منذ سنوات، وبالكاد أذكره".

"في الواقع". خلعت أونا الثوب الأزرق من العلّاقة، وتركت قماشه الحريري يمرّ

على يديها. "مرّ وقت طويل، بالطبع. ما أذكّره حقّاً، أنّ كلّ شيء كان دراميّاً للغاية. فقد انفصلا هو وكايلا كثيراً، وفي كلّ مرّة كانت كايلا تقسم أنّها لن تعود إليه مجدّداً، ثمّ لا تلبث أن تعود. كان من الصعب في تلك الأيّام مقاومة شابّ من آل ستوري". شرد نظرها قليلاً وهي تتابع: "كانت كايلا قروية في أعماقها، وأعتقد أنّها كانت تعلم أنّها لن تتمكّن من مواكبة آندرز في العالم الحقيقي".

في تلك اللحظة، شعرتُ بالاستياء لأنّني جعلتها تتحدّث عن أختها من جديد، فقلت: "أنا آسفة، ما كان ينبغي أن أفتح الموضوع".

ربّتت على كتفي قائلة: "حقّاً، لا بأس يا أوبري. لقد مرّت أربعة وعشرون عاماً منذ وفاة كايلا، وأنا أستمتع بالحديث عنها". عندئذٍ انتابتني قشعريرة. فمنذ أربعة وعشرين عاماً كان عام 1997، وهو العام الذي حُرم فيه والدي وإخوته من الميراث. ذاك هو الوقت الذي بدأ فيه كلّ شيء يتّخذ منحىً خاطئاً. لم أفكّر في شاطئ كاتر أو كاتي منذ مدّة، أو بذاك السطر الغريب في روايته، ولكن أدهشني الدافع المفاجئ لسؤال أونا عمّا إذا كان قد حدث لكايلا شيء ما هناك. غير أنّني لم أتمكّن من حمل نفسي على بذلك. فالحديث عن صديق أختها السابق شيء، وتذكّر الطريقة التي ماتت بها أختها شيء آخر.

على أيّ حال، كانت أونا تناولني الثوب الأزرق بتعبير حازم قائلة: "سيبدو هذا مذهلاً عليك".

"لا يمكن أن يكون أسوأ من الأوّل".

قالت أونا وهي تحمل الثوب أمامي: "لم يكن ذاك مناسباً لك. ارتدي هذا من فضلك، أنت تتمتّعين بأجمل ذراعين وكتفين، ونريد إظهارها".

لم أتحرّك. "حقّاً؟".

"بالطبع!".

طويت ذراعيّ فوق حمّالة الصدر الرياضية الباهتة. "لكنّني أكره كتفيّ نوعاً ما، وذراعيّ أيضاً. حتّى إنّني ارتديت ثوباً طويل الكمّين في حفلة التخرّج".

قالت أونا وهي تهزّ الثوب: "يا لها من خسارة! هيّا، ضعيه عليك".

نفّذت طلبها وأمسكتُ بمرفقها للتوازن. "قال لي صديقي يومذاك إنّني أبدو مثل طفلة تتظاهر أنّها بملابس رسمية". لا أدري لماذا أخبرتها بذلك للتوّ، بخلاف أنّ الحميمة المزيّفة للموقف جعلتني أبوح بخصوصيّاتي على نحو غريب.

عقدت أونا حاجبيها السوداوين قائلة: "لا يبدو أنّه يستحقّ وقتك حقّاً". شدّت الثوب فوق ردفيّ، ثمّ رفعَت طرفه العلوي ليغطّي صدري. "اخلعي حمّالة الصدر هذه، فأنت بحاجة إلى حمّالة من دون أشرطة مع هذه الياقة. لدينا كثير من حمّالات الصدر الجميلة التي ستناسبك تماماً".

"امهم، حسناً". من جديد، فعلتُ ما طُلب منّي. كدت أشعر بضرورة الدفاع عن توماس، إلّا أنّها على حقّ، فهو لم يكن يستحقّ وقتي حقّاً. قلت وهي تغلق سحّاب الظهر: "أعتقد أنّه يمكن اعتباره حبيباً سابقاً، أعني أنّنا انفصلنا".

"حقّاً؟".

"حسناً، منذ مدّة لم يجب على أيّ من رسائلي. والآن، لم أعد أجيب على رسائله، لذا...".

تردّدتُ، فتابعَت قائلة: "أهكذا تجري الأمور هذه الأيّام؟ يا إلهي، أنا أتعاطف معكم أيّها الشباب، فالحياة معقّدة في العصر الرقمي. ولكن لا يبدو أنّه الصيد الذي تستحقّينه. و-ها أنت ذا!" مرّرت يديها على وركيّ وابتسمَت قائلة: "انظري إلى نفسك! أنت رائعة!".

حدّقتُ إلى صورتي، ولم أر سوى كتفين تملآن المرآة أمامي. قال لي توماس ذات مرّة، إنّهما أعرض من كتفيه. وعلى الرغم من كلّ الوقت الذي أمضيته في الشمس، ما زلت شاحبة، وما زالت بشرة ذراعيّ مكسوّة بالنمش الأبيض وصولاً إلى الوحمة الملوّنة بلون النبيذ. كان هذا الثوب يغطّي من جسدي مساحة أكبر بكثير من ملابس السباحة التي أرتديها للمباريات، بالطبع، ولكن عندما أكون بملابس السباحة، لا أفكّر بمظهري، فهي عمليّة وحسب. وخزتني عيناي مع الحرج الذي اجتاحني، وتمنّيت لو كان لديّ شيء ما ألفّ نفسي به، كسترة مثلاً. قلت مربكة: "أنا لا- أعتقد أنّه يكشف الكثير من الأعلى".

"أوه، كلّا على الإطلاق يا عزيزتي. فالجزء العلوي من جسدك رائع. أنت تشبهين نساء اللوحات اليونانية القديمة! سنقوم بعقد شعرك، ونزيّن أذنيك بقرطين متدلّيين، وستصبحين بذلك جميلة الحفلة".

"بل ابنة عمّتي التي ستكون كذلك". لم أكن أشعر بالغيرة، بل كانت مجرّد حقيقة.

ربّتت أونا على ذراعي قائلة: "ابنة عمّتك جميلة، وكذلك أنت. وأيّ شخص لا يرى ذلك لا يستحقّ وقتك".

حاولتُ أن أرى الثوب بعينيها. كان لونه رائعاً بالتأكيد، ولم يكن مزوّداً سوى بخطّ مطرّز واحد من الخرز يمتدّ على كتفي الأيمن إلى أسفل الصدر. كان فستاناً ضيّقاً، وهذا

ما كنت أتجنّب ارتداءه عادة، لكنّ القماش غنيّ، من نوع الحرير الثقيل على ما أعتقد، بحيث يناسب جسدي على نحو أفضل بكثير من فستان الحفلة الراقصة الرخيص.

قالت أونا: "أنت بحاجة إلى الأكسسوارات المناسبة". ثمّ نادت: "ليندا؟ هلّا أحضرتِ زوجاً من أقراط الياقوت المتدلية؟ وأحد دبابيس الشعر المزيّنة باللؤلؤ التي أحضرناها للتوّ. دعينا نحاول إعادة إنشاء الشكل النهائي على أفضل نحو ممكن".

قلت: "أذناي ليستا مثقوبتين".

"ليندا! أحضري أقراط مشبك!".

رحتُ أتأمّل نفسي في تلك الأثناء. اعتاد والدي على القول، لن تصبحي سبّاحة إذا قررتِ أن تحذي حذو آل ستوري. فوالدتي وأختي لم تتمتّعا بقوّة ذراعيك. كانتا رقيقتين للغاية. ولطالما اعتبرت كلامه إهانة خفيّة، وربّما كانت كذلك. كانت تذكيراً غير مباشر بأنّ آل ستوري مميّزون، ونادرون، وثمينون جدّاً بالنسبة إلى هذا العالم. لكنّني سئمت من سماع صوت أبي، وصوت توماس يتردّدان في رأسي كلّما نظرتُ إلى المرآة، لا بل كلّما فعلتُ أيّ شيء. وربّما حان الوقت لأبدأ بالإصغاء إلى شخص آخر.

التقت نظراتي بنظرات عينيّ أونا الداكنتين وهي تلفّ ذراعها حول ذراعي وتشدّ برفق. "أنا لن أعطيك رأياً خاطئاً يا أوبري، أعدك. هذا الثوب أكثر من جميل عليك".

ما زلت أكره صورتي على المرآة، ولكن كلّما نظرتُ إليها، شعرت وكأنّني أنظر إلى مرآة تعكس صورة مشوّهة غير حقيقية. ولا أعرف كيف أرى أبعد منها بعد، لكنّني أريد أن أحاول.

قلت لأونا: "سآخذه".

الفصل الخامس عشر

جونا

وصلنا مبكرين جدّاً إلى جنازة د. باكستر يوم الأربعاء، وذلك بفضل أوبري التي أصرّت على المغادرة قبل ساعة. استغرق منّا الوصول إلى وسط المدينة دقيقتين، ولم يكن مسموحاً لأيّ شخص بدخول الكنيسة بعد. لذلك قادتنا أوبري، ونحن نتعرّق بملابسنا الرسمية، إلى مكتبة جزيرة النورس المكيّفة على بعد عدّة مبانٍ.

"كان بإمكاننا الذهاب إلى مكان يقدّم القهوة"، تمتمت ميلي بذلك وهي تلقي بحقيبتها على طاولة فارغة. كانت ترتدي فستاناً أسود أنيقاً وكعباً عالياً، وكان شعرها مشدوداً إلى الخلف في ذيل حصان مرتفع. ارتدت أوبري الفستان نفسه الذي ذهبت فيه إلى إفطار يوم الأحد. أمّا أنا، فلم أحضر شيئاً مناسباً من أجل جنازة، واضطررت إلى استعارة قميص بأزرار وسروال من إفرام. كان السروال قصيراً جدّاً والقميص ضيّقاً جدّاً. وكلّما حرّكتُ ذراعيّ، شعرت أنّ أحد الأزرار على وشك أن يُنتزع من مكانه.

قالت أوبري: "أريد أن أبحث عن شيء ما"، وراحت تتفحّص الغرفة إلى أن وقع نظرها على صفّ من الشاشات الكبيرة. "هل تعلمان أنّ الأعداد السابقة من مجلّة النورس متاحة على الإنترنت منذ عام 2006 فقط؟".

"لا أعلم ولا أكترث"، قالت ميلي في الوقت نفسه الذي قلت فيه: "نعم".

أمالت أوبري رأسها إليّ، فهززت كتفيّ قائلاً: "لقد استخدمت موقعهم على الشبكة لإجراء بحث عن أسرتكم قبل مغادرتي. لكن لم يكن ثمّة الكثير عن أهاليكم خلال الخمسة عشر عاماً الماضية".

أومأت أوبري برأسها قائلة: "هذا صحيح. ولذلك أنا بحاجة إلى آلة ميكروفيلم". توجّهت إلى الشاشات، وتبعناها أنا وميلي بشيء من الاستغراب.

سألتها: "ماذا؟".

أجابت أوبري وهي تعلّق حزام حقيبتها على كرسيّ أمام أقرب شاشة: "ميكروفيلم، إنّه مثل صور المقالات الصحفية القديمة".

سألتها: "أهي داخل تلك الآلة؟". فقد بدت لي أشبه بكمبيوتر من ثمانينيات القرن الماضي.

ضحكت وفتحت الدرج الأوسط لخزانة ملفات شاهقة. "لا، بل هي مخزّنة على بكرات هنا، وعليّ تحميل البكرة على الجهاز لقراءتها".

"وكيف تعرفين كلّ ذلك؟"، طرحت ميلي سؤالها باللهجة الحادّة ونفاد الصبر نفسيهما اللذين يسودان نبرتها منذ إفطار يوم الأحد مع مع ميلدريد ستوري.

راحت أوبري تبحث بين صفوف من العلب الصغيرة المحشورة في خزانة الملفّات. "لقد بحثتُ عن ذلك على موقع المكتبة على الإنترنت ليلة أمس".

"حسناً، ولكن لماذا؟". كانت أوبري تستخرج إحدى العلب. فتحتها، ثمّ سحبَت

بكرة بلاستيكية زرقاء بحجم راحة يدها.

سألَتها: "هل تذكرين ما قالته أونا في متجر كايلا؟". لو كانت تتحدّث اليونانية في هذه اللحظة، لما تغيّر شيء لأنّني لم أكن أفهم نصف ما تقوله. لكنّ ميلي أومأت برأسها موافقة. التفتت إليّ أوبري لتشرح. "أونا هي امرأة كانت أختها تواعد العمّ آندرز، ولم تعجب الجدّة، وتوفّيت منذ أربعة وعشرين عاماً، وهذا..." صمتت للحظة وعبست، إلى أن حدّدت المكان الذي تعلّق فيه البكرة.

فأنهت ميلي الجملة عنها وشردت فجأة. "هو التاريخ الذي حُرم فيه أهلنا من الميراث".

سألتهما: "ما قصّة متجر كايلا؟"، فأشارت إليّ ميلي لأصبر بينما كانت أوبري تضع أحد طرفي الفيلم في فتحة أسفل سطح زجاجي على الآلة. ضغطت أوبري على زرّ، ممّا تسبّب في دوران البكرة الزرقاء، وأضاءت الشاشة بالصفحة الأولى من أحد أعداد عام 1997 من مجلّة النورس.

سألتهما بينما كانت أوبري تدير قرصاً لعرض صفحة مختلفة: "إذاً ماذا تعتقدان؟ أنّ هذه الأحداث مترابطة؟".

أجابت: "لا أدري، ولكنّني أشعر بالفضول حيال ما حدث. هذه الأعداد من نوفمبر، أي قبل شهر من استلام أهالينا رسالة هذا ما جنته أيديكم". خيّم علينا الصمت لبضع دقائق بينما كانت أوبري تدير البكرة، وتتعاقب أمام أعيننا أسابيع من صفحات المجلّة. قالت أخيراً، وهي تضغط على زرّ لعكس الفيلم: "لا أرى شيئاً". عندما عاد الفيلم بأكمله إلى البكرة، أزالته من الجهاز وأعادته إلى علبته.

كان عقلي في مكان آخر بينما كانت صفحات المجلّة تمرّ أمامنا، فسألتهما: "هل تذكران ذلك اليوم الذي ذهبنا فيه إلى منزل د. باكستر؟ كلّ تلك الأشياء التي قالتها هيزل؟".

التوى فم ميلي وهي تجيب: "كنت أحاول أن أنسى، لكن نعم".

"أنا آسف. لكن هل تعلمان أنّ د. باكستر كاد أن يسقط فوق الطاولة؟" أومأت أوبري برأسها بشرود لأنّها كانت تعيد العلبة إلى خزانة الملفّات وتُخرج علبة أخرى. "لقد فعل ذلك عمداً".

توقّفت أوبري وهي تسحب البكرة من العلبة وسألَت: "ماذا؟".

"لقد كان ينظر إليكما بعينين صافيتين تماماً، ثمّ قلتما شيئاً - لا أذكره - فضرب المنضدة بركبته وبدأ يتظاهر أنّه مشوّش".

وضعت ميلي يديها على خصرها عابسة. "لم تقل شيئاً عن ذلك من قبل".

"ظننت أنّ د. باكستر كان يقدّم لنا معروفاً"، قلت ذلك بينما بدأت أوبري بتحميل البكرة الزرقاء على آلة الميكروفيلم. "ظننت أنّه أراد إنقاذ الجميع من وضع محرج. لكن بعد ذلك تلقّى آرتشر تلك الرسالة، و- لا أعرف. ربّما كنّا نتحدّث عن شيء لا يريد لأحد أن يعرفه".

احمرّ وجه ميلي وقالت: "انظر، لا يمكن أن يكون ما قالته عن أمّي وإخوتها صحيحاً. هذا...".

قاطعتها أوبري: "ليس هذا ما كنّا نتحدّث عنه". كان نظرها على الشاشة وهي

تدير القرص لتحريك الصفحات.

قالت ميلي بإصرار: "بلى".

"في البداية، نعم، لكنّ د. باكستر لم يفعل شيئاً حتّى قلت، أنا أفضّل التصديق أنّهم أقدموا جميعاً على قتل شخص ما من سماع قصّة كهذه".

خيّم صمت طويل، ولم أستطع التفكير في ردّ جيّد - كنت قد نسيت ذلك تماماً حتّى هذه اللحظة - ولم يتحدّث أحد حتّى قالت أوبري: "ها هو. 22 ديسمبر 1997". حرّكت قرصاً لتكبير الشاشة التي ظهر عليها العنوان: امرأة من المنطقة تلقى حتفها في حادث مأساوي. انحنينا أنا وميلي من فوق كتفها لقراءة بقيّة المقال.

تكلّمت ميلي أوّلاً بصوت نمّ عن الارتياح: "لقد كان حادث سيّارة". بحسب المقال، غادرت كايلا دوغاس، التي كانت آنذاك في الحادية والعشرين من عمرها، حانة في وسط المدينة ذات ليلة، وقادت سيّارتها ثمّ ارتطمت بإحدى الأشجار على بعد نصف ميل من شاطئ كاتي. وأظهر التشريح أنّ مستوى الكحول في الدم كان يتجاوز بقليل الحدّ القانوني. "كانت بمفردها".

تمتمت أوبري، ونظرها على الشاشة: "لكن بالقرب من شاطئ كاتي".

قالت ميلي: "والدك هو الوحيد الذي يتحدّث عن ذلك. وحادث السيّارة لم يقع على الشاطئ بل بالقرب منه. تمّ ذكره فقط للدلالة على الموقع، هذا كلّ شيء".

"همم". كانت أوبري لا تزال تحدّق إلى المقال. "مذكور هنا أنّ د. باكستر كان الطبيب الفاحص بعد الحادثة".

قالت ميلي بحدّة: "هذا طبيعي، فنحن نتحدّث عن جزيرة النورس. ربّما كان الطبيب الوحيد هنا".

نظرت إليها أوبري أخيراً بجبين عابس: "هل أنت... غاضبة من شيء ما؟".

"أنا فقط - ما المقصود من كلّ ذلك؟" سألتها ميلي، وهي تشير بيدها إلى خزانة الملفّات وآلة الميكروفيلم. "ما الذي تحاولين إثباته؟ أنّ أهلنا قتلوا فتاة، ولهذا السبب طردتهم ميلدريد من الجزيرة؟".

رفّت أوبري بعينيها مجيبة: "إنّني أحاول فقط فهم ما حدث".

"ولماذا لا تسألين ميلدريد؟ بما أنّكما تتّفقان جيّداً أنتما الاثنتان".

"نحن لا-"

قاطعتُها قائلاً: "سنتأخّر، الجنازة تبدأ بعد خمس عشرة دقيقة". فهذا الحديث يتّخذ منحى سيّئاً، ولقد أمضينا وقتاً طويلاً هنا.

قالت ميلي: "سأنتظر في الخارج". ثمّ استدارت نحو الباب، وشعرها يتمايل خلفها.

شاهدتها أوبري وهي تذهب، وبدا على وجهها الاستياء والإرباك. "ما خطبها؟".

"هيّا، أنت تعلمين". لطالما ظننت أنّ أوبري منسجمة مع الآخرين، ولا سيّما مع ميلي، ولكنّها راحت تحدّق إليّ باستغراب إلى أن قلت: "لقد تجاهلتها جدّتك تماماً طوال يوم الأحد، وقضت كلّ الوقت في التحدّث إلينا أنا وأنت. وهذا ما جعل ميلي تشعر وكأنّها نكرة".

"هل هي من قالت لك ذلك؟".

"ليس عليها أن تفعل".

أصرّت أوبري: "لكنّ ميلي لا تكترث لأمر الجدّة! حتّى إنّها لا تملك لها اسماً تناديها به".

"أهذا ما تظنّينه حقّاً؟ هل تعتقدين أنّ ميلي تضع تلك الساعة كلّ يوم لأنّها لا تكترث لأمر جدّتها؟ ولأنّها لا تريد لجدّتها أن تهتمّ بها؟".

"هذه..." عضّت أوبري على شفتها وتضاربت المشاعر على وجهها. "هذه هي ميلي. إنّها أساساً أفضل حفيدة، وأفضل من ينتمي إلى آل ستوري بيننا. حسناً، أنت لست محسوباً، لا أقصد الإهانة".

"لا تقلقي".

"لكنّ جي تي رهيب وأنا... لا أحد اعتقد يوماً أنّني أشبه أبي. أمّا ميلي فهي جميلة وساحرة وأنيقة-"

أنهيت الجمله عنها قائلاً: "ولا شيء من هذا مهمّ بالنسبة إلى ميلدريد".

بدا الانزعاج على وجه أوبري. "يا إلهي. كان من الواضح أنّه ثمّة ما يكدّرها ونحن نشتري الأثواب، لكنّني لم أنتبه إلى أن قلتَ لي ذلك. لقد تجاهلت الجدّة ميلي فعلاً". لوت ذراعها قائلة: "أمّا أنا فكنت سعيدة لأنّني شعرت أنّها تحبّني، ولم أعتقد يوماً أنّها ستفعل".

"هذا ليس ذنبك. كلّما رأيت جدّتكم، يزداد اعتقادي أنّ جي تي ربّما كان على حقّ طوال الوقت. فهي تحبّ التلاعب بالآخرين". كدت أضيف ما كنت أفكّر فيه منذ يوم

الأحد، أنّ ميلدريد ليست مهتمّة بنا بقدر اهتمامها بآدم وآندرز. فكلّ أسئلتها كانت مجرّد وسيلة ملتوية لإجبارنا على التحدّث عنهما. لكنّ أوبري لم تكن بحاجة إلى سماع ذلك، فهي تعتقد أساساً أنّها لن تكون يوماً مهمّة بقدر والدها. بدلاً من ذلك، أشارت إلى الساعة المعلّقة على الحائط. "انظري، علينا حقّاً الخروج من هنا. فأنا لم أذهب إلى جنازة منذ فترة، لكنّني متأكّد أنّه من المعيب أن نصل متأخّرين". مددت يدي إلى الآلة لأبدأ عمليّة إعادة اللفّ، لكنّ أوبري أوقفتني.

"مهلاً، أريد طباعة هذه الصفحة".

انتظرتُ بفارغ الصبر، بينما استغرقت الآلة نحو عشر دقائق لطبع صفحة واحدة. كانت ميلي قد ذهبت عندما خرجنا وشعرت بالأسف لأنّني بقيت مع أوبري بدلاً من اللحاق بها. قطعنا مسافة قصيرة إلى الكنيسة، وبدونا متنافرين بملابسنا الرسمية بين كلّ السيّاح. عندما وصلنا إلى كنيسة سانت ماري، استقبلنا وجه مألوف ذو شعر فضّي عند الباب.

قال دونالد كامدن: "كم هو لطف منكم المجيء".

لم أكن قد رأيت الرجل منذ أن حاول رشوتنا بوظائف في السينما. ويبدو أساساً أنّ ذلك حدث منذ أشهر. بدا أكبر سنّاً وأكثر إرهاقاً ممّا كان عليه في الغداء في ذلك اليوم، وظهرت حول عينيه جيوب لا أذكر أنّني رأيتها حينذاك.

نظرت إليه أوبري كما لو كان سراباً وسألَت: "ألم نتأخّر؟". نظر إليها دونالد باستغراب فأضافت: "أعني، ظننت أنّك ستكون في الداخل أساساً، مع جدّتنا أو شيء من هذا القبيل. فالجنازة تبدأ عند الساعة الحادية عشر، أليس كذلك؟" كانت تثرثر عن غير

وعي الآن، والاحمرار يغزو وجهها، لكنّ دونالد اكتفى بمدّ ذراعه.

"أنا مُضيف، فقد كان فريد باكستر أحد أقدم وأعزّ أصدقائي". بدت العبارة وكأنّها صدى، واستغرق الأمر دقيقة لأتذكّر أين سمعتها آخر مرّة. على درجات كاتمينت هاوس، من فم تيريزا. فريد باكستر كان أحد أقدم وأعزّ أصدقاء جدّتكم.

إذاً كانوا اثنين، هذا ما فكّرت فيه بينما أخذت أوبري ذارع دونالد.

ألقَت نظرة عبر الباب المفتوح. "أعتقد أنّ ميلي وصلت أساساً...".

"بالفعل، أجلستها في آخر صفّ مقاعد مزدحم. وقالت إنّها بمفردها".

قالت أوبري: "حسناً"، وبدا التوتّر على فمها. دخلنا ردهة الكنيسة وعبرنا الممرّ المركزي. كنّا أقرب بكثيرٍ إلى الجزء الأمامي ممّا ظننت بعد وصولنا في هذا الوقت المتأخّر. كان الأورغ يُعزف بصوت خافت في الخلفية، لكنّ صدى خطواتنا بقي عالياً. استدارت فتاة في المقعد الأوّل عندما سمعَت الصوت، وعرفتُ أنّها هيزل باكستر كليمنت. فأومأتُ برأسي إيماءة تعاطف، فيما ابتسمَت بضعف. أخيراً، توقّف دونالد وأشار إلى مقعد جلس عليه أربعة أشخاص يرتدون ملابس سوداء، فتنحّوا يميناً لإفساح المجال لنا.

همست أوبري وهي تترك ذراعه: "شكراً، وأنا آسفة، أنا آسفة حقّاً لأنّك خسرتَ صديقك".

قال دونالد بصوت خافت ووجه جدّي: "إنّه في سلام الآن. وفي النهاية، هذا أقصى ما يطلبه كلّ منّا، أليس كذلك؟".

أليسون، 18 عاماً

يوليو 1996

قيّمت أليسون نفسها في مرآة غرفة نومها. بدت أفضل ممّا كانت عليه منذ مدّة، ولكن، جميع النساء تقريباً يبدين أفضل مظهراً في أثواب السهرة والألماس. كانت قلقة بشأن ارتداء اللون الأبيض وهي بهذا الشحوب، ولكنّ شيئاً ما في هذا اللون تحديداً - اللون الأبيض المتلألئ المائل إلى الزرقة، كلون الثلج على سطح بحيرة متجمدّة - أعاد الحياة إلى خدّيها.

لم تواجه أيّ مشكلة في إغلاق سحّاب الثوب، وقالت لنفسها على الفور، أترين؟ لم تكسبي أيّ وزن. لا يمكن أن تكوني حاملاً. ثمّ ذكّرها دماغها الخائن أنّ دورتها الشهرية تأخّرت لأسابيع، وأنّ معدتها لا تكفّ عن التشنّج مع غثيان غير مألوف.

مع ذلك، لم تعرف على وجه اليقين. فاختبار الحمل الذي سرقته من صيدلية ماغ ما زال بغلافه تحت كومة من السترات الصوفية في خزانتها. كانت تنوي حضور الحفل الصيفي الليلة، وبعد ذلك، ستجري الاختبار أخيراً.

على الأرجح.

"دق دق!" أتاها صوت مرح عند الباب، صاحبه طرق عالٍ على الباب. "هل

يمكنني الدخول؟".

"نعم، تفضّل". فُتح الباب، وأطلّ آرتشر مرتدياً بدلة رسمية، وربطة عنقه محلولة. ابتسم عندما رآها.

"كم تبدين رائعة، جميلة هذه الألماسات. احزري ماذا وجدت!". دخل آرتشر وأغلق الباب خلفه، ملوّحاً بزجاجة خضراء وذهبية بيده. "لقد انفصل دوم بيرينيون عن أصدقائه".

عبست أليسون، واجتاح معدتها غثيان بات مألوفاً الآن لدى التفكير في أيّ شراب كحولي. "ألا يمكنك الانتظار حتّى نصل إلى هناك؟".

"أنت تعرفين ما يقال عن الحلم المؤجّل". وعندما لم تجبه أضاف: "إنّه يجفّ كالزبيب في الشمس. أو يفسد-"

أجابت أليسون بحدّة: "فهمت، لقد أخذتُ مادّة الإنشاء الإنكليزية مع السيّدة هيرمان أنا أيضاً، هل تذكر؟ كلّ ما أقوله إنّك ربّما تستطيع، لمرّة واحدة هذا الصيف، أن تضبط نفسك بما فيه الكفاية بحيث لا تجعل من نفسك أحمق، أو تفقد الوعي قبل منتصف الليل، أو كليهما".

قال آرتشر، وقد بدا مجروحاً: "أوه".

"لقد أمضت الوالدة وقتاً طويلاً في التخطيط للحفل، كما تعلم. إنّه عملياً الشيء الوحيد الذي جعلها سعيدة بعض الشيء هذا الصيف. فلماذا لا تحاول عدم إفساده؟".

"أنا لا أفسد شيئاً، ربّاه. في المرّة القادمة، تكفي عبارة كلّا شكراً". ألقى عليها آرتشر

نظرة لوم، فشعرت بالأسف على الفور. لم يكن لديها سبب لتهاجم أخاها الأصغر هكذا، ولا أيّ عذر سوى أنّها عبارة عن كتلة من الأعصاب المتوتّرة طوال اليوم. وهذا ليس خطأ آرتشر.

"أنا لم أقصد سوى-"، بدأت تتكلّم، ولكنّ آرتشر كان أساساً في منتصف الطريق عبر الباب.

"لا تهتمّي، لقد وصلت الرساله. أنا ودوم نعرف متى لا يكون مرغوباً بنا".

تنهّدت أليسون وتركته يذهب. لم تعرف ماذا تقول له على أيّ حال.

وضعت قليلاً من أحمر الشفاه بقدر ما تستطيع الاحتمال، ثمّ غادرت غرفة نومها وبدأت تسير في الرواق. كما هو الحال مؤخّراً، كانت تنجذب دوماً إلى باب اعتادت على تجنبّه. نقرت برفق على الإطار، فأتاها صوت آندرز العجول قائلاً: "ادخل".

كان قد ارتدى ملابسه بالكامل، باستثناء سترة التوكسيدو وربطة العنق التي كان يعمل عليها وهو واقف أمام مرآة طويلة أمام سريره. لفت انتباهه انعكاس أليسون، فرفع حاجبه ساخراً. "لمن أنا مدين بمتعة رفقتك؟".

أغلقت أليسون الباب وجلست على حافّة سرير آندرز. "أنا مضطربة وحسب".

سألها من دون مقدّمات: "هل أجريتِه؟".

لم يكن عليها أن تسأله عن قصده. "كلّا".

نظر إلى الأعلى بسأم وقال: "ربّاه، أليسون. على هذه الحال ستلدين قبل أن تدركي أنّه ثمّة مشكلة. أوه، تبّاً لربطة العنق هذه". حلّ آندرز العقدة وبدأ من جديد.

أرادت أليسون بشدّة أن تبوح لشخص ما بخوفها بشأن من الحمل، لكنّها لم تستطع إخبار أمّها أو آرتشر أو أيّاً من صديقاتها. تخيّلت لفترة وجيزة أنّه بإمكانها إخبار مات - ربّما يهاتفها أخيراً - لكنّ عزّة نفسها منعتها. وهذا ما تركها أمام خيارين: الاستمرار في كتم الأمر، أو إخبار آندرز.

آندرز، من بين كلّ الناس، الذي وُلد من دون مورّثة التعاطف. ولكن فكّرت أليسون أنّه قد يرتقي إلى مستوى الحدث إذا كانت المخاطر كبيرة بما فيه الكفاية.

قالت له: "أنا خائفة".

ضحك ساخراً وهو يشدّ ربطة عنقه. "لو كنت مكانك لخفت أنا أيضاً، إذا كنتُ على وشك إدخال جينات أسرة رايان في هذه العائلة. فمستوى ذكائنا الجماعي سينخفض إلى الحضيض". نظرت إليه أليسون لائمة، وقد احمرّ خدّاها بينما أضاف: "أنا لا أفهم لماذا استسلمتِ لهذا الشابّ أساساً".

سألته: "أهذا كلّ ما لديك لقوله؟".

هزّ كتفيه مجيباً: "قومي بإجراء هذا الاختبار اللعين، ثمّ اهتمّي بالمشكلة. ولا تكوني بهذا الغباء في المرّة القادمة عندما يبدي لك أحد القرويين بعض الاهتمام".

حسناً، لن يرتقي حتماً إلى مستوى الحدث. أجابت أليسون بحدّة: "هل أنت من يتحدّث، يا آندرز ستوري الجبّار. فليس على كايلا سوى أن تهزّ إصبعها الصغير حتّى تأتي إليها راكضاً".

أنهى آندرز عقد ربطة العنق ومرّر يده من خلال شعره. كان شعره كالأشواك، ولا

يشبه بشيء الشعر المموّج الكثيف الذي يتمتّع به كلّ من آدم وآرتشر. "أنا لا أركض إلى أيّ مكان، بل أستمتع وحسب. وقد تمكّنتُ من القيام بذلك من دون إيذاء أيّ شخص، لذا، يمكنك تعلّم بعض الدروس".

"وهل كان الأمر ممتعاً عندما هجرتك كايلا من أجل مات؟" عرفت أليسون أنّ كلماتها قد أصابت الهدف أخيراً عندما وقف آندرز ساكناً، وضاقت عيناه وهو ينظر إلى صورته في المرآة. أدرك جزء من دماغها أنّه عليها أن تتوقّف عن الكلام، لكنّ جزءاً آخر كان في غاية السعادة لأنّه شعر بالسوء بقدرها، وإن لمدّة دقيقة وحسب. "ومن المحتمل أن تعيد الكرّة، كما تعلم، فقد رأيتهما يتغازلان أكثر من مرّة هذا الصيف. هذا مثير للسخرية، هاه؟ لدينا كلّ هذا-" وأشارت بيدها إلى أرجاء غرفة آندرز الواسعة متابعة: "ولكن يبدو أنّ الشيء الوحيد الذي يريده هذان الاثنان هو بعضهما البعض".

قال آندرز بهدوء: "ستكون هذه غلطة". ثمّ تناول سترته من على كرسيّ مكتبه وهزّ كتفيه مضيفاً: "والآن اخرجي من غرفتي حالاً".

أطاعته أليسون، وقد شعرت بالأسف لأنّها تركت لسانها يسبقها. سيكون من الصعب التعاطي مع آندرز لبقيّة الليلة. عادت إلى غرفتها وأغلقت الباب، ومدّت يدها تحت كومة السترات الصوفية في خزانة ملابسها والتي أخفت تحتها اختبار الحمل. فتحَت العلبة وأخرجت القطعة البلاستيكية من الداخل.

النتائج في خمس دقائق!

قبل أن تفكّر في ما تفعله، توجّهت إلى حمّامها حاملة الاختبار بيدها. لم يكن من السهل التبوّل بثوب السهرة، ولكنّ ذلك لم يكن مستحيلاً. بعد ذلك وضعت الاختبار على

ظهر المرحاض وغسلت يديها وانتظرت.

بالكاد مرّت دقيقة قبل أن يظهر الخطّ الثاني، قويّاً وداكناً كالأوّل. ترنّحت أليسون، ولم يعد بإمكانها احتواء الغثيان الذي عذّبها لأسابيع. فتقيّأت بصوت عالٍ في المرحاض، مراراً وتكراراً حتّى آلمها جنباها وحلقها.

عندما هدأت معدتها أخيراً، سحبت دافق المرحاض، بعد ذلك، أخذت اختبار الحمل ولفّته في طبقات سميكة من المناديل الورقية، ثمّ رمته في سلّة المهملات. شعرت بالدوار، فتناولت معجون الأسنان والفرشاة وغسلت أسنانها لثلاث دقائق. وبعد أن غرغرت بغسول الفم، أعادت وضع ملمّع الشفاه، وسوّت شعرها وقلادتها.

لم تكن لديها رفاهية الانهيار. فقد حان الوقت تقريباً للمغادرة لحضور الحفل الصيفي، وعرفت أليسون الصورة العائلية التي أرادت والدتها عرضها للناس: ما زالت في حداد على أبراهام ستوري، بالطبع، لكنّها قوية ومتّحدة والمستقبل المشرق يمتدّ إلى ما لا نهاية أمام أفرادها. لا خائفة، ولا مرفوضة، ولا تشعر بالمرارة، وبالتأكيد غير حامل.

شقّت أليسون طريقها عبر الدرج الملتفّ وصولاً إلى الردهة، وفيها احتفظت الأمّ بجميع تحفها الفنّية المفضّلة. وقف رجل أمام أحدث تمثال برونزي، ورأسه مائل كما لو كان يحاول معرفة ماهيّته. عرفت أليسون محامي الأمّ، دونالد كامدن، حتّى قبل أن يلتفت لدى سماعه خطواتها وهي تقترب.

قالت أليسون، وهي ترفع تنّورتها لنزول الدرجات الأخيرة: "إنّها أمّ مع أطفالها. لقد أحضرتها الوالدة من باريس".

"تتمتّع والدتك بذوق مثير للاهتمام". قال دونالد ذلك بنبرة دبلوماسية، ثمّ أعاد

نظره إلى المنحوتة. "مع أنّه عليّ الاعتراف أنّني لا أرى عائلة هنا".

فكّرت أليسون أنّ هذا ليس مستغرباً. فقد كان دونالد كامدن عازباً كلاسيكياً لمدى الحياة، وهو على الأرجح لا يرى عائلات في أيّ مكان. "هل سترافق الوالدة هذا المساء؟".

أجاب دونالد وهو ينحني قليلاً: "سيكون لديّ هذا الشرف، نعم". زمّت أليسون شفتيها أمام موجة أخرى من الغثيان، انقضت سريعاً لحسن الحظّ. منحته أفضل ابتسامة لديها قائلة: "نحن نتطلّع جميعاً إلى هذه الليلة".

قال دونالد بنبرة رسمية: "تماماً كما ينبغي. فأسرة ستوري لا تتألّق بقدر ما تفعل خلال حفل الصيف".

الفصل السادس عشر

ميلي

لم أستطع المقاومة. بمجرّد أن أصبحتُ جاهزة لحضور الحفل الصيفي، مرتدية فستاناً مناسباً تماماً لمقاسي وألماساً مستعاراً - ألماساً حقيقياً، بحقّ السماء - أرسلت لوالدتي صورة لي. وكتبت: في طريقي إلى الحفل.

أتى ردّها فورياً. أوه، ميلي، هذا رائع! تبدين جميلة! كيف حال الوالدة؟

حدّقت إلى شاشتي لبرهة قبل أن أجيب، إذ كان هذا سؤالاً كبيراً. فاكتفيتُ بالردّ، لم تتح لنا الفرصة للتحدّث بعد.

أجابت أمّي، أخبريني كلّ شيء بمجرّد أن تفعلي!

حسناً. دسست الهاتف في جيب فستاني. كان هذا الفستان من أكثر الملابس التي ارتديتها في حياتي عمليّة، ليس فقط لأنّه جميل ويناسبني للغاية، ولكن لأنّه يحتوي على جيبين عميقين يتّسعان لهاتف وأحمر شفاه من دون إفساد شكل التنّورة.

عادت أوبري من الحمّام، بعد أن اصطحبتها بريتاني، التي تعمل كخادمة ليلية، إلى هناك لوضع الماكياج لأنّ الإضاءة أفضل. لم أكن متأكّدة ممّا أتوقّعه، نظراً لأنّ بريتاني من أشدّ المعجبين بالعيون الدخانية والشفاه الجريئة، لكنّها استخدمت أدوات الزينة بشكل

خفيف مع أوبري - مجرّد ماسكارا، وقليل من أحمر الخدود الوردي، وملمّع للشفاه. كان ذلك مثالياً، لكنّ عيني أوبري كانتا مليئتين بالشكوك عندما نظرت إليّ. سألتني: "أهذا أكثر ممّا ينبغي؟".

"كلّا على الإطلاق". ثمّ تنبّهتُ بعد ذلك، كمن تلقّى لكمة على بطنه، أنّه كان ينبغي أن أكون أنا من يضع مكياج أوبري. كان عليّ أن أعرض ذلك في متجر كايلا، بعدما رأيت مدى عدم ارتياحها للعمليّة برمّتها. لكنّني لم أفعل، لأنّني كنت لا أزال مستاءة ممّا حدث خلال الإفطار لدى ميلدريد.

جعلني ذلك حادّة الطباع طوال الأسبوع، بينما كانت أوبري دفاعية، ونشأت بيننا الآن فجوة لا يبدو أنّني أستطيع إغلاقها. على الرغم من أنّني أريد ذلك، أكثر بكثير ممّا أريد أن أكون الحفيدة المفضّلة لميلدريد. هذا يشبه التفّاح السامّ في قصّة "بياض الثلج"، الهديّة التي تُمنح بحقد بحيث أندم على الفور على قبولها.

لماذا إذاً ما زلت أتألّم لأنّني لا أستطيع الحصول عليها؟

طردتُ الفكرة بعيداً وقلت لأوبري: "كم تبدين جميلة".

فابتسمت بحياء، وقالت: "وأنت أيضاً. هل أنت جاهزة؟".

"تماماً".

شعرت برغبة مفاجئة للإمساك بيدها، والتخلّص من كلّ التوتر الذي سيطر على علاقتنا الأسبوع الماضي والعودة إلى العمل كفريق. لا أعرف كيف سيتجاوز كلّ منّا هذه الليلة، فما بالك ببقيّة الصيف. لكن قبل أن أتمكّن من ذلك، تناولت أوبري حقيبة يد من

خزانة ملابسها واندفعت إلى الردهة.

كان جونا قد غادر أساساً. فقد أخبرنا كارسون فاين هذا الصباح أنّ ميلدريد ستُرسل سيّارة مختلفة هذه الليلة - تتّسع لأثواب السهرة ولا تتسبّب في تجعيدها - ولكنّها لا تستوعب سوى شخصين في المقعد الخلفي. شرح قائلاً: "ستُضطرون للذهاب بشكل منفصل. أوبري وميلي بسيّارة، وجونا بسيّارة أخرى".

سأل جونا: "ولماذا لا أستخدم المقعد الأمامي؟".

بدا كارسون مذعوراً. "هذا لا يجوز".

كان الأمر برمّته مثيراً للسخرية، لا سيّما باعتبار أنّ المساكن تقع على بعد خمس دقائق سيراً على الأقدام من المنتجع. لكن كلّ ما تريده ميلدريد تحصل عليه. لذلك، عندما شققنا طريقنا أنا وأوبري إلى الخارج، كانت ثمّة سيارة برّاقة متوقّفة أمامنا مباشرة، مع سائق بالزيّ الكامل - بما في ذلك القفّاز الأبيض - يفتح لنا الباب الخلفي. قال: "آنسة ستوري، آنسة ستوري-تاكاهاشي"، وهو يومئ برأسه لكلّ منّا. "مساء الخير".

كتمتُ ضحكة غير لائقة، ثمّ أجبته وأنا أدخل للجلوس على مقعدي: "مساء الخير". انبعثت من السيّارة رائحة لا تصدّق، أشبه بمزيج من روائح الجلد باهظ الثمن وغابات الشتاء. أمامي، كان ثمّة منضدة وضع عليها كأسان باردان من الشمبانيا. سوّيتُ تنّورتي حولي بينما كان السائق يغلق الباب، ثمّ يرافق أوبري لتدخل من الجانب الآخر من السيّارة.

عندما تأكّدت من أنّ تنّورتي لن تتجعّد، تناولت أحد كوبَي الشمبانيا وأخذت منه رشفة طويلة. فمن الوقاحة عدم القيام بذلك.

خفضت أوبري رأسها بعناية وجلست على المقعد بجانبي، لكنّها ذُهلت عندما رأت كأسي. سألتني: "هل تعتقدين أنّها فكرة جيّدة؟".

أعلم - أعلم جيّداً - أنّها تسأل فقط بسبب توتّرها من هذه الليلة. ليس لأنّها تحكم عليّ، أو تعتقد أنّها أفضل منّي، أو أيّ من الأفكار غير الحسنة التي بدأت تدور في رأسي. غير أنّني خفضتُ الكأس قبل أن أجيب ببرود: "أعتقد أنّها فكرة رائعة".

"ميلي". بدا وجهها المنفتح والمليء بالمنمش مضطرباً. "أنا أكره هذا".

سألتها: "ماذا تكرهين؟"، مع أنّني أعرف تماماً ما تعنيه، لأنّني أكرهه أنا أيضاً. لكن بطريقة ما، فإنّ الاستياء نفسه الذي كان يعكّر علاقتنا طوال الأسبوع جعلني أميل رأسي وأستمتع ببقيّة الشراب. قلت وأنا أضع كأسي الفارغ بجانب كأس أوبري الممتلئ: "امرحي. من المفترض أن نكون ذاهبتان إلى حفلة". ثمّ رأيت عينيها تترقرقان بالدموع.

شعرت وكأنّني تلقّيت لكمة أخرى على معدتي، وهذه المرّة أمسكتُ بيدها. قلت بإلحاح: "لا تبكي". كان ثمّة عشرات الأشياء التي ينبغي أن أقولها بعد ذلك، ولكن كلّ ما استطعت قوله كان: "ستتسبّبين بسيلان الماسكارا".

شهقت أوبري قائلة: "أنا لا أهتمّ لأمر الماسكارا".

قال السائق بصوت هادئ: "لقد وصلنا". التفتُّ للنظر من النافذة ولاحظت أنّنا نتوقّف على المساحة العشبية أمام الباب الجانبي للمنتجع. لقد استغرقت الرحلة فعليّاً تسعين ثانية.

همست لأوبري: "أنا آسفة"، لكن كان هذا كلّ ما استطعت قوله قبل أن يُفتح

بابي وأجد أمامي دونالد كامدن بكلّ مجده ببدلته الرسمية وشعره الفضّي.

"مساء الخير سيّدتاي، أنا مرافقكما إلى الحفل". ساعدنا هو والسائق للترجّل من السيّارة، ثمّ سار بيننا دونالد وتوجّهنا إلى الداخل. لم نستطع التحدّث، باستثناء الإجابة على أسئلته المهذّبة ونحن نشقّ طريقنا عبر المنتجع، مع أنّني كنت أشعر بالقلق من النقطة التي وصلت إليها الأمور في السيارة.

قال دونالد وهو يتوقّف أمام القاعة: "ها قد وصلنا". كانت الغرفة تضجّ بالموسيقى، والضحك، والناس الذين يرتدون الملابس الجميلة، تنيرها الثريّات الكريستالية المتلألئة التي جعلت السجّاد المعلّق على الجدران يتوهّج بلون ذهبي غنيّ. احتلّت فرقة موسيقية رباعية مسرحاً صغيراً في الوسط أمام النوافذ، بينما توزّعت الطاولات الدائرية بمسافات متساوية من أحد جوانب القاعة الواسعة. للحظة، شعرت بمعنويّاتي ترتفع، فأنا أحبّ الحفلات حقّاً، إلى أن قال دونالد: "لقد طلبَت جدّتكما أن أحضركم واحداً تلو الآخر لكي تتمكّن من التحدّث مع كلّ منكم على انفراد قبل العشاء. وهي تودّ أن تبدأ معك يا أوبري".

هذا طبيعي. ابتلعتُ الكلمات، لكنّ أوبري رأتها على وجهي على أيّ حال. قالت: "ربّما ينبغي أن تذهب ميلي أوّلاً". قلت بتوتّر: "كلّا، لا بأس"، وأفلتُّ ذراع دونالد مضيفة: "سأختلط بالحضور".

قالت بتعاسة: "ميلي-"، لكنّ دونالد كان يقودها أساساً نحو الطاولة الرئيسة. تناولتُ كأساً من الشمبانيا من خادم عابر وأخذت رشفة أطول بكثير ممّا توصي به الآداب. ثمّ شققتُ طريقي داخل القاعة.

الحفل الصيفي. كنت أعتقد أنّه حدث سحري، يشكّل ذروة التألّق المطلقة. لطالما أحببت التفرّج على صور والدتي في ثوبها الأبيض، وتخيّلت نفسي مكانها. والآن ها أنا هنا أخيراً، وكلّ ما تمنّيته ألّا تكون قد أمضت تلك الليلة ببؤس بقدري أنا الآن.

"مرحباً، ميلي". أجفلني الصوت الهادئ الذي أتى من جانبي، فاستدرت لأرى هيزل باكستر كليمنت وهي تبدو متعبة وبلا حيوية في ثوب بلون النبيذ. كان شعرها الداكن مجموعاً على أعلى رأسها، وتحمل كأساً ممتلئاً من الشمبانيا.

"هيزل، أوه يا إلهي". أمسكتُ بيدها الحرّة وقلت: "أنا آسفة لأنّني لم أستطع التحدّث إليك في الجنازة". كان الدفن الذي تمّ بعد القدّاس محصوراً بالعائلة. "كما أنّني آسفة بشأن جدّك. لقد كان رجلاً لطيفاً حقّاً".

"شكراً لك. أظنّ أنّ الشيء الجيّد أنّه عاش حياة طويلة. لكنّ حالة الخرف كانت تزداد سوءاً، ولذلك..." تنهّدَت مضيفة: "تقول أمّي ربّما كانت نعمة لأنّه لم يضطرّ للمرور بالمراحل المتأخّرة من تلك الحالة. لا أدري. أتمنّى لو أنّه مات في نومه، أو على نحو أكثر سلاماً".

لم يخطر ببالي شيء مريح أقوله في المقابل، لأنّها على حقّ. فلا شكّ أنّ غرق الإنسان في غابة خلف منزله هو ميتة مروّعة. أخيراً قلت: "أعلم أنّني قابلته مرّتين فقط، لكنّني رأيت كم كان فخوراً بك. وقد اهتممتِ به جيّداً".

أصبح تعبيرها أكثر قتامة. "أنا لست أدري. لقد تركته يخرج بمفرده في ذلك الصباح، وما كان ينبغي أن أفعل ذلك. لكنّه كان يقضي يوماً من أفضل أيّامه، وقال إنّه ينوي مقابلة صديق، ولذلك...".

شعرتُ بوخز في مؤخّر عنقي. "هل تعرفين من كان؟".

"كلّا، أتمنّى لو أنّني عرفت. لم يأت أحد، ولكان من الجيّد أن أعرف كيف أمضى صباحه الأخير".

صمتُّ وأنا أفكّر في رسالة د. باكستر إلى الخال آرتشر. ثمّة أمور كان يجب أن أخبرك بها منذ فترة طويلة. "هل ذكر جدك، امم، خالي آرتشر مؤخّراً؟".

رفّت هيزل عينيها قائلة: "أتعنين احتمال عودته إلى البلدة؟". عاد إليها شيء من حيويتها وهي تضيف: "هل عاد حقّاً؟ فالناس يصرّون على أنهم رأوه يوم الجمعة الماضي، ولكنّ أحداً لم يره منذ ذلك الحين. ولست متأكّدة ممّا إذا كان جدّي يعلم، فهو لم يقل شيئاً قطّ. هل رأيتموه أنتم؟ أعني آرتشر".

تردّدتُ في الإجابة. فقد مرّ أكثر من أسبوع منذ أن تحدّثنا مع الخال آرتشر، وأوبري مقتنعة أنّه غادر الجزيرة. توقّفنا عند الكوخ عدّة مرّات، لكنّ النوافذ كانت مغلقة ولم يردّ أحد على الباب. لذلك ربّما تكون على حقّ، وما من ضرر لإشباع فضول هيزل، لا سيّما بعد الأسبوع الذي أمضته. "لقد رأيناه. كان يقيم في كوخ صغير خلف منزل صديقه روب فالنتاين، ولكن-"

"حبيبتي". ظهرت امرأة بجانب هيزل، وبدت كما لو أنّها هيزل في منتصف العمر. "يرغب أحد زملاء جدّك من أيّام كلية الطبّ في مقابلتك. إنّه جالس إلى طاولة السيّدة ستوري. هل يمكنني اصطحابك إلى هناك قليلاً؟" التفتت المرأة إليّ، وعلت وجهها ابتسامة اعتذار، ثمّ تألّقت عيناها بالتقدير. "آه يا إلهي، بالحديث عن آل ستوري، لا بدّ أنّك ميلي. أنا كاثرين باكستر، والدة هيزل. لقد رأيت صورة جميلة لك ولقريبَيك وأنتم تغادرون جنازة

والدي في مجلّة النورس".

قلت وأنا أصافح يدها الممدودة: "نعم، مرحباً. يسرّني التعرّف إليك، وأنا آسفة على خسارتك".

"شكراً لك، أنا أقدّر تعاطفك. لم أقصد المقاطعة-"

"لا بأس إطلاقاً". قلت ذلك وقد أسعدني الهروب. أنا أحبّ هيزل، ولكن ثمّة ما فيه الكفاية من الشائعات التي تدور حول الخال آرتشر، وما من داعٍ لأضيف إليها المزيد. أساساً، ربّما ما كان يجدر بي البوح بما قلت، لذلك يبدو أنّه الوقت المناسب للحدّ من الخسائر والهرب. "عليّ أن أعثر على قريبَيّ، على أيّ حال. بالطبع، سأراكما لاحقاً".

انطلقتُ مبتعدة، وكدت أصطدم بنادل يحمل زجاجة شمبانيا. أمال الزجاجة نحو كأسي شبه الفارغ، وقال: "هل أملأ كأسك آنستي؟". لم أجب على الفور، محاولة أن أحسب عدد الكؤوس التي شربتها أساساً، إلّا أنّه صبّ الشراب على أيّ حال.

حسناً، لم يكن بيدي حيلة. شربتُ الفقاعات وواصلت الحركة، وعيناي تتجوّلان عبر حشد الناس بملابسهم الأنيقة. رأيت أمامي مباشرة رأساً أشقر مألوفاً: ريد تشيلتون، زميل في برنامج الطوهي وابن سناتور. لم تكن لديّ أيّ رغبة في التحدّث إليه، لذلك استدرت على عقبيّ وكدت أصطدم بشخص يسير ورائي مباشرة.

امتدّت يد لمساعدتي على التوازن. "أوه، أنا آسفة. كنت أحاول وحسب..." إنّه جونا، بكلّ وسامته بالبدلة الرسمية. اتّسعت عيناه دهشة وهو ينظر إليّ. لم يقل شيئاً للحظة، وراحت حنجرته تعلو وتنخفض بضع مرّات قبل أن يضيف أخيراً: "لقد نسيت ما كنت أحاول فعله، لأنّ - كلّ الدماء غادرت رأسي الآن". ازدرد لعابه مجدّداً وقال:

"تبدين رائعة يا ميلي".

شعرتُ بشيء دافئ يرفرف في صدري. "شكراً، وأنت كذلك". كنت صادقة، ربّما يرجع السبب إلى أنّ أفضل الخيّاطين في جزيرة النورس كان في خدمته طوال هذا الأسبوع، لكنّ جونا وُلد ليرتدي بدلة رسمية. كان شعره الداكن مسرّحاً بعيداً عن جبهته هذه المرّة، مع أنّني أحبّ مظهره الأشعث المعتاد، لكنّني لن أجادل كم أبرز طرازه الحالي زوايا وجهه. رفعت كأسي قبل أن آخذ رشفة أخرى. "هل جرّبت الشمبانيا؟".

"كلّا، بل شربت الكاكاو". رفعت حاجبي باستغراب بينما هزّ كتفيه مجيباً: "كان مصنوعاً من الشوكولاتة التي طلبوها من فرنسا وطحنوها يدوياً مع مزيج من القرفة وجوزة الطيب. وكذلك قليل من الفلفل الحارّ، على ما أعتقد؟ هذا ما يقوله كارسون على أيّ حال".

"وهل كان لذيذاً؟".

"أفضل كوب كاكاو تناولته في حياتي"، قال جونا ذلك بحماسة بحيث ابتسمت.

"ميلدريد تجيد إقامة الحفلات. لا بدّ لنا من الاعتراف لها بذلك". شعرت أنّني أسترخي للمرّة الأولى طوال الليلة، وضغطت بأناملي على كمّه بموجة مودّة مفاجئة. "أنا سعيدة لأنّك هنا".

ابتسم، وبدا سعيداً ومربكاً. "حسناً، كان عليّ ذلك، صحيح؟ إنّها أوامر ميلدريد".

"أعلم، لكنّني لا أعني هنا فقط، بل أعني عموماً، على الجزيرة". بدا جونا غير أكيد، ولا يمكنني أن ألومه. لم تكن أفكاري منظّمة بقدر ما وددت الآن. "ما أحاول قوله

أنّني سعيدة لأنّني قابلتك".

بمجرد خروج الكلمات من فمي، احمرّ وجهي من الحرج. هذا ليس من نوع الكلام الذي أقوله عادة، مع أنّني لست آسفة، بالضبط، لأنني أعنيه... من المحتمل أنّ الكأس الثالث من الشمبانيا كان غلطة.

لانت عينا جونا البنّيتان الداكنتان. "أنا سعيد لأنّني قابلتك أيضاً، سعيد حقّاً". لعق شفتيه، وانتابتني رغبة مفاجئة في تتبّع الحركة بإصبعي. حسناً، كوب الشمبانيا الثالث كان غلطة بالتأكيد. مع ذلك، فإنّ هذا الإدراك لم يمنعني من الاستيلاء على كأس رابع عندما مرّ النادل. تحوّلت نظرات جونا إلى كأسي، وشدّ أطراف كمّيه وهو يضيف: "المسألة أنّ..."

"ها أنت ذا!" قاطعنا صوت من خلفنا. "بحثت عنك في كلّ مكان، يا ميلي. مرحباً جونا". كان تشيلتون، وكان يضع ربطة عنق كبيرة جدّاً ويرسم ابتسامة متملّقة على وجهه. فربطة العنق كبيرة الحجم على شكل فراشة كانت رائجة هذا العام، بحسب مجلّة جي كيو، وقد كرهت نفسي نوعاً ما لمعرفتي ذلك. إنّه من نوع المعلومات غير المجدية التي كنت أجمعها لسنوات، بانتظار فرصة لإبهار جدّتي. لقد ذهب تعبي سدى.

سألني ريد عابساً: "ماذا؟". كان جونا هو الآخر ينظر إليّ بغرابة، فأدركت أنّني قلت ذلك الجزء الأخير بصوت عالٍ.

قلت: "تعجبني ربطة عنقك".

من الواضح أنّني لم أقل ذلك، لكن كان كلاهما مؤدّباً للغاية بحيث لم يعارضاني. قال ريد: "شكراً لك. ولكن لا أحد في هذه الغرفة يمكن أن يتّفق معك".

قلت في نفسي، أوه، تبّاً. ثمّ تجمّدت. هل قلت ذلك بصوت عالٍ أيضاً؟ لكنّ ريد كان لا يزال يبتسم إليّ، وبالتالي لم أفعل على الأرجح. "أعتقد أنّنا سنجلس إلى طاولة العشاء نفسها هذه الليلة. فوالدتي هنا كضيفة لجدّتك. ربّما سمعتِ عنها، السناتور جنفييف تشيلتون؟ ديمقراطية من ماساتشوستس".

قلت: "والدتي ديمقراطية من نيويورك، لكنّها ليست سناتوراً، وليست هنا".

تمتم جونا بشيء ما بصوت خافت بدا مثل أمورك على ما يرام بينما ابتسم ريد ابتسامة متوتّرة قائلاً: "تاريخ أسرتك مذهل".

لم أكن أنوي تناول مزيد من الشمبانيا، ولكن بطريقة ما - أفرغ الكأس الذي كنت أحمله بيدي نفسه بينما كان ريد يتحدّث. أردت أن ألومه على طول نفسه. قلت: "باختصار"، وكنت أنوي أن أرفق كلامي بضحكة خفيفة منمّقة، ولكنّها خرجت على شكل شخير، الأمر الذي جعلني أضحك أكثر. حدّق إليّ ريد عابساً، بينما أمسك جونا بمرفقي.

قال جونا: "كنّا ننوي أنا وابنة عمّتي الخروج لاستنشاق بعض الهواء النقيّ". كنت لا أزال أضحك، من كان يعلم أنّ ريد مضحك إلى هذا الحدّ؟ "الجوّ حارّ حقّاً هنا. هل أنت جاهزة يا ميلي؟".

قلت: "بلا شكّ"، أردت أن أتكلّم بنبرة ملكية ولكنّني فشلت عندما عجزت عن لفظ الشين.

قال ريد: "أراك على العشاء".

"ليس إذا رأيتك أوّلاً"، وضحكت قبل أن يسحبني جونا بعيداً.

سألني بهدوء: "كم كأساً شربتِ؟".

أكثر ممّا ينبغي. أصبح ذلك واضحاً مع تمايل الغرفة من حولي. كنت معتادة على ارتشاف الشراب مع أصدقائي على مدار ساعتين - وليس تناول أربع كؤوس من الشمبانيا على معدة فارغة. أم أنّها كانت خمس؟

همست: "لا يهمّ، فميلدريد تكرهني أساساً".

"هي لا تكرهك".

"بلى. إنّها تحبّ أوبري أكثر منّي. وتحبّك أنت أكثر منّي، علماً أنّه-" طعنتُ صدره بإصبعي للتأكيد: "لا تربطك بها صلة قرابة حتّى".

تمتم جونا: "هسّ". رافقني حول مجموعة صغيرة من نسخ دونالد كامدن، جميعهم ذوو شعر فضّي وخدود حمراء، يقهقهون بطريقة لطيفة وهم يحملون كؤساً تحتوي على سائل كهرماني. كدت أشير إلى ذلك قائلة، انظر إلى كلّ أولئك الدونالدات! لكنّ جونا كان لا يزال يتحدّث. "ميلي، لا تسمحي لها بالتأثير عليك بهذا الشكل. أنا لا أعتقد أنّ جدّتك امرأة طيّبة حقّاً. ربّما كانت في الماضي، ولكنّها لم تعد كذلك".

كنّا أمام ستارة ذهبية كبيرة الآن، وعندما فتحها جونا، وجدنا باباً فرنسياً خلفها. فتح جونا الباب و... أوه، ما أحلى الهواء المنعش. خرجنا إلى شرفة حجرية، وعندما أغلق جونا الباب خلفنا، أصبحنا نتمتّع بأكبر قدر من الخصوصية في حفلة صيفية.

اتّكأت على درابزين الشرفة، ودفعت شعري إلى الخلف بيد غير ثابتة. كانت ليلة صافية، وبدت النجوم منخفضة ومشرقة تحت سماء زرقاء مخملية. سألته: "هل تمضي وقتاً

ممتعاً في حفلة جدّتي المهمّة للغاية؟".

سألني جونا: "وماذا عنك؟".

"أنا أمضي وقتاً رائعاً"، ثمّ عضضت على شفتي لكي لا أضحك مجدّداً. "ما كان ينقصني سوى فقدان تركيزي، والآن أُنجزت المهمّة".

قال جونا على غير اقتناع: "أنت تحتاجين وحسب إلى بعض الهواء النقيّ".

استدرت لمواجهته، لكنّ الحركة جعلت الشرفة تدور، فمددت يدي لأقبض على الدرابزين، لكنّني لم أجده. غير أنّ جونا أمسك بذراعي قبل أن أسقط. قلت له بجدّية: "يجب أن تكون هذه الأرض... أكثر توازناً"، فهزّ رأسه موافقاً.

"كنت أفكّر في الشيء نفسه".

"إنّه فندق قديم، ويحتاج إلى التجديد".

تنحنح جونا قائلاً: "اسمعي، بما أنّنا حصلنا على دقيقة بمفردنا، ثمّة أمر أريد إخبارك به، يتعلّق بسبب وجودي هنا".

كنت لا أزال أشعر بشيء من الدوار، وبدا لي متوازناً على نحو مطمئن، لذلك أحطتُ رقبته بذراعيّ لأثبّت نفسي. كان ذلك أفضل بكثير. "هل من أجل إبقائي في وضع مستقيم؟".

"ليس تماماً". ضحك جونا قليلاً قبل أن يضيف: "لكن يسرّني القيام بذلك. المسألة..." تردّد ولعق شفتيه مجدّداً. هذه المرّة، استسلمت للدافع وسحبتُ إحدى يديّ من خلف عنقه لكي أتتبّع شفته السفلية بإصبعي. فتوتّر، لكنّه لم يبتعد. "أنت تصعّبين

عليّ التركيز".

قلت: "أنت تتحدّث كثيراً"، ثمّ اقتربت وعانقته بخفّة.

تراجعت قليلاً لرؤية الدهشة على عينيه ثمّ فقدتُ تركيزي قليلاً عندما احتضن وجهي بيديه وجذبني نحوه. تمتم: "حسناً، لقد حاولت"، ثمّ عانقني. لقد أردتُ ذلك بالطبع، لأنّني أنا من بدأه، لكنّني لم أفهم حتّى هذه اللحظة إلى أيّ حدّ أردته.

"أوه يا إلهي!".

كان الصوت الذي قاطعنا عالياً ومصدوماً، وفي اللحظة التي استغرقها ابتعادنا عن بعضنا أنا وجونا، استعدتُ وعيي تماماً. ظلّ ينظر إليّ، ورأيت سؤالي ينعكس على وجهه: ماذا فعلنا؟

أتى الجواب سريعاً. التفتُّ لأرى دونالد كامدن يحدّق إلينا، ووجه أوبري الأحمر بجانبه. كانت الستارة التي مررنا عبرها مدفوعة جانباً، والباب الفرنسي المؤدّي إلى الشرفة مفتوحاً، وكلّ الواقفين خلف دونالد - وكانوا كثراً - يحدّقون إلينا.

بمن فيهم جدّتي.

الفصل السابع عشر

أوبري

لم يسبق لي قطّ أن رأيت حطام قطار في الحياة الواقعية، لكنّني فهمت هذه الاستعارة أخيراً. فالنظر إلى ميلي وجونا لم يكن يُحتمل، لكنّني لم أستطع غضّ النظر أيضاً.

لا سيّما وأنّ هذا الوضع كان خطئي نوعاً ما.

كنت أعرف أنّ ميلي مستاءة عندما أخذني دونالد إلى طاولة الجدّة. وطوال الوقت الذي تحدّثنا فيه، حاولت أن أراقب ميلي وهي تتنقّل في أرجاء القاعة، ولكنّها ظلّت تغيب عن عيني. وكانت آخر لمحة لها وهي تختفي على الشرفة مع جونا. لذلك عندما طلبَت الجدّة من دونالد إحضار جونا، قلت، لقد خرج إلى الشرفة للتوّ، أنا سأحضره. فأجابت الجدّة، يبدو الهواء النقيّ لطيفاً، سننضمّ إليكما أنا ودونالد.

وها نحن ذا.

عليّ أن أقول شيئاً. لست متأكّدة من ماهيّته، ولكنّ أيّ شيء سيكون أفضل من الصمت المروّع لمائتي ضيف باللباس الرسمي يعتقدون أنّهم قبضوا للتوّ على قريبين من الدرجة الأولى غائبَين منذ مدّة طويلة وهما في وضع مشبوه. في الواقع، سيكون هذا هو الوقت المثالي للتوضيح أنّهما ليسا قريبين. لكنّني لا أملك أيّ فكرة عن كيفيّة فتح حديث

كهذا، وقبل أن أبدأ، تكلّمت الجدّة.

قالت ببرود: "أفترض أنّ هذا ما يأتي من عدم الاستماع إلى حدسي. لم يكن أهاليكم سوى خيبات أمل، وأنتم مثلهم تماماً". اجتاحت الحرارة خدّاي أمام هذا البيان الشامل بينما ضاقت عيناها وهي تنظر إلى جونا قائلة: "لا ينبغي أن أفاجأ من أن يكون ابن آندرز فاسد تماماً".

بدا الغضب في عينيّ جونا لدى ذكر اسم العمّ آندرز، وكان يبدو كما لو أنّه في حالة ضبابية منذ أن ابتعدا عن بعضهما هو وميلي. خيّم على وجهه تعبير ينمّ عن الكراهية الشديدة وهو يبتعد عن ميلي ويعبر الباب الفرنسي، متوقّفاً على مسافة بضعة أقدام من ميلدريد. قال بعد ذلك: "نعم، في الواقع، لديّ رسالة من آندرز". كان صوته منخفضاً وغاضباً، لكنّه كان مسموعاً بسهولة في أرجاء القاعة الصامتة. "إنّه يكره حدسك، ولطالما فعل".

تتالت شهقات الصدمة عبر القاعة بينما تحوّل وجه الجدّة إلى اللون الأرجواني المرقّط. حدّقتُ إلى جونا بدهشة وإرباك، ظنّاً منّي أنّني أخطأت السمع. لماذا بحقّ السماء يجعل من هذا الوضع المروّع أكثر سوءاً؟ تنفّس دونالد بحدّة بجانبي، وبدا كما لو أنّه يريد أن يدفع جونا من على الشرفة.

الشرفة. كانت ميلي المسكينة لا تزال واقفة هناك بمفردها. وكنت على وشك أن أتجاوز دونالد وأذهب إليها عندما علا صوت آخر فوق الهمهمات المحيطة بنا.

"يا لها من كذبة خبيثة. ولكن ما الذي يمكن أن يتوقّعه المرء من دجّال".

التفتُّ إلى الصوت، لكنّني لم أستطع رؤية المتحدّث. تصلّبت الجدّة بجانبي

وتمسّكت بذراع دونالد، بينما اتّسعت عيناها وبدت مرعوبة تقريباً. قال لها بصوت منخفض: "اذهبي، سأهتمّ بهذا الأمر". فما كان من الجدّة إلّا أن غادرت. استدارت على عقبيها عائدة إلى طاولتها، بالسرعة التي يسمح بها ثوبها.

اخترق المتحدّث الحشد، وتوقّف عندما رأى دونالد. كان قصير القامة ونحيلاً ولكنّه لا يزال مهيباً على نحو غريب، ويشتعل بطاقة مكبوتة. كان شعره داكناً ووجهه نحيلاً يشبه النمس. عرفتُه على الفور.

قال بابتسامة متكلّفة وهو يدسّ يديه في جيوب بدلته الرسمية: "مرحباً، دونالد. تسرّني رؤيتك مجدّداً".

أجاب دونالد بصوت خشن: "ماذا تفعل هنا بحقّ الجحيم يا آندرز؟ من سمح لك بالدخول؟".

هزّ العم آندرز كتفيه ويداه ما زالتا في جيبيه وقال: "لم تعد التدابير الأمنية هنا كما كانت عليه من قبل. لكن يجب أن تشكرني، مع ذلك، لأنّني أضع الأمور في نصابها قبل أن تنهار هذه الغرفة بأكملها أمام فكرة سفاح القربى. هذا الولد"، وهزّ رأسه باتّجاه جونا متابعاً: "ليس ابني، بل هذا هو. جي تي!" رفع صوته، وتقدّم شخص آخر على مضض. حتّى من دون الاسم، كنت سأعرف ابن عمّي الفعلي في أيّ مكان. فقد كان نسخة عن والده، باستثناء ابتسامة متغطرسة، وكانت ملامحه الضيّقة مضغوطة في تعبير خفيّ وماكر. "دونالد، دعني أعرّفك على جونا ثيودور ستوري".

"تبّاً". قال شخص ما ذلك في أذني بصوت خافت، بينما سرت في القاعة ثرثرات حادّة ومنخفضة. استدرت لأرى بريتاني بجانبي في زيّ العمل، فأمسكتُ بذراعها. شعرتُ

بموجة من الامتنان عندما تواصلتُ مع أحدهم، لأنّ كلّ ما يحدث كان أشبه بحلم لدرجة أنّني ما كنت لأفاجأ لو أنّني أمسكتُ بالهواء. قالت: "جونا ليس جونا؟".

تمتمتُ مجيبة: "بل هو كذلك نوعاً ما. المسألة معقّدة".

"إذاً هو وميلي ليسا في الواقع..." بدأت بريتاني تهزّ برأسها ونظرها يتنقّل بين جونا وجي تي. "أصبح كلّ شيء أكثر منطقية الآن".

سأل دونالد: "ما الذي تقوله بالله عليك يا آندرز؟".

وضع العمّ آندرز يده على صدره قائلاً: "أنا؟ لا شيء على الإطلاق. لكنّني أخشى أنّكم وقعتم جميعاً ضحايا احتيال. ابني، جي تي، هو الوحيد الذي يتمتّع بالضمير بين أبناء الأسرة من الجيل التالي". بدأ ينتابني إحساس غريب في معدتي مع استمرار العمّ آندرز بالكلام: "أنا واثق من أنّكم تعتقدون أنّ والدتي هي التي دعت أحفادها إلى هنا، لكنّكم مخطئون. اسمحوا لي أن أشرح ما حدث بالفعل".

كان قد استحوذ على اهتمام القاعة بالكامل، فتنهّد قائلاً: "لقد تواصل أخي آرتشر مع الأولاد وعرض عليهم وظائف تحت ذرائع كاذبة، على أمل أن يعيد الأمور إلى مجاريها مع الوالدة. وكان جي تي الحفيد الوحيد الذي رفض القبول، ولذلك وجد آرتشر بديلاً له. لم تكن لديّ أيّ فكرة عمّا يحدث إلى أن رأيت صورة ابن جارنا في جنازة فريد باكستر. فسألتُ جي تي عمّا الذي يفعله جونا نورث مع قريبتيه بحقّ السماء؟ وعندئذ أدركنا ما يحدث".

أغمضتُ عينيَّ لثانية، والغضب يجتاح عروقي. لقد كشفَت مجلّة النورس أمرنا. كان علينا أن ندرك أنّ أهالينا سيراقبون الصحف المحلّية. وبمجرّد أن رأى العمّ آندرز

الصورة، لا بدّ أنّه عرف أنّ جي تي قد خدعه. ويمكنني أن أتخيّل مدى السرعة التي أخذ بها اعترافاً كاملاً من جي تي، ليس فقط بشأن تبديل الأدوار مع جونا، بل أيضاً حول كون العمّ آرتشر وراء الدعوة في الأساس. بعد ذلك، لم يكن عليه سوى أن يتّهمنا بمجموعة من الأكاذيب لإنقاذ نفسه والتصالح مع الجدّة.

ويبدو أنّ خطّته تنجح. فقد صدّق الحشد من حولنا أداء آندرز، وراهوا يتهامسون ويتمتمون وراء أيديهم.

تكلّم جونا أخيراً وبدا كأنّه يبصق كلماته: "أيّها الكاذب القذر، أنت تحاول التلاعب بالقاعة بأكملها، تماماً مثلما تلاعبت بوالديّ. ابنك هو الذي أرسلني إلى هنا و-"

قاطعه آندرز بابتسامة استطاع أن يجمع فيها مشاعر الألم والصبر: "حقّاً جونا، ارحل من دون أن تخسر عزّة نفسك. لا أحد هنا يصدّق كلمة ممّا تقول".

قلت: "إنّه على حق". تركتُ ذراع بريتاني وأمسكت بذراع دونالد كامدن، وهززتها لإجباره على النظر إليّ. "أعني، جونا نورث على حقّ. جي تي دفع له المال. ولم نكن نعلم أنّ العمّ آرتشر هو الذي أحضرنا إلى هنا إلّا في الأسبوع الماضي. كان..." حدّق إليّ دونالد بطريقة جعلتني أدرك أنّني جعلت الأمور أكثر سوءاً.

حوّل العمّ آندرز ابتسامته المتعالية إليّ، وقال: "حقّاً، أوبري؟ أنت أوبري، أليس كذلك؟ إذاً أنت تعترفين أنّكما كنتما تعلمان أنّ هذا الشابّ ليس قريبكما، وتعرفان أنّ آرتشر أحضركما إلى هنا، لكنّكما لم تفكّرا في إبلاغ جدّتكما؟ والآن تريدان أن يعتقد الناس أنّ ما أقوله ليس سوى كذبة؟ هيّا". ثمّ أصبح صوته ناعماً كالحرير وهو يقول: "أنا أفهم لماذا وافقتِ على ذلك، فوالدك قاسٍ، ومن الصعب جدّاً كسب حبّه، أليس كذلك؟".

امتصّ كلامه كلّ الهواء من رئتيّ. بطريقة ما، وعلى الرغم من أنّني لم أرَ العمّ آندرز منذ أن كنت طفلة، إلّا أنّه يعرف بالضبط على أيّ وتر يضرب. في هذه الأثناء، كان يستخدم كلّ الأوراق التي بيده لجعل نفسه هو وجي تي يبدوان بعيدَين عن اللوم، ونبدو نحن كأنّنا متواطئتان في التنقيب عن الذهب. والأسوأ أنّ ما يقترحه ليس أكثر سخافة ممّا حدث بالفعل.

سأل العمّ آندرز: "أين الوالدة؟". وتفحّص الحشد بعبوس، إلى أن أدرك أخيراً أنّ الجمهور يفتقد إلى أهمّ عضو فيه. "عليها أن تعرف أنّ لديها حفيداً واحداً على الأقلّ يقدّر الصدق والاحترام".

"حمداً لله، لقد غادرت والدتك قبل أن تضطرّ لسماع أيّ كلمة من هذه المهزلة. وأنا نفسي قد اكتفيت". قال دونالد ذلك، ثمّ رفع يده وطقطق بأصابعه. "لقد حان الوقت لتغادروا". ظهر فجأة رجال ببدلات سوداء وأمسكوا بذراعيّ العمّ آندرز. فاجتاح الغضب وجهه في حمرة عميقة.

صاح قائلاً: "ما خطبك يا دونالد؟ إنّني أنقذك".

قال دونالد لذوي البدلات: "وابنه أيضاً، والشابّ الآخر، أخرجوهم جميعاً من هنا".

فجأة حلّت الفوضى من حولنا، وساد الهرج والمرج. كان العمّ آندرز يقاوم الرجال الذين يجرّونه نحو المخرج، وهو يصيح بأعلى صوته: "هذا منزلي يا دونالد! وليس منزلك! منزلي!". ظهر مزيد من الرجال بالبدلات السوداء، وأحاطوا بجي تي وجونا وسحبوهم بعيداً، بينما راقبت ميلي ما يجري بتعبير جامد.

يا إلهي. ميلي.

كانت لا تزال على الشرفة. فمررتُ بصعوبة بين الحشد، وشققت طريقي عبر الباب الفرنسي إلى أن أصبحت بجانب ابنة عمّتي. بنظرة واحدة إلى عينيها الشاردتين، عرفتُ أنّ مزيج الصدمة والشمبانيا قد عطّل لسانها الحادّ. لولا ذلك، لردّت ميلي كلّ كلمة قالها العمّ آندرز. ولكن عندما شبكت أصابعي بأصابعها، حدّقَت إلى الأسفل كما لو كانت يدها أداة غريبة لم ترها من قبل.

قالت بصوت عميق: "كان يجب أن أعرف. كم أنا غبية".

"كلّا لستِ كذلك". أبعدتُ خصلة شعر عن وجهها وسألتها: "ماذا كان يجب أن تعرفي؟".

"أنّهما كانا والدا جونا".

"هاه؟" لم أفهم شيئاً. أعرف أنّ ميلي ليست بكامل وعيها قليلاً، لكنّني أريدها أن تركّز. "هل يمكنك أن تشرحي لي الأمور كما لو كنت في روضة أطفال؟".

ضغطت يدها على جبهتها، كما لو أنّ ذلك سيساعدها على استجماع أفكارها. "لقد قرأت مقالة في مجلّة بروفيدنس عن كلّ تلك الأسر التي خسرت المال بسبب مشورة العمّ آندرز المالية. وقال أحدهم إنّه أعلن إفلاسه، وهو... ربّاه. كان اسمه فرانك نورث. لكنّني لم أربط بينهما". أصبح وجهها أكثر قسوة وومضت عيناها بالظلال النارية المعتادة. "لأنّ جونا لم يخبرني، لم يخبرنا. طوال هذا الوقت، كنّا نقوم بحمايته، ولزمنا الصمت بشأن هويّته الحقيقية، ولم يكلّف نفسه عناء إخبارنا أنّه، وبالمناسبة، حاقد على عائلتنا".

"أووووه". الجملة التي قالها جونا تماماً مثلما تلاعبت بوالديّ، والتي مرّت من فوق رأسي في غمرة الفوضى عادت إليّ فجأة، وبدا سلوكه أكثر منطقية. لا عجب أنّه لا يطيق

سماع اسم آندرز. "إذاً هو يكره العمّ آندرز".

"وربّما يكرهنا نحن أيضاً". طوت ميلي ذراعيها بإحكام على صدرها مضيفة: "لقد كان يستخدمنا كستار. يشبكنا ببعضنا حتّى يتمكّن من فعل شيء كهذا، ويذلّ عائلتنا بأكملها. وقد منحتُه فرصة مثالية، أليس كذلك؟".

أجبت بسرعة: "كلّا. هو لا يفعل ذلك". لم تسجبني، فضغطتُ على ذراعها. "ميلي، اسمعي. حتّى لو كان جونا نذلاً كبيراً، وهذا أمر لا أعتقده، فهو ليس بارعاً في التمثيل. لقد كشفتِ أمره بسرعة، ألا تذكرين؟".

قالت ببلادة: "لم أستطع أن أرى ذلك".

أردت إيجاد الكلمات المناسبة لتهدئتها، لكن قبل أن أتمكّن من قول شيء، أطلّ دونالد كامدن من الباب، وعلى وجهه قناع من الغضب البارد.

"أنتما الاثنتان، عودا إلى المساكن. سأتكلّم معكما غداً".

الفصل الثامن عشر

جونا

من بين جميع السيناريوهات التي تخيّلتها لنهاية إقامتي في الجزيرة، لم أتخيّل رجلين يرتديان بدلات يقفان فوق رأسي في غرفة النوم بينما أقحم كلّ ما أملك في حقيبة الظهر.

قلت أخيراً: "هل أنا رهن الاعتقال؟".

ضحك صاحب البدلة رقم 1. كان كلاهما شابّان أشقران في العقد الثالث، لكنّه كان أطول وأعرض قامة. كان يحمل الحقيبة مع بدلة التوكسيدو المستأجرة، التي طلبا منّي تبديلها بمجرّد وصولنا إلى الغرفة. وعلى الأقلّ، انتظرا في الردهة في تلك أثناء. "نحن لسنا رجال شرطة أيّها الفتى، بل مرافقَين أمنيَين. ومهمّتنا إخراجك من أملاك المنتجع وإيصالك إلى فندق في وسط المدينة. لديك ليلة واحدة لإجراء الترتيبات مع أحد والديك أو الوصيّ المسؤول عنك. وتتوقّع السيّدة ستوري أن تصبح خارج الجزيرة بحلول عصر يوم غد". كانت نبرته رتيبة، تكاد تسبّب الملل وهو يضيف: "أمّا ما يحدث لك بعد ذلك فليس مشكلتنا".

أغلقتُ حقيبتي القماشية من دون أن أجيب، الأمر الذي اعتبره صاحب البدلة

رقم 2 إشارة ليستولي على ذراعي مجدّداً. قال: "حسناً، فلننطلق".

قلت باقتضاب وأنا أحرّر ذراعي: "أنا آتٍ، لكنّني بحاجة إلى إرسال رسالة نصّية، إذ يجب عليّ التواصل مع أحد والديّ أو الوصيّ، أليس كذلك؟".

لم يتغيّر تعبير وجهه الحيادي. "أسرِع إذاً".

دفعني نحو الباب وأغلقه خلفنا. أبهرتني الأضواء الساطعة في القاعة بعد ظلام غرفة النوم، فرففتُ عينيّ إلى أن تلاشت البقع الداكنة لأرى أمامي ستّة وجوه فضوليّة. فكلّ منتسب إلى برنامج الطوهي لا يعمل أو يحضر الحفل كان موجوداً في الردهة لمشاهدة مسيرة العار. لا شكّ في أنّ الأخبار تنتشر بسرعة في جزيرة لا يتعدّى طولها اثني عشر ميلاً.

قال زميل ريد تشيلتون في السكن: "لقد طالت كذبتك يا جونا، إن كان هذا اسمك في الواقع".

قال صاحب البدلة رقم 2: "عودوا إلى غرفكم، لقد انتهى العرض".

لم يصغِ إليه أحد. أبقيت رأسي منخفضاً بينما قادني المرافقان إلى الخارج، ورحت أبحث بين جهات الاتّصال في هاتفي. لكنّني لم أكن أبحث عن رقم أبي، فهذا أمر سأتولّاه لاحقاً. بدلاً من ذلك، استخرجتُ رقم ميلي.

أرسلتُ إليها رسالة نصّية بمجرّد جلوسي على المقعد الخلفي للسيّارة. أنا آسف، لقد أفسدتُ كلّ شيء.

كلّما فكّرتُ في ما فعلته الليلة الماضية، شعرت بالغثيان. فبمجرّد أن قاطعنا دونالد

كامدن أنا وميلي، انتهت كذبتي رسمياً. عرفتُ ذلك، لا بل شعرت حتّى بشيء من بالارتياح. وما كان ينبغي أن أفعله بعد ذلك هو التالي: الإمساك بيد ميلي وإخبار جميع الحاضرين أنّني لست ابن خالها، وبذلك يكفّون عن النظر إليها بصدمة واشمئزاز، ويركّزون كلّ تلك الطاقة السلبية على المكان الذي تنتمي إليه - أي عليّ أنا. وبعد ذلك، كان بإمكاني أن أتحمّل العبء الأكبر لما حدث، أو ربّما كنّا سنحلّ أنا وميلي المسألة معاً. وهذا ما كنت أرغب فيه منذ أن وضعت يدها على محفظتي وكشفت أمري.

بدلاً من ذلك، انطلقتُ خلف خطط انتقامي من آندرز ستوري. هذا على الرغم من أنّني كنت قد قرّرت في ذلك اليوم الذي تناولنا فيه الإفطار في كاتمينت هاوس التخلّي عن هذا الأمر. فهو لم يكن يستحقّ وضع ميلي وأوبري في موقف سيّئ. لكن هذه الليلة، عندما تعرّضتُ للإذلال والتوتّر والتحريض من قبل ميلدريد، تركت المرارة تغلبني. ولم أكتفِ بالإساءة بذلك إلى ميلي، لا بل إنّ خطوتي تلك لم تؤدِّ الأثر المطلوب. ولم أفعل سوى منح آندرز فرصة لإلقاء الأكاذيب.

كنت غارقاً في أفكاري لدرجة أنّني لم ألاحظ أنّنا وصلنا إلى وسط المدينة إلّا عندما رأيت الأضواء الساطعة في حوض السفن. كان صاحب البدلة رقم 1 يقود السيّارة، وصاحب البدلة رقم 2 يتحدّث على الهاتف، بينما كنّا نتوقّف أمام مبنى من الطوب الأحمر. "كلّ شيء جاهز"، قال ذلك في سمّاعة اليد، ثمّ خفضها والتفت لمواجهتي. "فندق هوثورن هو مكان إقامتك هذه الليلة. يمكنك طلب ما تشاء من خدمة الغرف، بحدّ أقصى يبلغ خمسين دولاراً. لديك تذكرة ذهاب فقط على العبّارة المغادِرة يوم غد بانتظار اتّصال منك. أقرب رحلة تغادر عند الساعة السابعة صباحاً وآخر رحلة عند الساعة الرابعة مساءً. مفهوم؟".

سألت: "وماذا إن فاتتني؟".

لم تتغيّر نغمة صوته الرتيبة التي كان يستخدمها طوال الليل. "لا أنصح بذلك. تعال، سأحجز لك غرفة".

بقي صاحب البدلة رقم 1 في السيّارة والمحرّك شغّالاً، بينما دخلنا فندق هوثورن. وإذا كانت موظّفة الاستقبال قد استغربت أن يقوم رجل ببدلة بحجز غرفة لمراهق عند الساعة التاسعة مساءً، فإنّها لم تُظهر ذلك. قالت ونظرها على شاشة الكمبيوتر أمامها: "رقم غرفتك 215. المصعد في آخر الردهة إلى اليسار، أو يمكنك استخدام السلالم عند الزاوية إلى يمينك. هل تحتاج إلى مساعدة مع الحقائب؟".

رفعتُ حقيبة القماش على كتفي مجيباً: "لا ضرورة لذلك".

سألتني: "هل ترغب بمفتاح واحد أم مفتاحين؟".

أجاب صاحب البدلة رقم 2 قبلي: "واحد فقط".

سلّمتني المفتاح بابتسامة مشرقة. "استمتع بإقامتك!".

شكرتها واستدرتُ مبتعداً، وصاحب البدلة رقم 2 يسير خلفي. فُتح الباب الأمامي، فتوقّفتُ في مكاني عندما رأيت آندرز وجي تي يدخلان عبره. كانا بمفردهما، وغير محاطَين بحارسَين مثلي، وهذا ما أشعل غضبي مجدّداً.

قلت بحدّة: "أيّها الكاذبان".

بدا آندرز ستوري بحالة جيّدة ومرتاحاً، وليس كمن طُرد للتوّ من حفلة والدته. حدّق إلى وعاء فضّي على مكتب الاستقبال، وتناول حبّة سكاكر بطعم النعناع ملفوفة بورق النايلون. قال وهو يفتح الورقة ويلقي حبّة السكاكر في فمه: "لقد جرّبتُ حظّي

يا جونا. كان الحلّ الوحيد الذي تركتماه لي أنت وجي تي".

حدّقتُ إلى جي تي، الذي لا يزال يختبئ في ظلّ والده. "كان هذا الأمر برمّته فكرتك أنت".

هزّ جي تي كتفيه بشيء من شجاعة آندرز، وقال: "أنت من لفتَّ الأنظار إليك. فالتقاط صورة لك في جنازة وعناق ابنة عمّتي لم يكونا جزءاً من الصفقة. عمليّاً، الذنب ذنبك بالكامل".

"بل عمليّاً الذنب ذنبه"، قلت ذلك وأنا أحوّل نظري إلى آندرز. "ما كنت لأوافق على ذلك لو لم تدمّر والدي. أنت كاذب ولصّ".

انتظرت منه أن يُنكر ذلك، لكنّه هزّ أحد كتفيه، وهو يمضغ سكاكر النعناع ويبتلعها ببطء متعمّد. "والداك بالغان، ويتّخذان قرارات بشأن كيفية إدارة أموالهما بإرادتهما الحرّة. كفّ عن إلقاء اللوم على شخص آخر، فهذا مثير للشفقة".

"كفى". شدّ صاحب البدلة رقم 2 ذراعي قائلاً: "لقد حان الوقت لتدخل غرفتك. هل تريد استخدام المصعد أم السلالم؟".

قلت وأنا أحرّر ذراعي: "سأذهب بمفردي".

لم يكن لكلامي أيّ أثر. فقد بقي صاحب البدلة رقم 2 قابضاً على ذراعي كالملزمة، وقال بلطف: "تنصّ الأوامر على إيصالك بأمان إلى غرفتك، وهذا ما سأفعله. المصعد أم السلالم؟".

أجبت: "السلالم". فالشيء الوحيد الأسوأ من إرسالي إلى غرفتي أمام آندرز وجي تي

سيكون انتظار المصعد أمام أعينهما.

صعدنا أنا وصاحب البدلة 2 السلالم بصمت، ثمّ دفعنا الباب في الطابق الثاني لنعبر منه إلى رواق فارغ. كان من السهل العثور على الغرفة 215، لكونها بجوار بئر السلّم مباشرةً ومقابل آلة البيع. لا شكّ في أنّها الغرفة الأكثر ضوضاءً وبالتالي الأرخص ثمناً في الفندق. أومض ضوء على لوحة الباب باللون الأخضر عندما أدخلتُ مفتاحي، وتوقّفتُ بعد أن أدرت المقبض.

قلت: "من فضلك، أخبرني أنّنا سنفترق هنا".

"سنفعل". سمح صاحب البدلة رقم 2 للمحة من التسلية بعبور عينيه. إن لم يكن لشيء آخر، فلا بدّ أنّ هذه الليلة كانت بالنسبة إليه استراحة من روتين عمله. "حظّاً سعيداً يا فتى".

تنفّست الصعداء عندما أغلق الباب خلفي. أخيراً أصبحت بمفردي. أخرجت هاتفي من جيبي، على أمل إيجاد رسالة من ميلي أو أوبري، ولكن لا شيء. عندئذٍ، فكّرت في إرسال رسالة أخيرة إلى ميلي، لكنّني لم أستطع أن أحمل نفسي على الإلحاح عليها. لو أرادت التحدّث معي، لأجابت.

لم تكن هذه الغرفة بفخامة غرف منتجع النورس، لكنّها أفضل من المساكن. كانت تحتوي على سريرين مع بياضات سرير مخطّطة بتصميم بحري ومكتب صغير أمام النافذة وتلفاز بشاشة كبيرة يشغل الجزء الأكبر من أحد الجدران. كان مكيّف الهواء صاخباً وعالياً لدرجة أنّ قشعريرة سرت في ذراعي. أمّا الحمّام فكان نظيفاً ومشرقاً، فتاقت عضلات كتفيّ لأخذ حمّام ساخن. ينبغي عليّ الاتّصال بوالدي، ولكن يمكنني تأخير ذلك خمس دقائق

أخرى.

في النهاية، مرّت أكثر من عشرين دقيقة. كان الحمّام فكرة رائعة لأنّه أتاح لي أن أتحوّل إلى النظام الآليّ، وأنفّذ حركات قمت بها آلاف المرّات من قبل. كما سمح لي ذلك بالتظاهر لبعض الوقت أنّ كلّ شيء على ما يرام، لا بل عاديّ حتّى. لكن في النهاية، عندما استهلكت كلّ الزجاجات الصغيرة المتاحة، وأصبح الحمّام بأكمله غارقاً في سحابة من البخار، حان الوقت لمغادرة الشرنقة. فخرجت ولففت جسدي بمنشفة. كان كارسون فاين قد غسل ملابسنا وكواها أمس، ولذلك كانت لديّ ملابس نظيفة أرتديها. وجدت سروالي الرياضي متيّبساً على نحو غريب بسبب النشاء، لكن لا بأس.

بمجرّد أن ارتديت ملابسي، لم يعد بإمكاني التأجيل أكثر. جلست عند طرف أحد السريرين، وأمسكت الهاتف بيدي، ورحت أتخيّل كيف سأبدأ المحادثة. إذاً أبي، بشأن تلك الوظيفة الصيفية اللطيفة...

ربّما يجدر بي أن أبدأ برسالة نصّية. فتحت ملفّ الرسائل لأفاجأ أنّني فوّتُّ رسالة منه في وقت سابق هذا اليوم. كانت بداية الرسالة على الشكل التالي: مرحباً جونا، كانت جلسة محكمة الإفلاس... تأوّهت. لقد انشغلت بالحفل الصيفي لدرجة أنّني نسيت أنّ موعد جلسة والديّ كان اليوم. فتمتمت وأنا أفتح الرسالة: "لا تأتي المصائب فرادى". كانت رسالة كلاسيكية من والدي: فقرة واحدة عملاقة بدلاً من مجموعة من الرسائل القصيرة.

مرحباً جونا، لقد كانت جلسة محكمة الإفلاس أفضل ممّا توقّعنا اليوم. يبدو أنّنا سنتمكّن أنا ووالدتك من إبقاء الإمبراطورية مفتوحة في النهاية. نتوقّع المزيد، لكنّنا نشعر بالتفاؤل للمرّة الأولى منذ مدّة. يعمل إنزو في مخزن للأدوات المنزلية. نحن نتحدّث معه

كلّ يوم ونأمل أن نتمكّن من إعادته قبل نهاية العام. حاول ألّا تقلق، اتّفقنا؟ استمتع بعطلتك وسنتحدّث قريباً.

تركت الهاتف يسقط على السرير، ووضعت رأسي بين يديّ، ثمّ أطلقت نفساً عميقاً مرتجفاً. لسعتني عيناي وأنا أضغط عليهما براحتيّ. لم أكن أسمح لنفسي بالأمل... على عكسهما. فقد كان والداي يعملان بلا توقّف في محاولة للإثبات لأمين الإفلاس أنّهما قادران على سداد ديونهما وأنّهما لا يزالان يديران مؤسّسة، وأعتقد أنّه أصغى إليهما.

كفّ عن إلقاء اللوم على شخص آخر. قد يكون آندرز ستوري نذلاً معدوم الضمير، لكنّه محقّ ربّما. "لا يمكنكما إثبات الاحتيال، ولا يمكنكما استرداد أموالكما، كلّ ما يمكنكما فعله هو الخروج من المأزق والمضيّ قدماً". هذا ما قاله المحامي الذي استشاره والداي. لم يرغب والداي في الإصغاء لهذا الكلام لمدّة طويلة، وكذلك أنا. فقد كان شعور الغضب مريحاً. ولكنّه لم يساعد، ولم يغيّر شيئاً. شعرت بطعنة ندم أخرى عندما فكّرت بميلي، وكم كان من الممكن لهذه الليلة أن تكون مختلفة لو أنّني تخلّيتُ عن كلّ هذا الغضب غير المجدي في وقت أبكر.

قاطعت أفكاري طرقة حادّة. فتمتمت ورأسي لا يزال بين يديّ: "أوه، كلّا، ماذا الآن؟". طُرق الباب مجدّداً بصوت أعلى هذه المرّة. فصحت مجيباً: "أنا آتٍ، صبراً"، وعلت وجهي ابتسامة طفيفة وأنا أتذكّر إنزو. عندما فتحت الباب، كنت أتوقّع رؤية صاحب البدلة رقم 2، يتأكّد من أنّني لم أزحف من النافذة أو شيء من هذا القبيل، ولكن لم يكن هو الواقف.

كدت لا أتعرّف عليه تقريباً. فقد كان حليق الذقن، يرتدي قميصاً أنيقاً طويل

الكمّين وسروال جينز، وبدت عيناه صافيتين وابتسامته متعبة.

قال آرتشر ستوري: "مرحباً، جونا، هل يمكنني الدخول؟".

أغار آرتشر على البار الصغير قبل أن نبدأ الحديث، واصطفّت الآن أمامه على الطاولة أربع زجاجات صغيرة. كانت واحدة منها فقط مفتوحة، ولم يأخذ منها سوى رشفتين صغيرتين. قال: "أعتذر عن الشرب أمامك، فأنا أحاول العودة إلى المسار الصحيح، ولكن لا يمكنني القيام بذلك من دون مساعدة، لا سيّما بالنسبة إلى الأحاديث الصعبة. فالأمر سيرتدّ عليّ". شرد نظره إلى صفّ الزجاجات. "أنا لا أنوي شربها جميعاً ولا حتّى معظمها. لكن ثمّة شيء يبعث على الارتياح بشأن معرفتي أنّني أستطيع ذلك".

قلت له: "لا بأس. كيف عرفت بمكاني؟" كانت أماكن الجلوس محدودة في الغرفة، لذلك جلست على أحد السريرين، بينما جلس آرتشر على كرسيّ المكتب.

قال: "ما زال لديّ أصدقاء في المنتجع. صحيح أنّني لا أستحقّهم، لكنّهم موجودون". فرك وجهه النحيل بإحدى يديه. لم أعتد بعد على غياب لحيته. "فقط لوضع الأمور في نصابها، لأنّني تلقّيت الكثير من المعلومات الجديدة الليلة: أنت لست في الواقع، ابن أخي، صحيح؟".

"صحيح". ظهرت على وجهه ابتسامة أسف، كما لو أنّه يتمنّى لو كنت كذلك، ووجدت نفسي أخبره بالقصّة الدنيئة بأكملها وكيفية وصولي إلى هنا. عندما انتهيت، هزّ رأسه وأخذ رشفة صغيرة من شرابه.

"عليّ الاعتراف أنّك لست مناسباً لتكون ابن آندرز حقّاً".

"هذا ما أسمعه طوال الوقت. هل كنت في حفل الليلة؟".

"أوه كلّا، لم تتمّ دعوتي. ولكنّني سمعتُ عن كلّ ما جرى، بما في ذلك عودة أخي". تابع بعد رشفة أخرى. "أريد أن أحاول الاتّصال بميلي وأوبري. وعلى حدّ علمي، فقد عادتا إلى المساكن. لكنّني أودّ التأكّد من أنّهما بخير. كما أريد الاعتذار"، أضاف ذلك بصوت يزداد ثقلاً. "وهذا سبب وجودي هنا، فأنا مدين لك بالاعتذار أيضاً. لقد اختفيتُ عن الأنظار بعد حديثنا. رأيت مقالاً عنّي في مجلّة النورس في اليوم التالي، وسبّب لي ذلك اضطراباً كبيراً. شعرت كما لو أنّني دمّرت كلّ شيء، وأصابني الذعر. وعندما يصيبني الذعر، حسناً... أميل إلى فقدان ما أملكه من السيطرة".

بدا آرتشر أنّه يرغب بشدّة في رشفة أخرى من الشراب، لكنّه امتنع عن أخذها. "لقد أحضرتكم إلى هنا، ثمّ تخلّيت عنكم. وهذا أمر معيب. فأنتم مجرّد أطفال. أنا آسف لأنّ رفضي التصرّف كإنسان ناضج في الأسابيع القليلة الماضية - أو حتّى العقدين الماضيين - هو الذي أدّى إلى الأمسية الرهيبة التي عشتموها للتوّ".

صمتُّ للحظة وأنا أحاول استيعاب كلامه. "هذا اعتذار بعيد المدى".

لاح شبح ابتسامة على وجهه. "شعرت أنّني بحاجة إلى تغطية كثير من الأمور".

"لا بأس. أعني، كنت أكذب عليك طوال الوقت، ولذلك أعتقد أنّنا متعادلان". انتظرت حتّى يتناول آرتشر الزجاجة مجدّداً، ثم سألته: "هل سنحت لك الفرصة للتحدّث مع د. باكستر حول تلك الرسالة قبل وفاته؟".

توقّف قبل أن يأخذ رشفة أخرى. "كلّا. فقد كنت مدمّراً لدرجة أنّني لم أغادر المنزل في ذلك اليوم".

"ماذا أراد أن يقول لك يا ترى؟".

تنهّد آرتشر مجيباً: "لا فكرة لديّ".

"إذاً، ماذا سيحدث الآن؟ هل ستعود إلى منزل روب؟".

"نعم، ولكن ليس لفترة طويلة. فقد بالغت في استغلال طيبته. أنا بحاجة فقط لبضعة أيّام لأستجمع نفسي، وحينئذ سأغادر الجزيرة". تنهّد مجدّداً وأضاف: "سأعود إلى حياة الواقع، أيّاً تكن".

خطرت ببالي فكرة مفاجئة لدرجة أنّني استقمتُ في جلستي وسألته: "هل يمكنني المجيء معك؟".

دُهش آرتشر وسألني: "ماذا؟".

"هل يمكنني المجيء معك؟ لم أتّصل بوالديّ بعد، وقد تركتُ ميلي بطريقة غير لائقة". احمرّ وجهي وأنا أتذكّر ملامحها الجامدة عندما صببتُ جام غضبي على ميلدريد. "عليّ الاعتذار".

قال آرتشر بحذر: "أنا أفهم ما تشعر به، ولكن يمكنك القيام بذلك عن بُعد، بعدما تهدأ الأمور. أعتقد أنّه من مصلحتك الخروج من هنا كما هو مخطّط".

"من فضلك؟ فقط ليوم أو يومين".

نظر إليّ بثبات. "جونا، في حال لم يتّضح لك ذلك تماماً، أنا مدمن".

"أعلم".

"لا يمكنك الاعتماد عليّ، ولا يمكنني أن أكون مسؤولاً عنك".

"أنا في الثامنة عشرة تقريباً". سأصبح كذلك بعد عشرة أشهر، ولكنّها مدّة قصيرة. "سأكون مسؤولاً عن نفسي، وأنا كذلك منذ وصولي إلى هنا". تردّد آرتشر فتابعتُ قائلاً: "هيّا، هل تريد أن تحصل والدتك على مرادها كلّما أمرَت دونالد كامدن بطرد أحدهم من جزيرة النورس؟".

ارتسمت ابتسامة على زاويتَي فمه وقال: "حسناً، دعني أخبرك أنّك تجيد الإقناع".

الفصل التاسع عشر

ميلي

شعرتُ بالحيوية عندما دخلنا أنا وأوبري مكتب كارسون فاين في الصباح. لم يكن استدعاؤنا من المساكن في هذا الوقت المبكر يبشّر بالخير، لكنّني تناولت ثلاثة فناجين من القهوة وكنت أرتدي فستان والدتي الأحمر. لست واثقة ممّا ينتظرنا عنده، لكنّني مستعدّة للحرب.

مع الأسف، لم يكن الرجل الواقف خلف المكتب مضيفنا الودود والأنيق بربطة عنقه الكحلية. قال دونالد كامدن: "تفضّلا بالجلوس". ثمّ لمعت أسنانه، أو بالأحرى كشّر عن أنيابه قائلاً: "فلنناقش ما حدث في الليلة الماضية".

ربّاه. الليلة الماضية. لا أستطيع حتّى التفكير في الأمر من دون الرغبة في التقيّؤ. فبعدما اقتيد جونا إلى الخارج، تمّت إعادتنا أنا وأوبري إلى المساكن من قبل سيّدتين لم أرهما من قبل. ولا عجب أنّه أغمي عليّ بمجرّد أن ساعدتني أوبري على خلع ثوبي. استيقظتُ بعد ذلك على رسالتين نصّيتين من الخال آرتشر - مفاجأة، هو لا يزال على الجزيرة بعد كلّ شيء - وستّة رسائل من جونا.

أنا آسف.

لقد أفسدتُ كلّ شيء.

ما كان يجدر بي قول ذلك. هل يمكننا التحدّث؟

أنا مدين لك باعتذار.

وبشرح.

رددتُ عليه برسالة واحدة: هل أتيت إلى هنا لتنتقم من الخال آندرز؟ لا أريد جواباً سوى نعم/لا.

أجاب في غضون ثوان. نعم.

ثمّ أرسل إليّ مجموعة من الرسائل الأخرى، لكنّني لم أقرأها. إنّه كاذب كبير كأيّ فرد في عائلة ستوري، ولذلك لا يمكنني الوثوق بأيّ شيء يقوله.

ما زلت لا أصدّق أنّني لم أستطع أن أخمّن بنفسي إلى أيّ أسرة ينتمي جونا. كما أنّني لا أصدّق... ولكن لا. لن أفكّر فيه بينما يتعيّن عليّ الحفاظ على صفاء ذهني بانتظار ما سيُتحفنا به دونالد.

كان هذا الأخير ينظر حالياً إلينا أنا وأوبري بضيق واضح، بانتظار أن نجلس كما أمرنا. غير أنّنا بقينا واقفتين. بادرتُ بالقول: "الخال آندرز كاذب-" لكنّ دونالد قاطعني رافعاً يده.

"نعم هو كذلك. وكذلك الأمر بالنسبة إليكما أنتما الاثنتين. لذا، ما سيحدث هو التالي. بدءاً من هذا الصباح، لم تعودا موظّفتين في منتجع النورس. سندفع لكما أجر الصيف كاملاً، وهذا برأيي امر في غاية السخاء". زمّ شفتيه بعد أن قال كلمته الأخيرة.

"ومن المتوقّع منكما أن تتّخذا الترتيبات اللازمة مع أهاليكما للعودة في غضون ثلاثة أيّام، ولديكما تذكرة عبّارة مفتوحة هذا اليوم، وغداً، ويوم الثلاثاء. لكن قبل أن تغادرا، تودّ السيّدة ستوري رؤية أوبري". نظر إليها، فتصلّبت بجانبي. "ستقلّك سيّارة عند الساعة الواحدة ظهراً من أمام مدخل المنتجع لاصطحابك إلى كاتمينت هاوس".

سألَته: "ماذا؟" وفي الوقت نفسه سألته أنا: "أوبري فقط؟ من دوني؟".

"ترغب السيّدة ستوري في التحدّث مع أوبري وحدها، كممثّلة لكم أنت الثلاثة". اتّسعت فتحتا أنفه وهو يضيف: "نصحتُها بعدم القيام بأيّ اتّصال آخر، نظراً للضرر الذي تسبّبتم به أساساً، لكنّها مصرّة".

بدت أوبري مصدومة وأنا أسأله: "ممثّلة؟ ما معنى ذلك؟ ولماذا لست أنا؟".

لوى دونالد شفتيه مجيباً: "لم تقل شيئاً. لكن برأيي، فإنّ سلوكك في الليلة الماضية جعلك... غير لائقة".

"غير لائقة بماذا؟" كنت أصيح عمليّاً، الأمر الذي أثبت وجهة نظره.

قالت أوبري: "لا أريد الذهاب".

قال دونالد: "هذا بالطبع متروك لك تماماً. ستكون السيّارة هناك في الساعة الواحدة، وستنتظر لمدّة خمس عشرة دقيقة".

سألتُه: "وماذا إن لم نرحل؟ أعني من الجزيرة".

شعرتُ بشيء من الرضا عندما تلاشى تعبير دونالد المطمئنّ لفترة وجيزة لتحلّ محلّه المفاجأة. "إذا لم ترحلا؟ حسناً هذا... أعني... يجب عليكما ذلك".

طويتُ ذراعيّ على صدري. "لا أعتقد أنّه يجب علينا فعل أيّ شيء. فأنت لست رئيسنا، ولم تعد ميلدريد كذلك. يمكننا البقاء هنا إذا ما طاب لنا ذلك".

ألقت عليّ أوبري نظرة متوتّرة بينما استعاد دونالد قناعه المتماسك. "كما قلت، غرفتكما في مساكن المنتجع متاحة فقط حتّى صباح يوم الثلاثاء. بعد ذلك، سنأخذ مفاتيحكما ولن تتمكّنا من دخول المبنى بعد ذلك".

قلت: "ثمّة فنادق أخرى".

أشار دونالد قائلاً: "معظمها تملكها جدّتكما. علاوة على ذلك، فإنّ استلامكما لراتبكما متوقّف على الشروط التي وضعتها السيّدة ستوري".

أجبت: "نحن لا نريد مالها، يمكنك الاحتفاظ به". ثمّ وجّهتُ نظرة اعتذار إلى أوبري، مدركة أنّني تحدّثت نيابة عنها من دون تفكير. أعلم أنّ الأمور المالية في منزلها أصعب ممّا هي بالنسبة إليّ، لا سيّما مع مسألة الطلاق الذي يلوح في الأفق، لكنّها أومأت برأسها موافقة.

تحوّل لون رقبة دونالد إلى الأحمر الداكن، وكان مشهداً جميلاً. لكنّه اكتفى بالقول: "ليس لديكما مكان تذهبان إليه باستثناء المنزل".

"إذاً، ليس لديك ما تخشاه، أليس كذلك؟" ثمّ استدرتُ نحو الباب، وكذلك فعلت أوبري. كانت أفضل طريقة يمكنني الخروج بها، لا سيّما أنّه كان محقّاً.

أمسكت أوبري ذراعي ونحن نسير بسرعة في الردهة، ثمّ سألتني هامسة: "لم تكوني جادّة، أليس كذلك؟ أعني بشأن البقاء في الجزيرة؟".

اعترفتُ مجيبة: "كلّا، أردت أن أصعّب الأمور على دونالد، لكنّه على حقّ. ليس لدينا مكان آخر نذهب إليه". أخرجت هاتفي بنيّة إرسال رسالة نصّية إلى والدتي، فومضت رسالة من الخال آرتشر. عبستُ بنفاد صبر، إلى أن خطرت ببالي فكرة جديدة. حملت هاتفي أمام أوبري مبتسة وقلت: "أو ربّما كان لدينا. هل تريدين الذهاب في نزهة؟ أنا لم أُرجع مفاتيح الجيب بعد".

بعد ساعة، كنّا جالسين في غرفة المعيشة في الكوخ، وعالقين في الحديث مع الخال آرتشر. مع الأسف، وجدنا معه زميل سكن غير متوقّع، كان من المفترض أن يكون قد رحل.

قبلتُ اعتذار الخال آرتشر، لكنّني أوقفتُ محاولة جونا بنظرة منّي. فكلّما فكّرتُ كيف تركني على الشرفة لكي يسوّي خلافاً قديماً مع الخال آندرز، ولم يكلّف نفسه عناء إخباري به، شعرتُ بطعنات في صدري.

سأل جونا: "إذاً، هل ستعودان إلى المنزل؟".

أجبتُ متمتمة: "أعتقد أنّنا مضطرّتان لذلك". عندما تخيّلت منزل الخال آرتشر كميناء مؤقّت في العاصفة، لم أدرك أنّه سيتعيّن علينا مشاركته مع جونا.

سألني الخال آرتشر: "وما رأي والدتك بكلّ ما جرى؟" ثمّ أمال رأسه نحو أوبري مضيفاً: "ووالدك؟".

بدا أفضل بكثير ممّا رأيناه آخر مرّة. كان ثمّة كوب شراب أحمر أمامه نصف مملوء بسائل صافٍ يحتسي منه طوال الوقت الذي نتحدّث فيه، ولم تتوقّف يداه عن الارتعاش، لكنّ حديثه ظلّ متماسكاً.

قلت: "لا يعرفان، ولن نخبرهما، ليس بعد". بدا الاستغراب في عينيه فأضفت: "نريد أوّلاً أن نعرف ما ستقوله ميلدريد لأوبري".

شحبت أوبري: "إحدانا فقط تريد ذلك".

سمعنا طرقة على الباب، فعبس الخال آرتشر. "والآن، من يمكن أن يكون؟".

أجبته وأنا ألقي نظرة حزينة على جونا: "ربّما عاد الخال آندرز من أجل جولة أخرى". فاحمرّ وجهه، وكرهتُ كم لاق به ذلك.

قال الخال آرتشر وهو يتّجه نحو الباب: "يا إلهي، لا أتمنّى ذلك، فأنا أحاول حقّاً البقاء على المسار الصحيح هنا، وهذا من شأنه - أوه، مرحباً". تراجع مربكاً، فرأينا هيزل واقفة في المدخل. "هل أنت... هل أعرفك؟".

أجابت: "كلّا". كانت تحمل مغلّفاً بنّياً مضموماً إلى صدرها، وزال تعبيرها المتأمّل قليلاً عندما رأتنا أنا وأوبري وجونا. "لكنّني أعرف من تكون، وأعرف أولئك الشباب. أنا هيزل باكستر كليمنت، حفيدة د. باكستر".

"يسرّني لقاؤك، أهلاً بك". إذا كان الخال آرتشر قد فوجئ من معرفة هيزل مكانه، فهو لم يُظهر ذلك. وبما أنّني أنا من أخبرتها، فقد تمنّيتُ أن يتجاهل ذاك التفصيل الصغير ويفترض أنّها عرفَت من جدّها. أضاف مشيراً إلى غرفة المعيشة: "تفضّلي، اجلسي. أنا آسف جدّاً لخسارتك، فقد كان فريد رجلاً رائعاً".

"نعم، وهذا سبب وجودي هنا". تقدّمت هيزل بضع خطوات داخل الكوخ بينما أغلق آرتشر الباب خلفها، وراحت تتجوّل بجانب الأريكة بدلاً من الجلوس في المساحة

التي أفسحناها لها أنا وأوبري. "أنا فقط - لم أعرف إلى أين أذهب".

أمال الخال آرتشر رأسه وقد بدا عليه القلق. "هل كلّ شيء على ما يرام؟".

"لا أعرف". تحسّست هيزل خيطاً على المغلّف الذي تحمله. "لقد وجدتُ هذا في مكتب جدّي أمس. إنّه موجّه لي، ولكنّه... يتعلّق بك أنت".

تبادلتُ نظرات الاستغراب أنا وأوبري، بينما سألها الخال آرتشر: "أنا؟".

"في الواقع، جزئيّاً. إنّه، اممم..." فتحَت المغلّف وسحبت منه ورقة. "ربّما ينبغي أن أقرأها وحسب". تنحنحت قائلة: "عزيزتي هيزل، أنا فخور جدّاً بالفتاة الشابّة التي أصبحتِ عليها. أنت لطيفة، وحسّاسة، ومجتهدة. بصراحة، أنت إرث لا أستحقّه. فثمّة أمور لا تعرفينها". ضعف صوتها، وازدردت ريقها قبل أن تتابع: "أنا أخشى مواجهة عواقب أفعالي، لكن ما يخيفني أكثر أنّني سأنساها قريباً. لذلك، ربّما يجب أن أبدأ بشيء ما زال من الممكن تصحيحه. لقد ارتكبت ظلماً جسيماً تجاه آرتشر ستوري".

صمتَت. ولا أعتقد أنّ أيّ شخص في الغرفة كان يتنفّس. انتظرتُ بقدر ما استطعت الاحتمال لأسمح لهيزل باستجماع نفسها، ثمّ انفجرتُ متسائلة: "أيّ ظلم؟".

قالت هيزل: "لا أدري، فالرسالة تنتهي هنا".

تأوّهتُ بينما مرّر الخال آرتشر يده على وجهه. قال لهيزل: "لقد طلب جدّك مقابلتي قبل وفاته مباشرة. غير أنّني لم أصل إليه بالسرعة الكافية، ولا أدري عمّا كان يريد التحدّث، أو ما الذي يعتقد أنّه فعله بي. من ناحيتي، ما من مشكلة على الإطلاق. لقد كان طبيب العائلة ولطالما كان لطيفاً تجاهي. هذا كلّ ما في الأمر. هلّا سمحتِ لي؟" أشار إلى

الرسالة، فسلّمته إيّاها هيزل. قرأها الخال آرتشر بسرعة، عابساً. "ألم يقل لك أيّ شيء من قبل؟".

"كلّا لم يسبق أن ذكرك قطّ. لكن ثمّة أمر آخر". مدّت يدها إلى المغلّف وأخرجت منه حزمة رقيقة من الورق. "وجدت هذه أيضاً".

أخذها الخال آرتشر متجهّماً. "تقرير تشريح جثّة؟".

"نعم. وهو يرجع إلى عشرين عاماً تقريباً". بدأت أعصابي تخزني بينما أضافت هيزل: "لا بل أربعة وعشرون، على وجه الدقّة. وهو لامرأة تدعى كايلا دوغاس".

ردّدتُ وأنا أنظر إلى أوبري: "كايلا؟ كايلا شقيقة أونا؟".

نظر إلينا الخال آرتشر. "هل تعرفان أونا؟".

أجبته: "هي من باعتنا الأثواب. وقد أخبرتنا عن شقيقتها. كيف واعدت الخال آندرز في الثانوية والكلّية، ثمّ ماتت. كان ذلك تماماً في الوقت الذي حُرمتم فيه من الميراث، وقد لاحظنا التوقيت". ألقيتُ نظرة جانبية على أوبري، واحمرّ وجهي وأنا أتذكّر كم كنت وقحة تجاهها في المكتبة. "في الواقع، أوبري هي التي فعلت".

عبس الخال آرتشر وهو يقرأ التقرير: "ما من ملاحظة أو أيّ شيء مرفق به؟ أما من سياق لسبب رغبته في حصولنا عليه أنا أو أنت؟".

قالت هيزل: "لا شيء".

قال: "ربّما يجب أن أتواصل مع أونا، إذ يبدو أنّ هذا التقرير كان ينبغي أن يُترك لها، وليس لي. على الرغم من أنّني أعتقد أنّ عائلتها حصلت على نسخة عنه منذ فترة

طويلة".

قالت أوبري: "ماذا عن التوقيت، عمّ آرتشر؟ فقد وصلتكم رسالة دونالد كامدن، هذا ما جنته أيديكم، بعد وفاة كايلا مباشرة، أليس كذلك؟".

أجاب: "كلّا، بل قبل ذلك. لا أذكر التوقيت بدقّة، لكنّها كانت ضربة ثنائية. أوّلاً الرسائل، ومن ثمّ ماتت كايلا. فعدنا لحضور جنازتها، ورفضت الوالدة رؤيتنا".

عضّت أوبري على شفتها قائلة: "آه، ظننت أنّها ربّما كانت مسألة سبب ونتيجة، كأن يكون ثمّة أمر يتعلّق بوفاة كايلا، وهو الذي أثار غضب الجدّة لدرجة حرمانكم من الميراث".

قال آرتشر وقد بدت عليه الحيرة من هذه الفكرة: "كلّا، بل كانت مجرّد مصادفة. بصراحة، لم تكن الوالدة من أكبر المعجبين بكايلا. أرادت أن يجد آندرز فتاة لطيفة في هارفارد. وهذا ما حدث في نهاية المطاف". التفت آرتشر إلى هيزل وسألها: "هل كان ثمّة شيء آخر موجّه لك أو لي بين أغراض جدّك؟".

"لم أر شيئاً آخر، لكن يمكنني أن أبحث مجدّداً، فعليّ العودة إلى المنزل على أيّ حال". تنهّدت هيزل، وأعادت الرسالة إلى المغلّف. "إنّنا نحزم أغراض جدّي".

سألها الخال آرتشر، ممسكاً بتقرير التشريح: "هل تمانعين إذا احتفظت به؟ أودّ أن أريه لأونا. فربّما ترى شيئاً فاتني".

قالت هيزل: "بالطبع، إلى اللقاء يا رفاق". ثمّ وضعت المغلّف تحت إحدى ذراعيها ومرّت من أمام آرتشر مغادرة الكوخ.

ضغطت أوبري على ذراعي قائلة: "يجب علينا أن نذهب في غضون عشر دقائق تقريباً. فسيّارة الجدّة ستصل قريباً، ما لم ترغبي في البقاء هنا".

أجبتها: "كلّا، أنا آتية معك".

سأل جونا: "هل ستعودان؟".

أجبت: "كلّا على الأرجح". سجّل جزء صغير من عقلي أنّني بدوت مريعة تماماً مثل أمي عندما ترغب في معاقبة شخص ما لأنّه خيّب أملها، لكنّني كنت منزعجة للغاية لأكترث لذلك.

مال جونا إلى الأمام وقال بصوت منخفض وملحّ: "ميلي، من فضلك. هل يمكننا التحدّث لدقيقة وحسب؟".

تنحنح الخال آرتشر قائلاً وهو يتّجه إلى المطبخ: "سأعدّ القهوة، هل ثمّة من يرغب بفنجان؟".

"أنا أريد!" قالت ذلك تلك الخائنة، أوبري، وقفزت لتتبعه.

أصبح المقعد بجانبي خالياً الآن، لكنّ جونا كان ذكياً بما فيه الكفاية لعدم الانتقال والجلوس عليه. قال: "ميلي، أنا آسف. كان يجب أن أخبرك عن والديّ وعن آندرز. صدّقي أو لا تصدّقي، كنت أنوي فعل ذلك في الواقع-"

قاطعته: "أنا لا أصدّق".

تابع قائلاً: "كنت سأخبرك ليلة الحفل. وقد حاولت عندما كنّا على الشرفة، لكنّك اممم-" شدّ ياقة قميصه متابعاً: "أردتِ التحدّث عن أشياء أخرى".

التهبت وجنتاي. كانت تلك الليلة أكثر من ضبابية، ولكن ليس لدرجة ألّا أذكر أنّني لم أتحدّث على الشرفة بقدر ما كنت أتعثّر في حالة من الاضطراب وأرمي بنفسي على جونا. "لقد تأخّرت، ألا تعتقد ذلك؟ كان يجب أن تخبرنا منذ البداية. كنّا نستحقّ ذلك أنا وأوبري بعدما كتمنا سرّك، ولكنّك لم تفعل، صحيح؟ لأنّ ذلك كان سيُفسد عليك انتقامك". حوّلتُ نظري عن الأرض إليه مضيفة: "أنا مندهشة لأنّك تكبّدت عناء الانتظار حتّى ليلة الحفلة. كان بإمكانك أن تصبّ جام غضبك على ميلدريد في كاتمينت هاوس".

قال جونا: "كنت سأفعل". فاجأني قوله ولم أستطع الكلام. "عندما سألَت كيف حال آندرز، كان لديّ خطاب كامل قد خطّطتُ له. لكنّني لم أستطع الكلام، لا بل لم أرغب في ذلك. فأنا لم مهتمّاً بإيذاء آندرز، ليس إذا كان ذلك سيؤذيك أنت أيضاً".

تجاهلتُ الدفء الذي بدأ يجتاح صدري. "لم يبد عليك القلق بشأن ذلك ليلة أمس".

قال جونا ببساطة: "لم أكن مدركاً لما أفعله. كانت لحظة كالكابوس، وقد تركتُ غضبي يسيطر عليّ. أنت لا تعرفين كيف يشعر المرء عندما يعمد شخص مثل آندرز-"

قاطعتُه وأنا أنهض: "كلّا، لا أعرف، بما أنّك لم تخبرني". أوه، لا أريد أن أستمرّ في الحديث معه، ولكنّني لم أستطع التوقّف أيضاً. "أوّلاً، كذبت عليّ بشأن هويتك، وعندما ضبطتك بتلك الكذبة، كذبت عليّ بشأن وجودك هنا". رفعت يدي قبل أن يتمكّن من الاحتجاج. "السكوت يبقى كذبة. لقد أخبرتنا مجموعة من أنصاف الحقائق، وتركتني أعتقد أنّنا... صديقان..."

ضعف صوتي عند تلك الكلمة، ثمّ ترقرقت عيناي بالدموع فجأة، الأمر الذي أثار

غضبي. فأنا لا أبكي أبداً. أنا ابنة أليسون ستوري، في النهاية.

وقف جونا هو الآخر وأمسك بيديّ قائلاً: "نحن صديقان بالفعل. الصداقة هي أقلّ ما أشعر به تجاهك. أنا أهتمّ لأمرك كثيراً، يا ميلي، ليست لديك أيّ فكرة-"

ابتعدتُ في اللحظة التي عاد فيها الخال آرتشر وأوبري إلى الغرفة. "كلّا، لأنّك مجدّداً لم تخبرني".

بدت أوبري حزينة وهي تمدّ لي كوباً مليئاً بالسائل البنّي. "هذه القهوة لك يا ميلي لتشربيها في الطريق. أنا آسفة، ولكن إذا لم نغادر الآن-"

"حسناً"، مسحتُ عينيّ قائلة: "أنا جاهزة".

اقترب الخال آرتشر واحتضنني بذراع واحدة، كما لو أنّه يعرف أنّ هذا أكثر قدر يمكنني تحمّله الآن من الاتّصال الجسدي. قادني بعيداً قليلاً عن الآخرين، وحنى رأسه نحوي.

همس قائلاً: "لا بأس أن تغضبي يا ميلي، فلديك الحقّ بذلك. ولكن فكّري في المغفرة أيضاً، اتّفقنا؟ إذا كانت ثمّة صفة واحدة أتمنّى أن تتمتّع بها عائلة ستوري بقدر أكبر، فهي القدرة على الغفران".

أليسون، 18 عاماً

أغسطس 1996

قال آندرز بنفاد صبر: "هيّا". وكز أليسون من مقعده بجوار النافذة في مقهى أرابيلا، الواقع مقابل متجر بروير فلوريل مباشرة. "إنّه هناك، بمفرده. افعلي ما جئت من أجله".

ازدردت أليسون لعابها وهي تراقب مات يصفّ أصص الأزهار على الرفوف. لم تصدّق أنّها ستطلب منه ذلك، ولكن... "هل ستأتي معي؟".

تأوّه آندرز قائلاً: "أوه، بربّك، كلّا. لقد أوصلتك، وقد انتهى عملي. لا تجرّيني أكثر في هذا الأمر".

ألقت أليسون نظرة ثابتة على مات، وتشنّجت معدتها. لم تعرف ماذا ستفعل حيال الحمل. في بعض الأيّام، تكون متأكّدة أنّ الإجهاض هو الحلّ الوحيد. وفي أيّام أخرى، تتخيّل الذهاب إلى الكلّية وهي حامل من دون علم والدتها، وتسلّم الطفل للتبنّي عند ولادته. حتّى إنّها فكّرت مرّات في الاحتفاظ به. لماذا لا تفعل؟ فلديها الموارد التي يكتفي معظم الناس بالحلم بها.

الأمر الوحيد الذي لم تفكّر فيه كان إخبار مات. فهذه مشكلتهما هما الاثنان، ولن

تواجهها بمفردها. "أنا فقط..." صمتت أليسون عندما فتح مات باب المتجر، ثمّ استدار لإقفاله وخرج إلى الشارع. "انسَ الأمر، إنّه ذاهب، سأفعل ذلك مرّة أخرى". غمرها الارتياح، وحلّ محلّه الذعر عندما رأت الاتّجاه الذي يسلكه مات. "إنّه قادم إلى هنا. أوه كلّا، لا يمكنني التحدّث إليه في وسط مقهى". نهضت عن كرسيّها وشدّت بذراع آندرز قائلة: "علينا الذهاب".

"لا تكوني سخيفة، ستصادفين مات وجهاً لوجه إذا غادرنا الآن. كفّي عن التصرّف كجبانة واطلبي منه أن يتمشّى معك".

"حسناً، نعم. فكرة جيّدة"، قالت أليسون ذلك بينما كان مات يدخل المقهى. كان من المستحيل ألّا يراها هي وآندرز، فقد كانا أمامه مباشرة، لكنّه تجاوزهما.

نادته أليسون: "مات". آلمتها معدتها وكرهت كلّ ما يتعلّق بهذه المسألة.

استدار على مضض. "أوه، مرحباً أليسون. لم أرك هنا".

قحّ آندرز قائلاً: "هراء"، كما لو كان سلوكه هذا مفيداً.

ودّت أليسون لو تنشقّ الأرض وتبتلعها، لكنّها أرادت أيضاً الانتهاء من هذه المسألة، فسألته: "هل تعتقد أنّه بإمكاننا... أن نتمشّى قليلاً؟".

قال مات: "لا أستطيع. لقد أتيت فقط لأخذ فنجانين من القهوة، وبعد ذلك عليّ الذهاب إلى مكان ما".

"ماذا لو رافقتك إذاً؟".

تنهّد مات مجيباً: "اسمعي يا أليسون... لقد استمتعت معك في منزل روب، ولكن

كان هذا كلّ شيء، مجرّد المتعة. لذلك، أتمنّى لو تكفّي عن الاتّصال بي، اتّفقنا؟" اكتفت أليسون بالتحديق إليه، وقد عقد لسانَها الذلّ الذي شعرت به، فأضاف: "أنا لست مهتمّاً".

ضحك آندرز ضحكة فظّة ساخرة: "لست مهتمّاً؟ أوه، هذا يشبه الأثرياء. عليك أن تشكر أختي لأنّها أعطتك من وقتها، أيّها النذل".

ارتعش فكّ مات وقال: "لديّ سؤال لك، يا آندرز. لو كنت نذلاً كما تقول، فلماذا تفضّلني كايلا عليك؟".

ضاقت عينا آندرز. "هي لم تفضّلك عليّ. لقد كنتما معاً لفترة، وقد انتهت الصفقة الكبيرة".

قال مات: "نحن لم نكن معاً لفترة، بل نحن معاً. لقد كنّا كذلك لأسابيع. ألم تلاحظ أنّها كفّت عن الإجابة على مكالماتك؟".

استرقت أليسون نظرة إلى آندرز. كان التوتّر حول فمه غير ظاهر تقريباً، لكنّها رأته، وعلمت أنّ كلام مات قد أصاب الهدف. لكنّ آندرز كان ليفضّل الموت على أن يتركه يعرف ذلك. فقال باستخفاف: "أنا لا أتابع عدد مكالمات كايلا. فهي تأتي إليّ زاحفة في النهاية. لذا استمتع بوقتك".

"لن تفعل... كلّا، أتعرف ماذا؟" هزّ مات رأسه، وكأنّه اشمئزّ من نفسه. "أنا لن أدخل في هذا الجدال معك. تعتقد أنّك تملك الناس لمجرّد أنك تملك المال، ولكنّك مخطئ. ثمّة جزيرة كاملة مليئة بالناس الذين لا يكترثون لأمر آندرز ستوري، ولا لأيّ فرد من أفراد أسرتكم"، أضاف، بينما شعرت أليسون بطعنة من العار لشملها على هذا النحو. ما الذي فعلَته باستثناء أنّها أعجبت به؟

قال آندرز: "أنت مخطئ لدرجة أنّك تكاد أن تكون مضحكاً".

قال مات: "أيّاً يكن، أنا ذاهب". ثمّ استدار وغادر المقهى من دون أن يطلب قهوته، أو يلقي نظرة أخيرة على أليسون.

قالت بينما كان الباب يُغلق خلفه: "يا له من حقير". وسبّب لها الألم طعنة حادّة في بطنها.

قال آندرز: "أخيراً، اتّفقنا على شيء ما".

مع ذلك، ما زال يتعيّن عليها التحدّث إلى مات. فحملت حقيبتها عن المنضدة وهي تراقب ظهره الجامد من خلال النافذة، ثمّ وقفت عندما رفع ذراعيه فجأة ليلحق بفتاة كانت تطير نحوه من الجهة المقابلة من الشارع. كايلا دوغاس.

كان مات قد قال، أتيت فقط لأخذ فنجانين من القهوة. يا إلهي، كان على موعد معها.

تعانق مات وكايلا في الشارع أمام أعينهما مباشرة. بدا كما لو أنّ مات يقدّم عرضاً، فشعرت أليسون بموجات الاستياء التي كان يطلقها آندرز. تمتم هذا الأخير وهو ينهض واقفاً: "هيّا، لقد غيّرتُ رأيي. لا أطيق الانتظار للذهاب وإخباره بحملك".

همّست أليسون وهي تقف في مكانها: "كلّا، لن أفعل ذلك أمام كايلا".

استدارت كايلا، وللحظة، ظنّت أليسون أنّها سمعتهما، مع أنّها كانت بعيدة جدّاً بحيث يصعب ذلك، لكن بالتأكيد رأتهما. فلفّت إحدى ذراعيها حول عنق مات، وأرسلت قبلة مثيرة عبر الواجهة. بعد ذلك، عادت لتعانق مات بحماسة أكبر.

لم يسبق لأليسون أن رأت آندرز بهذا الغضب. كان وجهه أحمر وفكّه مشدوداً وهو يقول بصوت خافت مليء بالتهديد: "ستندمان على ذلك".

قالت أليسون "دعنا نذهب". حملت حقيبتها على كتفها، لكنّها شهقت عندما رأت ساقها. فقد امتدّ خطّ من الدماء على فخذها الأيمن تحت سروالها القصير. "كيف ذلك..." مسحت المقعد بيدها بحثاً عن شيء حادّ قد يكون جرحها، ثمّ انحنت على نفسها عندما اجتاحت بطنها موجة من الألم. أخيراً، فهمَت.

لم يكن سلوك مات هو الذي آلمها، بل شيء آخر تماماً.

استغرق توقّف النزيف أسبوعاً كاملاً. وفي الليلة التي أعقبت نهاراً كاملاً من دون نزيف، أجرت أليسون اختبار حمل آخر، ولم يظهر سوى خطّ واحد. كان يجب أن تشعر بالارتياح، وهذا ما ستشعر به قريباً على الأرجح، لكنّها في تلك اللحظة شعرت بالفراغ وحسب.

تجوّلت إلى الطابق السفلي بعد ذلك، وقد جذبتها الأصوات. كانت أمّها، ودونالد كامدن، ود. باكستر، وتيريزا رايان جالسين حول طاولة المطبخ وبينهم زجاجة شراب. توقّفت أليسون في الردهة عندما رفع دونالد كأسه قائلاً: "نخبك يا ميلدريد ونخب روحك التي لا تقهر". ثمّ نظر الجميع إلى بعضهم البعض قبل أن يرفع دونالد يد الوالدة ويقبّلها.

عبست أليسون. كانت آخر نظريات آندرز، التي شاركها باستمرار مع إخوته، أنّ كلّاً من د. باكستر ودونالد كامدن يلاحقان الوالدة الآن بعد أن أصبحت أرملة ثرية. وكون د. باكستر متزوج أساساً لم يكن مانعاً. فقد أشار آندرز قائلاً: "لهذا وُجد الطلاق. لا تقولوا لي إنّه لن يتخلّى عن زوجته في أيّ لحظة".

وكان آرتشر يردّ عليه دائماً: "الوالدة ليست مهتمّة".

فيجيب آندرز: "إنّهما رجلان صبوران".

تنحنحت أليسون، فابتسمت لها الوالدة قائلة: "أهلاً حبيبتي. لم أسمعك، تعالي وانضمّي إلينا".

كانت أليسون ترغب في الرفقة، ولكنّها لم تستطع مواكبة ابتساماتهم في الوقت الحاليّ. بل تمنّت بشدّة لو أنّ والدتها كانت بمفردها. لو كانت كذلك، لاستطاعت أليسون أخيراً أن تُنزل ذاك الحمل عن كاهلها، هذا ما شعرت به. قالت: "كنت أبحث عن الشبّان".

"آرتشر خرج مع أصدقائه، وآدم وآندرز على الشاطئ".

مع واحدة من زجاجات الشراب الثمينة التي احتفظ بها والدهم بلا شكّ. قالت أليسون: "أعتقد أنّني سأنضمّ إليهما".

عندما ابتسمت الوالدة، شعرَت كأنّها عادت كما كانت. فالتواجد حول الناس كان مفيداً لها حتّى لو كانوا هؤلاء الثلاثة فقط. "خذي معك سترة، فالجوّ بارد هناك".

"سأفعل".

غادرت أليسون المنزل وتوجّهت إلى واحدة من المتع المفضّلة لدى والدها: المصعد الخارجي الذي سمح لهم بتجاوز المنحدر الطويل والمتعرّج المؤدّي إلى الشاطئ. صدرت عنه همهمة خافتة وهو يهبط، وفُتح مصدراً هسيساً ناعماً. خطت أليسون على الرمال متوجّهة إلى الخليج الصغير المحميّ، الذي كان المكان المفضّل لأشقّائها.

سمعتهما قبل أن تراهما.

كان آدم يقول: "... يمكن أن يطردا كلاهما، كما تعلم".

ضحك آندرز ساخراً: "ومن يأبه إذا خسرا وظيفتين بالحدّ الأدنى للأجور؟ ليس أنا". سُمعت قعقعة زجاجة ترتطم بكأس. لم يتمكّن إخوتها من استخدام الأكواب البلاستيكية على الشاطئ مثل الناس العاديين، بل كانوا يحضرون كؤوس الكريستال. وفي معظم الأوقات، ينسونها هناك وتجدها أليسون مطمورة في الرمال. "إنّهما يستحقّان الأسوأ".

قال آدم: "ما فعله بأليسون غير مقبول". فجمدت في مكانها. قالت في نفسها، كلّا، لا يمكن أن يكون الحديث حول مات. لا يمكن أن يكون آندرز قد أخبره.

قال آندرز باستخفاف: "ما كان ينبغي لأليسون أن تقيم علاقة مع ذلك الخاسر في المقام الأوّل".

بالطبع أخبره، لقد أخبر آدم بكلّ شيء. أرادت أليسون أن تضرب رأسها بالصخر - لا بل أن تضرب رأس آندرز.

قال آدم: "ما كان ينبغي أن يجرؤ على لمسها في الأساس". مع أنّ الأمر لم يكن من شأن آدم، إلّا أنّ أليسون شعرت بموجة دفء صغيرة أمام نزعة آدم الحمائية تجاهها. بعد ذلك، ولسوء الحظّ، استمرّ في الحديث. "كما لو أنّه لم يخطر بباله أنّ عائلتنا ليست من مستواه إطلاقاً. تخيّل الوالدة تشارك حفيدها غير الشرعي مع مساعدتها. هذه ليست الطريقة التي يُفترض أن يبدأ بها الجيل القادم. حمداً لله أنّ المسألة انتهت".

أغمضت أليسون عينيها وشعرت بوخز دموع الغضب. ما كان يجدر بها أن تتوقّع شيئاً أفضل، لكن مع ذلك، آلمها أن يحوّل آدم حتّى عمليّة إجهاضها إلى شأن يتعلّق به.

قال آندرز: "المسألة لم تنته، فهو لا يزال مع صديقتي الخائنة".

تثاءب آدم مجيباً: "كم أنت عنيد".

كانت أليسون قد سمعت ما فيه الكفاية. فاستدارت للعودة إلى المصعد، لكنّ جواب آندرز تناهى إليها قبل أن تغادر نطاق السمع.

"سيكون العالم مكاناً أفضل من دونهما".

الفصل العشرون

أوبري

"ها نحن ذا مجدّداً"، تمتمت ميلي بذلك متذمّرة بينما كان سائق الجدّة يوقف سيّارة البنتلي على الطريق الرئيس المؤدّي إلى كاتمينت هاوس.

قلت بامتنان: "شكراً لقدومك، فأنا متوتّرة للغاية".

"لا مشكلة. لكن لا أعتقد أنّها ستسمح لي بالدخول، فقد أكّدَت أنّها تريدك أنت فقط".

"أعرف، لكن لماذا يجب أن تحصل على مرادها طوال الوقت؟".

لوت ميلي شفتيها مجيبة: "ربّما لأنّها تملك كلّ المال".

خرجت ابنة عمّتي بعينين جافّتين ووجه متماسك منذ أن تركنا منزل العمّ آرتشر، ورفضت التحدّث عن أيّ شيء باستثناء هذا اللقاء مع ميلدريد. كان يلفّها جوّ من الحزن آلم قلبي، لذلك حاولتُ مجدّداً. "هل تعتقدين أنّ جونا..."

حوّلت ميلي نظرها إلى النافذة. "ليس بعد، من فضلك".

تأمّلتُ جانب وجهها بصمت. لم تفاجئني قبلتهما هي وجونا في الحفل الصيفي،

بل فوجئت لأنّها لم تحدث قبل ذلك. وأنا لست غاضبة من جونا لأنّه صمت عن مسألة العمّ آندرز. فقد جئت إلى هنا حاملة معي أسراري أنا أيضاً، ولست متأكّدة من أنّني كنت سأخبر ميلي عن والدي والمدرّبة ماتسون بتلك السرعة لو لم ترني وأنا في تلك الحالة. ثمّة شيء مغرٍ على نحو خطير في أسرار أسرة ستوري. فهي تقتحم قلبك وروحك، وتحفر عميقاً لدرجة أنّ فكرة نشرها إلى العلن تبدو وكأنّك تخسر جزءاً من نفسك. وتخطيط جونا للانتقام من العمّ آندرز بينما هو يقع في حب ميلي يجعله واحداً منّا أكثر ممّا فعلَت شهادة ميلاده المزيّفة.

لكنّني أفهم ميلي إن كانت لا ترى الأمور بهذه الطريقة.

غرقنا في الصمت بينما كانت السيّارة تسير في طريقها بسلاسة. تصفّحت رسائلي، وقرأت رسالة جديدة من والدي حول مدى جحودي والخيبة التي أسبّبها له، بالإضافة إلى خبر من والدتي ما كان ليصرّح به: أعلنت المدرّبة ماتسون عن حملها. صحيح أنّ أمّي لم تخبرني بشكل مباشر أنّ الجميع يعرفون من يكون الأب، لكنّها ليست مضطرّة لذلك. فأنا أعرف كيف تسير الأمور في بلدتنا، ولا شيء يبقى سرّاً لوقت طويل.

أوه، وبالمناسبة، الجنين ذكر.

كتبت لي أمّي تقول، آمل ألّا يكون إخبارك عن طريق الرسالة أمراً مزعجاً. فقد كان من الصعب الوصول إليك، ولم أرغب في أن تسمعي ذلك من شخص آخر.

شعرتُ بشيء من الذنب. كانت على حقّ، فمنذ أن توقّفتُ عن الحديث مع أبي، امتنعتُ عن الردّ على مكالمات أمّي أيضاً. ليس لأنّني غاضبة منها، على الإطلاق، ولكن لأنّ الابتعاد عن مأساة حمل المدرّبة ماتسون كان مصدر ارتياح كبير لي. ومع كلّ ما حدث في

الأسبوع الماضي، تمكّنت من نسيان المسألة تقريباً.

كانت الساعة العاشرة صباحاً في ولاية أوريغون، وهذا يعني أنّ أمّي في المستشفى، في عملها، ولن تتحقّق من هاتفها قبل ساعات. مع ذلك، أجبتها بسلسلة من الرسائل:

شكراً لإخباري.

أنا آسفة لأنّني كنت بعيدة عن السمع. فثمّة كثير من الأمور التي تجري هنا.

سأتّصل بك قريباً.

أيضاً، وفقط من باب العلم، أيّاً يكن قرارك تجاه هذه المسألة، فاعلمي أنّني سأكون معك.

مجازيّاً وفعليّاً.

مثلاً، سأنتقل للعيش معك إذا كان هذا ما تريدينه.

وبكلّ سرور.

أنا آسفة لأنّني لم أخبرك بذلك من قبل، أحبّك كثيراً.

في اللحظة التي أرسلتُ فيها الرسالة الأخيرة، رنّ هاتفي، فحدّقتُ غير مصدّقة إلى رقم توماس. تمتمتُ قائلة: "لا بدّ أنّك تمزح".

سألت ميلي: "من المتّصل؟". فحملتُ هاتفي والتوى تعبير وجهها عندما رأت الاسم. "أوه، هل ستجيبين؟".

تنهّدتُ قائلة: "ولمَ لا؟ فأنا أنزع كلّ الضمادات اللاصقة اليوم. مرحباً توماس".

"يا صاح". وترّتني الكلمة على الفور. فأنا لم أحبّ يوماً طريقة توماس في مناداتي كذلك، كما لو كنت أحد زملائه في فريق الكرة الطائرة. "هل أقام والدك حقّاً علاقة بمدرّبتك؟".

كنّا نقترب من بوّابة كاتمينت هاوس. توقّف السائق وسحب البطاقة الفضّية التي يحتاج إليها لفتح البوّابة من حاجب الشمس. كان على وشك سماع حديث من دون أن يطلبه، ولكن لا بأس. قلت لتوماس: "هل اتّصلت حقّاً لسؤالي عن ذلك وحسب؟".

"هيّا يا صاح. هذا جنون".

"لقد سررت بالتحدّث إليك أنا أيضاً توماس. كان العمل على ما يرام، شكراً لك. كيف كانت أحوالك هذا الصيف؟".

ابتسمت ميلي ساخرة بينما انطلق توماس في مونولوغ مفصّل على نحو مؤلم. لم أستغرب أنّه اعتبر سخريتي اهتماماً حقيقياً. أخيراً قاطعته: "توماس، هذا عظيم. يسعدني أنّ أمورك على ما يرام ولكن لماذا تتّصل بي؟".

"لأنّ والدك-"

"حسناً، كلّا". للمرّة الأولى على الإطلاق، ينفد صبري تماماً مع توماس. "فهمت أنّك تريد الحصول على سبق صحفي من الداخل. ولكنّنا انفصلنا أنا وأنت".

قال توماس بارتياب: "حقّاً؟". ليس وكأنّه منزعج من ذلك، بل بدا متفاجئاً لأنّني طرحت الموضوع.

ذكّرته قائلة: "لقد تجاهلتَ كلّ رسالة من رسائلي بمجرّد وصولي إلى هنا".

أجاب بشكل دفاعي: "كنت مشغولاً. على أيّ حال، عندما رددتُ عليك، تجاهلتِ رسائلي أنت أيضاً".

"صحيح". قلت ذلك وأنا أفكّر بالكلام الذي قالته أونا في متجرها. الحياة معقّدة في العصر الرقمي. "ممّا يعني أنّنا متعادلان، أليس كذلك؟".

"إذاً تريدين الانفصال؟".

"ألا تريد أنت؟".

اعترف أخيراً: "حسناً، بلى. كنت أريد ذلك منذ مدّة، في الواقع. ولكنّني لم أعتقد أنّك كنت راغبة في ذلك أنت أيضاً".

قمعتُ تنهيدة. كان بإمكاننا أن نتجادل طويلاً حول مدى غرابة أن يتركني معلّقة بهذا الشكل، لكنّني لم أكن أملك الوقت حاليّاً. كما أنّه لم يعد مهمّاً. كنت أستنتج منذ وصولي إلى الجزيرة حقيقة علاقتي بتوماس: أمر كان يجب أن ينتهي بعد بضعة أشهر من بدايته في الصفّ الثامن، عندما بدأ يعاملني كشيء ثانوي. لكنّ علاقتنا لم تنته، لأنّني كنت أجد شيئاً مريحاً تقريباً في ذلك. فقد اعتدتُ عليه.

أوقف السائق السيّارة أمام كاتمينت هاوس. قلت عبر الهاتف: "حسناً، أنا سعيدة لأنّنا أوضحنا المسألة، استمتع ببقيّة الصيف". ثمّ قطعتُ الاتّصال، وبدأت ميلي تصفّق بخفّة.

قالت مبتسمة: "هل يمكننا تخصيص دقيقة واحدة لتقدير مدى تحسّنك في قطع علاقتك بالناس عبر الهاتف؟".

قمتُ بانحناءة وأنا جالسة وأجبتها: "شكراً لك".

قال السائق: "اسمحي لي بفتح الباب آنسة ستوري". قام بذلك ولم يرفّ له جفن عندما ترجّلت ميلي من الباب الآخر، بدون مساعدة.

قالت وهي تشبك ذراعها بذراعي ونحن نتّجه نحو درجات الأردواز العريضة: "دعينا نرى ماذا تريد ميلدريد، هيّا". قبل أن نصل إلى أعلى الدرج، فُتح الباب، لنجد أمامنا تيريزا.

تلاشت ابتسامتها الهادئة عندما رأت ابنة عمّتي: "مرحباً أوبري و... ميلي. السيّدة ستوري تنتظرك يا أوبري. تفضّلي بالدخول". تنحّت جانباً، ثم عادت لتقف أمامنا عندما تقدّمت ميلي عبر الباب معي. "ميلي، كانت هذه الدعوة موجّهة لأوبري فقط".

قالت ميلي بلطف: "أوه، أنا آسفة. ظننّا أنّه ثمّة خطأ".

قالت تيريزا: "كلّا، يمكنك الانتظار في السيّارة. لن يستغرق الأمر طويلاً".

حسناً، لا يبدو ذلك واعداً.

منحتها ميلي ابتسامة لطيفة وقالت: "هل تشاهدين المباراة؟ ربّما يمكنني الانضمام إليك حتّى انتهاء أوبري". لم يبد على تيريزا أيّ انفعال، فأضافت ميلي: "مباراة اليانكيز ضدّ ريد سوكس؟ بدأت المباراة الأولى أساساً".

قالت تيريزا بانزعاج: "أنا لا أشاهد البيسبول، لكنّني مضطرّة لأطلب منك المغادرة. تعالي معي يا أوبري".

ألقيتُ على ميلي نظرة عاجزة بينما سحبتني تيريزا إلى الداخل، وأغلقَت الباب في

وجه ابنة عمّتي. قالت: "السيّدة ستوري على الشرفة"، واصطحبتني إلى المكان نفسه الذي تناولنا فيه الإفطار. انتابني إحساس مألوف مجدّداً: الجدّة جالسة تحت مظلّة صيفية بكامل أناقتها تحتسي الشاي.

قالت: "مرحباً أوبري، اجلسي من فضلك".

قالت تيريزا: "سأكون في الداخل يا ميلدريد"، ثمّ أغلقت الباب الزجاجي المنزلق خلفي.

جلستُ على الكرسيّ الأبعد عن الجدّة، وقلبي ينبض. ربّما تعاملتُ مع توماس بسهولة أبهرتني حتّى في السيّارة، لكنّ هذا لا يعني أنّني مستعدّة لذلك. توسّطت الطاولة صينية كبيرة وُضع عليها إبريق شاي وركوة قهوة كما بدا لي، وأوعية خزفية من الحليب والسكّر. لكن لا طعام. من الواضح أنّنا لسنا في لقاء إفطار.

أشارت جدّتي إلى الطاولة. "تفضّلي بشرب الشاي أو القهوة، إذا كنت تفضّلين".

تمتمتُ مجيبة: "القهوة". لكنّني لم أعرف كيفيّة استعمال الركوة، فقد كانت واحدة من تلك الأواني التي ينبغي تدويرها بعدّة طرق قبل أن تفتح، وقد تركتني الجدّة أتصارع معها. عندما بدأت أصبّ أخيراً، تدفّقت القهوة بسرعة وفاض فنجاني في الطبق. فتظاهرنا كلتانا بعدم ملاحظة ذلك.

قالت جدّتي وهي تحتسي رشفة من الشاي: "أفترض أنّك تتساءلين عن سبب استدعائي لك إلى هنا". كانت قبّعتها اليوم أصغر من المعتاد، عبارة عن فيدورا منخفضة فوق عين واحدة، بلون بنّي يناسب بدلتها المزركشة بالمربّعات. أمّا قفّازها فكان باللون الأسمر الفاتح، بدلاً من الأبيض المعتاد. فبدت كأنّها أخذت استراحة من مهمّة تجسّس في

الحرب العالمية الثانية.

قلت: "أجل"، وأخذتُ رشفة كبيرة من القهوة السوداء لأتيح مجالاً لصبّ الحليب. وعندئذ كدت أختنق، لأنّني وجدتها حارقة. احترق لساني ودمعت عيناي، لكنّني تمكّنتُ من عدم بصق شيء.

"أنا أتحدّث إليك وحدك من بينكم أنتم الثلاثة، فقد بدوتِ لي فتاة عاقلة. تبدو لي ميلي غير متّزنة، أمّا بالنسبة إلى الآخر-" أظلم وجهها وهي تتابع: "من الواضح أنّ جي تي ثعبان مثل أبيه".

اختلطت المفاجأة بالتوتّر. "أنت لا تصدّقينه هو والعمّ آندرز، إذاً؟".

"أنا لا أصدّق أيّاً منكم". أخذت الجدّة رشفة أخرى من الشاي، ثمّ وضعت فنجانها بعناية على الطبق. طوت يديها تحت ذقنها، وحدّقت إليّ باهتمام شديد بحيث خفضتُ نظري. "كان عليّ إرسالكم فور وصولكم. هذا ما أراده دونالد وتيريزا، وكانا على حقّ. لكنّني كنت أشعر بالفضول لرؤيتكم، لا سيّما أنت". أجبرني كلامها على النظر إليها مجدّداً، ثمّ أجفلتُ. إذا تكوّن لديّ انطباع يوماً بأنّ الجدّة تهتمّ بي لأنّها تحبّني وحسب، فقد كنت مخطئة. إذ بدت وكأنّها تكرهني. "لطالما احتلّ آدم مكانة فريدة في ذاكرتي. وقد تساءلت على مرّ السنين ما إذا كنتِ مثله".

جفّ فمي تماماً وأنا أجيبها: "لا أعتقد أنّني كذلك".

ظلّ نظر الجدّة مركّزاً عليّ وهي تجيب: "كلّا، ولا بدّ أنّه فخور بك".

ليس حقّاً، فكّرتُ بذلك ولكنّني لم أقله.

انتظرَت ردّاً، وعندما لزمتُ الصمت، تنهّدَت قليلاً: "على أيّ حال، لقد أرضيت فضولي. ما أودّ قوله لك الآن أنّ قرار قطع علاقاتي بأولادي قبل أربع وعشرين عاماً كان نهائياً. لقد أخطأت حين سمحت لكم بدخول حياتي، ولن أرتكب هذه الغلطة مجدّداً. لا يمكنني إجباركم على مغادرة الجزيرة بالطبع، لكن أتمنى أن تفعلوا. هذا منزلي، وأنتم غير مرحّب بكم هنا".

مع أنّني كنت مستعدّة لذلك، إلّا أنّ كلامها أتاني كالصفعة. ربّما لأنّ أحداً لم يقل بوضوح ما شعرتُ به دائماً بشأن كوني جزءاً من عائلة ستوري. أنتِ غير مرحّب بك هنا.

ارتشفت جدّتي الشاي بينما حاولتُ إيجاد ردّ مناسب. أخيراً، قلت ما أفكّر فيه ببساطة. "ألا تريدين حتّى التعرّف علينا؟ أو على أهالينا كما هم الآن؟".

كانت عيناها باردتين وهادئتين. سألتني: "هل تعتقدين أنّ والدك رجل يستحقّ المعرفة؟".

شعرتُ في جيبي بثقل هاتفي المليء بالأسباب التي تجعل من أبي شخصاً لا يستحقّ المعرفة. فقد كان مخادعاً وكذّاباً، ولم يتخلّف يوماً، ولا لمرّة واحدة، عن إعطاء نفسه الأولويّة في أيّ موقف معيّن. لكنّني تذكّرت في تلك اللحظة الصورة التي رأيتها له هو والجدّة في سويتفيرن: يدها الموضوعة بحنان على خدّه، وكلاهما يبتسمان ابتسامة حقيقية وصادقة. ذلك النوع من الابتسامات الذي لم أحصل عليه منه، مهما حاولت جاهدة إرضاءه. قلت: "كان من الممكن أن يكون كذلك".

أعادت الجدّة ملء كوبها مجيبة: "نحن لا نعيش في عالم ما كان من الممكن أن يكون، أليس كذلك؟ بل في هذا العالم".

"أنت صنعت هذا العالم". كلامي المباشر فاجأنا كلانا.

ردّت جدّتي، وهي ترمقني من رأسي إلى أخمص قدميّ: "لم يكن لديّ الخيار، عليك أن تفهمي ذلك. كما قلت، أنا أراك فتاة عاقلة".

"عاقلة". ظلّت الكلمة معلّقة بيننا، وفهمتُ ما تعنيه حقّاً. مطيعة. أنا الفتاة التي لا تسبّب المشاكل - التي لا تحاول التلاعب بها مثل جي تي، أو تحدّيها مثل ميلي. أنا الرهان الآمن، تلك التي ستصدّق كلّ ما تخبرني إيّاه وتبلغه للباقين بإخلاص. انتابتني رغبة مفاجئة في عدم القيام بما تتوقّعه وعدم المغادرة بهدوء. قلت: "حسناً، سأذهب، ولكن يمكنك ربّما إخباري بشيء واحد أوّلاً". رفعت حاجبيها المقوّسين باستغراب، فتابعتُ قائلة: "هل من أمر غير عادي في طريقة وفاة كايلا دوغاس؟".

أتمنّى لو كانت ميلي معي لترى التعبير الذي ارتسم على وجه المرأة. حدّقت إليّ بصدمة مطلقة، وهي تضع فنجانها من يدها بسرعة، بحيث انسكب الشاي على قفّازها. قالت هامسة: "كيف...". بذلَت جهداً واضحاً وجبّاراً لتتماسك. "ما الذي تتحدّثين عنه بحقّ الله؟".

صمتُّ غير واثقة كم ينبغي علي أن أكشف. فأنا لا أريد أن أورّط هيزل أو العمّ آرتشر في المشاكل. لكسب الوقت، مددتُ يدي إلى ركوة القهوة. غير أنّني كنت متوتّرة للغاية بحيث لم أتمكّن من التصويب بشكل صحيح، فارتطمت يدي بها بقوّة. هكذا ترنّحَت لنصف ثانية، وكدت أنجح في الإمساك بها، غير أنّها سقطت في النهاية، وانسكبت محتوياتها الحارقة مباشرة على جدّتي.

"يا إلهي!" خرجت الصرخة بينما نهضت جدّتي بلحظة، ونزعت القفّاز الذي لحقت

به الكمّية الأكبر من السائل، ثمّ أمسكت بتنّورتها بعيداً عن جسدها. حدّقتُ إلى الفوضى وأنا مرعوبة لبضع ثوانٍ قبل أن أستعيد وعيي.

رحت أتمتم وأنا أدفع لها بمنديلي: "أنا آسفة! لم أقصد ذلك! أنا آسفة!".

ظهرت تيريزا عند الباب، وهتفت متسائلة: "ميلدريد؟ ماذا حدث؟" ثمّ رأت المشهد واندفعَت إلى الطاولة. سكبت الثلج من كأس فارغ في منديل، ثمّ لفّت المنديل حول يدَي الجدّة. "هل احترقتِ؟".

أجابت بتوتّر: "ربّما".

قالت تيريزا: "دعيني أصطحبك إلى غرفتك لإلقاء نظرة". ثمّ التفتت إليّ مضيفة: "أوبري، من فضلك أخرجي حالاً".

"حسناً"، ازدردت لعابي وأنا أنظر إلى وجه جدّتي الذي تحوّل إلى قناع من الألم. "أنا آسفة حقّاً".

اصطحبت تيريزا الجدّة بعجلة إلى الداخل، وحاولتُ أن أعود أدراجي. غير أنّني اتّخذت منعطفاً خاطئاً، وانتهى بي الأمر في غرفة تشبه المكتبة، اصطفّت الرفوف على جدرانها من الأرض إلى السقف، وكان ثمّة مكتب موضوع مباشرة أمام النافذة. وقع نظري على طاولة جانبية مزخرفة موضوعة عند الباب، وكانت عليها مجموعة من المزهريات والأواني المزخرفة. عندما نظرتُ إليها، وجدت شيئاً مألوفاً في قطعة برونزية، وكان عبارة عن بطاقة فضّية رفيعة، تماماً كتلك التي استخدمها السائق لفتح البوّابة المؤدّية إلى كاثمينت هاوس.

لم أفكّر مرّتين، بل فعلتُ ما لا تتوقّع منّي جدّتي فعله مطلقاً، ودسستُ البطاقة في جيبي.

الفصل الحادي والعشرون

جونا

بحلول الساعة الخامسة من صباح يوم الأحد، كانت العبّارة التي سأعود بها إلى هيانيس قد فاتتني رسمياً. لست متأكّداً ممّا سيحدث الآن في المخطّط الكبير للأمور، ولكن حاليّاً، كنّا نقيم حفلة طهي في الهواء الطلق. هذا الأمر بدا طبيعياً على نحو غريب في ضوء الساعات الأربع والعشرين الماضية، لكنّنا في الصيف وعلينا أن نأكل.

قال آرتشر وهو يقلب قطع البرغر على المشواة التي وجدها في كوخ البستنة وتمكّن من تشغيلها: "أنا لست طاهياً ماهراً، ولكن ليس من الصعب إعداد هذه المأكولات".

كانت ميلي وأوبري هنا أيضاً، بعد أن أحضرهما إفرام من المنتجع بواسطة الجيب. فقد صادر كارسون فاين المفاتيح أخيراً، الأمر الذي كان سيبدو خطوة نموذجية من خطوات دونالد كامدن لو لم يسلّمها على الفور لإفرام ليقوم بتوصيل الفتاتين. أتمنّى لو تسنّت لي الفرصة لوداع كارسون، الذي كان عموماً رئيساً رائعاً.

رفض إفرام دعوة آرتشر للبقاء. قال وهو يبتسم لي ابتسامة عريضة: "يبدو كأنّه اجتماع عائليّ، وعائليّ مزيّف، ولكن شكراً على أيّ حال". وقبل أن يغادر، ساعدني في جمع

كلّ المقاعد التي كانت متناثرة عشوائياً في الفناء في دائرة على الشرفة الإسمنتية. ما زالت ميلي ترفض التحدّث إليّ، لكنّها جلست بجواري، ولا أعتقد أنّني أبالغ لو قلت إنّ وضعها العامّ أصبح أقلّ برودة ممّا كان عليه في اليوم السابق.

قعقع الباب الخشبي في السياج الذي يحيط بالفناء الخلفي، ثمّ تأرجح ومرّت من خلاله امرأة. كانت ذات شعر داكن، وربّما أصغر قليلاً من آرتشر، تحمل مقلاة كبيرة مغلّفة بورق الألمنيوم.

قال آرتشر: "أونا! شكراً لقدومك، لكن ما كان ينبغي أن تحضري شيئاً".

قالت المرأة وهي تعبر إلى الفناء وتضع مقلاتها على الطاولة المصنوعة من الحديد المطاوع: "حسناً، لم أكن متأكّدة تماماً ممّا ستطعم هؤلاء الأولاد المساكين".

قال آرتشر: "أنا أبذل قصارى جهدي"، وقلب قطعة برغر لتسقط مباشرة على العشب.

هزّت أونا رأسها وابتسمت بحرارة لميلي وأوبري. "مرحباً مجدّداً أيّتها الفتاتان. أنا آسفة لسماع كيفية انتهاء الحفل". احمرّ وجهي بسبب إحساسي بالذنب، بينما أضافت: "أنتما تستحقّان أفضل من ذلك".

جهّزت نفسي لإحدى نظرات ميلي القاتلة، لكنّها لم تأتِ. بل اكتفت بإبعاد شعرها عن وجهها قائلة: "على الأقلّ بدونا بمظهر حسن ونحن نُطرد".

جلست أونا والتفت إليّ. "وأنت، لا بدّ أنّك جونا".

"نعم"، شعرت بالامتنان لأنّها توقّفت عند هذا الحدّ.

مالت إلى الأمام، ورفعت الحجر الذي يحول دون تطاير تقرير التشريح عن الطاولة، وسألت العمّ آرتشر: "أهذا ما أردت منّي إلقاء نظرة عليه؟".

أجاب آرتشر: "أجل"، ثمّ حمل قطعة برغر ووضعها بعناية على قطعة خبز مفتوحة على طبق بجانب المشواة. "أنا آسف إذا كان كلامي غريباً أو مزعجاً، ولكن لم أفهم سبب رغبة د. باكستر في حصولي على هذا التقرير". كرّر العمليّة مع قطعة برغر أخرى. "وقد ذكرت أوبري أنّ أمّي تصرّفت بشكل غريب عندما ذكرت اسم كايلا عصر هذا اليوم".

سألتها أونا ونظرها يجول على التقرير: "غريب من أيّ ناحية؟".

زمّت أوبري شفتيها مجيبة: "حسناً، سألتها ما إذا كان ثمّة شيء غير عادي حول كيفيّة وفاة كايلا، وبدت... لا أدري. لم تفاجأ بالضبط كما لو كان هذا السؤال أتى من العدم، بل كما لو أنّها انزعجت منه. لكنّني سكبت القهوة عليها قبل أن تتمكّن من الإجابة".

قالت أونا وهي لا تزال تحدّق إلى الورقة: "هذا غريب، وكذلك ما هو مكتوب هنا".

أغلق آرتشر المشواة، وبدأ يناول قطع البرغر للحاضرين. سألها: "ماذا تقصدين؟".

"بحسب هذا التقرير، تمّ إيجاد مادّة اللورازيبام في دمها، وهذا لم يُذكر في التقرير الذي استلمته عائلتي".

سألتها قبل أن أتناول قضمة كبيرة من البرغر: "لورازا ماذا؟".

أجابت أونا عابسة: "لورازيبام. إنّها مادّة مسكّنة على ما أعتقد". كانت ميلي قد أخرجت هاتفها وبدأت تجري بحثاً عن الاسم.

قالت: "نعم، ها هي".

ازداد عبوس أونا. "أنا لا أفهم. كانت كايلا معتادة على الشرب، وقد شربت تلك الليلة، مع الأسف. لكنّها لم تتعاطَ المخدّرات. لا أعرف حتّى من أين حصلت على شيء كهذا، ولماذا هو مذكور في هذه النسخة من التقرير، دوناً عن نسختنا؟".

"ماذا لو..." تردّدت ميلي وهي تعبث بطرف كعكة البرغر. لم يكن أحد سواي يأكل. "ماذا لو أنّ أحدهم أعطاها إيّاه؟ أقصد المخدّر". ألقت نظرة قلقة نحو أونا، التي شحب وجهها. تابعت: "وقام د. باكستر بالتغطية على الجريمة؟ فقد قال إنّه ارتكب ظلماً جسيماً، أليس كذلك؟".

قال آرتشر: "تجاهي، ولم يكن... أعني، كنت أهتمّ لأمر كايلا، بالطبع، ولكن إن كان هذا الظلم الجسيم قد لحق بأيّ منّا، فسيكون آندرز. إذ أنّ قلبه تحطّم حزناً عليها، مع أنّها كانت قد تخلّت عنه مجدّداً".

قالت أونا: "أذكر ذلك". وضعت التقرير من يدها المرتجفة وتابعت قائلة: "لقد ذهبَت لرؤيته في هارفارد في يوم الشكر من ذلك العام وعادت مستاءة للغاية. لم تخبرني عن السبب، واكتفت بالقول، عليّ التحدّث إلى السيّدة رايان".

تساءلت ميلي: "السيّدة رايان؟ مساعدة جدّتي؟".

أومأت أونا برأسها مجيبة: "نعم، ولا أعرف السبب. لم تكونا مقرّبتين على نحو

خاصّ. صحيح أنّ كايلا واعدت ابنها لفترة وجيزة، لكن..." ظهرت ابتسامة ساخرة على زاوية فمها قبل أن تتابع: "لم تكن من نوع العلاقة التي تجعلهما يمضيان وقتاً مع أهالي بعضهما البعض".

بدت ميلي وكأنّ دماغها على وشك الانفجار. "مهلاً، وهل للسيّدة رايان ابن؟".

صحّح لها آرتشر قائلاً: "كان لديها ابن. كان اسمه مات، وقد توفّي هو الآخر في العام الذي سبق وفاة كايلا".

سألَت ميلي: "إذاً كان آندرز يواعد كايلا، التي كانت تواعد مات والآن... توفّي كلّ من كايلا ومات؟". التفتَت إلى آرتشر وقد اتّسعت عيناها دهشة: "كيف توفّي مات؟".

"توفّي غرقاً في شاطئ كاتي"، ما كاد آرتشر يقول ذلك حتّى كادت أوبري تختنق. فمدّ يده ليضربها على ظهرها قبل أن يدرك أنّها لم تكن تأكل. "ما الخطب يا أوبري؟".

شهقت قائلة: "شاطئ كاتي؟ لقد ذكر... لقد ذكر أبي ذلك الشاطئ في كتابه. وأخبرتني أمّي أنّه لم يكن يحبّ ذلك المكان بتاتاً".

قال آرتشر: "في الواقع، كانت وفاة مات مؤلمة للغاية. فقد حدثت خلال حفلة، وكنّا جميعاً هناك. كانت ليلة عاصفة وجنونية، والكلّ كانوا يشربون. ولم يدرك أحد أنّ مات اختفى إلّا بعد فوات الأوان. بحثنا عنه في كلّ مكان، وشعرت أليسون بالقلق الشديد لدرجة أنّها أصرّت على استدعاء الشرطة، الذين انتهى بهم الأمر بجلب خفر السواحل، و... حسناً. بحثوا طوال الليل، لكنّهم لم يعثروا على جثّة مات إلّا في اليوم التالي. كان ذلك مروّعاً". مرّر يده على وجهه. "لماذا نتحدّث عن ذلك مجدّداً؟ أنا أفقد مسار الحديث".

قالت أونا: "وأنا أيضاً لا أدري". كانت تزداد شحوباً. "لكن أخشى أنّني فقدت شهيّتي. ففكرة أن تكون كايلا قد خُدّرت من قبل أحدهم-"

قال آرتشر بسرعة: "نحن لا نعرف ما إذا كان ذلك قد حدث بالفعل. كلّ ما نعرفه أنّ فريد باكستر كان يملك نسختين من تقرير تشريح الجثّة. وربّما كانت هذه النسخة خاطئة".

قالت أونا بتعبير مضطرب: "ربّما. كلّ هذه السنوات، شعرتُ بالذنب الشديد تجاه وفاة كايلا. فقد كنت أعلم أنّها تكافح مع أمر ما، لكن بدلاً من محاولة مساعدتها، غضبتُ منها لأنّها كانت تُكثر من الشرب. وبعد ذلك، عندما ماتت هكذا...".

التفت آرتشر ونظر إلى أونا بتعاطف وتعب. قال: "ما من شيء كان يمكنك فعله. لا أحد يستطيع أن يمنع شخصاً عازماً على الشرب من القيام بذلك".

نظرَت إليه، وارتسمت ابتسامة حزينة على شفتيها. "ربّما لا، ولكن يمكن المحاولة، أليس كذلك؟".

الفصل الثاني والعشرون

ميلي

استلقى الخال آرتشر على الأريكة بعد أن غادرت أونا، ولذلك تولّينا أنا وأوبري وجونا أعمال التنظيف بعد الغداء. لم يكن ثمّة الكثير لفعله باستثناء تنظيف المشواة، ووضع الأواني القليلة التي استخدمناها جانباً، والإلقاء بالأكواب والأطباق الورقية في كيس قمامة. عندما انتهينا، ذهب جونا للبحث عن سلّة مهملات لرمي القمامة، وعدنا أنا وأوبري إلى الشرفة.

نظرت أوبري إلى المقاعد المعدنية الصلبة قائلة: "لقد تعبت من الجلوس على هذه المقاعد، فهي ليست مريحة. انتظري لحظة". ثمّ دخلت المنزل، وعادت حاملة بطانية كبيرة. ساعدتها لمدّها فوق بقعة من العشب، ثمّ استلقينا عليها ورحنا نحدّق إلى النجوم.

قلت وأنا أتثاءب: "أتعلمين، المكان رائع حقّاً هنا. من المؤسف أنّنا على وشك الرحيل".

تنهّدت أوبري قائلة: "أجل". ثمّ وكزت ذراعي بخفّة بعقد أصابعها قائلة: "سأشتاق إليك".

شعرتُ بغصّة في حلقي وأجبتها: "وأنا أيضاً". جلسنا بصمت لبضع لحظات، وشردنا

في أفكارنا، إلى أن بدأ تفكيري يعود إلى الأمور العمليّة. سألتها: "هل خطر ببالك كيف سنعود إلى المساكن هذه الليلة؟".

ضحكت أوبري مجيبة: "ليس حقّاً. ربّما يمكننا إرسال رسالة إلى إفرام"، ثمّ أضافت: "أو البقاء هنا ببساطة، فثمّة غرفة إضافية".

اعترضتُ قائلة: "ليس لدينا ما ننام به".

أشارت إلى سروالها القصير قائلة: "هذه مشكلة بالنسبة إليك فقط".

صدر حفيف عن العشب بجانبنا، فالتفتُّ لأرى حذاء جونا يقترب من البطانية. توقّف قائلاً: "أهذه جلسة أقرباء فقط؟".

جلستُ وأبعدت شعري خلف كتفي. كانت تلك حركتي التلقائية للفت الانتباه. لم يعد عقلي الباطن غاضباً من جونا، وربّما أنا أيضاً. "كلّا، تعال، اجلس معنا".

جلس بجانبي، واعتدلت أوبري في جلستها هي الأخرى. سقط هاتفها من جيبها في أثناء ذلك مع بطاقة فضّية رقيقة. فاستعادت هاتفها لكنّها لم تلاحظ البطاقة، لذلك تناولتها وأعطيتها إيّاها. "لقد أسقطتِ هذه".

"أوه، شكراً". حتّى في ضوء القمر، رأيت تكشيرتها. "لقد نسيت أمرها".

إحساس الذنب الذي بدا في صوتها جعلني أتساءل. "ماذا أخذتِ؟".

"اممم، إنّها البطاقة التي تفتح بوّابة كاتمينت هاوس. أعتقد... لقد بدت شبيهة بتلك التي يستخدمها السائق. لذلك اختطفتها من منزل جدّتي عندما طلبت منّي السيّدة رايان الرحيل".

سألتُها: "ماذا أخذتِ؟" بينما بدأ جونا يضحك.

قال: "تبّاً يا أوبري، لقد انتقلتِ إلى المستوى التالي من أشكال الانتقام الصغيرة. هل كنت تخطّطين للعودة في منتصف الليل ونهب المكان؟".

أقرّت أوبري قائلة: "لم تكن لديّ خطّة في الواقع. لقد كان فعلاً وليد اللحظة". ثمّ وضعت البطاقة في جيبها ومدّدت ذراعيها فوق رأسها. "يا له من يوم غريب، وكذلك هذه الليلة".

قال جونا: "لم أعد قادراً على مواكبة كلّ المستجدّات".

سألتهما: "من المثير للاهتمام كيف نعود دائماً إلى آندرز، أليس كذلك؟". بينما كنّا ننظّف المكان، لم أكفّ عن التفكير في ابتسامة خالي الساخرة في الحفلة الصيفية في الليلة الماضية. كيف بدا وكأنّه يستمتع بكلّ تلك الأكاذيب.

توقّعت من جونا أن يوافق على الفور، باعتبار مدى كرهه للخال آندرز. لكنّه قال: "ليس هو وحده". التفتُّ إليه باستغراب فأضاف: "نحن نعود دائماً إلى تيريزا رايان أيضاً. وعلى عكس آندرز، هي لم تغادر الجزيرة قطّ. كانت هنا طوال الوقت، تهمس في أذن جدّتكما".

تحرّكتُ على البطانية. "ماذا تقول؟"

"اسمعي، قد تكون المرأة غير متّزنة. ربّما دفعها فقدان ابنها إلى حافة الجنون، لذلك فعلت شيئاً لكايلا دوغاس وجعلت د. باكستر يغطّي على ذلك. وربّما عرفت جدّتك بما جرى، ولكنّها شديدة الاعتماد على تيريزا لفعل أيّ شيء حيال ذلك. فقد قطعت علاقتها

بكلّ أولادها أساساً، ولذلك من الذي سيعتني بها؟" هزّ كتفيه أمام تعبيري المرتاب. "هذا ليس أكثر غرابة من أيّ شيء آخر حدث هنا على مدار العشرين عاماً الماضية، أليس كذلك؟"

كان عليّ أن أقرّ بوجهة نظره. "ولكن لماذا تؤذي السيّدة رايان كايلا؟".

قال جونا: "لا أدري، لكنّ جدّتك أصابها الفزع عندما ذكرت أوبري اسمها، أليس كذلك؟ هذا يعني أنّه ثمّة أمر ما يتعلّق بها".

قمعت أوبري من دون نجاح رغبتها في التثاؤب ثمّ قالت: "أنا منهكة يا رفاق، لم أعد قادرة على فتح عينيّ. هل تمانعين إذا بقينا هنا هذه الليلة يا ميلي؟ فذلك السرير الإضافي يناديني. إنّه سرير مزدوج، ولذلك يمكننا مشاركته. وأعدك أنّني لا أركل".

أجبتها: "بالتأكيد"، ثمّ نظرت إلى تنّورة ثوبي الأحمر. لم يكن مناسباً تماماً للنوم، ولكن أعتقد أنّني أستطيع تدبّر أمري لليلة واحدة.

لاحظ جونا ذلك وقال: "يمكنك استعارة شيء من ملابسي إذا أردتِ"، ثمّ أضاف بسرعة: "جميعها نظيفة".

"حسناً، يناسبني ذلك"، ثمّ نهضت أوبري وتنهّدت مرتاحة.

"إذاً أنا ذاهبة. أراكما غداً".

راقبتها وهي تفتح الباب الزجاجي المنزلق وتختفي في الداخل، ثمّ التفتُّ إلى جونا بابتسامة صغيرة. "شكراً على إعارتي بعضاً من ملابسك. لم أكن أتوق للنوم في ثوبي".

قال جونا: "لا سيّما إذا كان إرثاً عائلياً، أليس كذلك؟" أملتُ رأسي بحيرة، فأضاف:

"هذا ثوب والدتك، أليس كذلك؟".

ضحكتُ مستغربة. "نعم، ولكن كيف عرفت؟".

"أنت أخبرتنا، في ذلك اليوم الأوّل. كنت ترتدينه على العبّارة".

"لا أصدّق أنّك تذكر ذلك".

"أذكر أكثر من ذلك. كنت تضعين نظّارة شمسية، مع أنّ الطقس كان ممطراً. وشبّهتني بأحد عارضي جي كرو وبقزم مصاب بالإمساك في جملة واحدة". ضحكتُ قليلاً، ولكن كان ذلك أحد أفضل أقوالي. "ثمّ اشتريتِ لنا جميعاً الشراب، وحاولتِ حملنا على إفشاء بعض الأسرار. كان لديّ ثلاثة. الأوّل أنّني لست ابن خالك في الواقع، والثاني أنّ خالك تسبّب بإفلاس والديّ، وكنت ألاحق فكرة سخيفة بجعله يدفع ثمن ذلك".

اعترفتُ قائلة: "لم يكن ذلك سخيفاً على الإطلاق، وربّما كنت سأساعدك لو أخبرتني".

"كان عليّ ذلك". ثمّ نظر إليّ وجهاً لوجه، وجعلتني الحدّة المفاجئة في تعابيره أمسك أنفاسي. "لكنّ سرّي الثالث ظلّ يشتّت أفكاري، وهو أنّني وجدتك أجمل فتاة رأيتها على الإطلاق. لذا كما ترين"، قال وهو يمرّر يده على يدي: "أنا أذكر كلّ شيء".

سبّب لي مزيج كلماته ولمسته قشعريرة، لكنّني سحبت يدي قائلة: "أنت لا تريد التورّط مع فتاة من أسرة ستوري، فنحن في حالة فوضى".

ابتسم قائلاً: "نعم، حسناً، وأنا كذلك. حتّى إنّني فشلت في أن أكون واحداً منكم. وتسبّبتُ بطردنا من الحفل الصيفي بسبب ذلك".

نعم ولا. ما الذي قاله الخال آرتشر سابقاً؟ فكّري في المغفرة أيضاً، اتّفقنا؟ إذا كانت ثمّة صفة واحدة أتمنّى أن تتمتّع بها عائلة ستوري بقدر أكبر، فهي القدرة على الغفران. وقد كان على حقّ، لكنّني أدركت فجأة أنّه لم يقصد فقط أنّ علينا أن نغفر للآخرين، كما لم تستطع ميلدريد أن تفعل. فبناءً على الحديث الذي جرى بينه وبين أونا اليوم، أعتقد أنّه كان يتحدّث أيضاً عن مغفرتنا لأنفسنا. ولا يمكن فعل ذلك من دون الاعتراف أنّنا ارتكبنا خطأً في المقام الأوّل.

هكذا اعترفت قائلة: "لقد كان خطأي أنا أيضاً. فقد رميت بنفسي عليك بينما كنت تحاول مساعدتي. أعني، كان الخال آندرز قادماً ليدمّر كلّ شيء على أيّ حال، ولذلك كنّا سنُطرد عاجلاً أم آجلاً. لكنّ الأمور كانت ستصبح أقلّ إحراجاً لو أنّني لم أضعك في هذا الموقف في وسط حفلة جدّتي".

ابتسم جونا. "هذا الجزء الوحيد من الليلة الذي لم أندم عليه".

تسارع نبضي وأنا أمدّ يدي لأعبث بطرف قميصه. "وأنا لست نادمة أيضاً، باستثناء الجرعة الزائدة من الشراب، والجمهور".

"حسناً، لا أحد هنا الآن". مرّر إبهامه على وجنتي وسرت قشعريرة في ظهري. "إذا كنت ترغبين في المحاولة مجدّداً".

وهذا ما حدث.

الفصل الثالث والعشرون

أوبري

حالما دسست نفسي بين الملاءات في غرفة العمّ آرتشر الاحتياطية، عرفت أنّني لن أتمكّن من النوم على الفور. هذا أمر يحدث لي في بعض الأحيان. إذ أصاب بالإرهاق الشديد لدرجة أنّ رياحاً ثانية غير مرحّب بها تهبّ وتبقي عينيّ مفتوحتين على الرغم من أنّني في أمسّ الحاجة لإغماضهما. لكنّني لا أريد العودة إلى الخارج، لأنّني متأكّدة تماماً من أنّ ميلي وجونا يفضّلان البقاء على انفراد.

تناولتُ هاتفي من على المنضدة. كانت البطّارية ضعيفة ولم أحضر شاحناً معي. ربّما يمكنني إجراء مكالمة هاتفية واحدة، ويجب أن تكون مع أمّي لشرح كلّ ما حدث واتّخاذ الترتيبات للعودة إلى المنزل، لا سيّما وأنّه عليّ منحها الوقت للقيام بترتيبات السفر. فبحسب تذكرة السفر، لم يكن بإمكاني العودة إلى أوريغون قبل أواخر أغسطس، وليست لديّ أيّ فكرة عن مدى سهولة تغيير الموعد.

غير أنّ تعبي وإحباطي غذّيا إحساساً خفيفاً بالاستياء، ودفعاني إلى طلب رقم مختلف. حتّى إنّني شعرتُ بالسرور عندما أجاب. قال: "حسناً، هذه مفاجأة".

أجبت وأنا أسند الوسادة الرقيقة على ظهر السرير حتّى أتمكّن من الجلوس:

"مرحباً أبي، أردت إخبارك أنّني غاضبة حقّاً منك لأنّك خنت أمّي، ولقيامك بذلك مع مدرّبتي. وأعتقد أنّه عليك أن تعتذر لي. إذا فعلتَ ذلك، وكنت تعنيه، فربّما يمكنني أن أبدأ بمحاولة مسامحتك".

قال أبي: "ليست لديك فكرة عن مدى تعقيد الوضع". كنت أعرف كيف سيجيب، لكن مع ذلك، ضاق صدري لدى سماع نبرة صوته. "الأمر يتطلّب أكثر من شخص واحد لاستمرار الزواج، ووالدتك-"

"كلّا". قاطعته من دون تردّد، وهو أمر ما كنت لأجرؤ على فعله قبل شهر. ومنحني ذلك شعوراً ممتعاً. "لا يمكنك إلقاء اللوم عليها".

"إذا كنت لا تنوين الإصغاء-"

"لا أنوي". قاطعته مجدّداً وكنت هادئة على نحو غريب، وقلبي يخفق بثبات بدلاً من الخفقان السريع الذي شعرت به في آخر مرّة تحدّثت معه. "ماذا فعلتَ لجدّتي؟".

"المعذرة؟".

"ماذا فعلت لتدفعها على التبرّؤ منك؟".

تسلّل شيء من المرارة إلى صوته. "لقد أخبرتك مائة مرّة أنّني لم أفعل شيئاً".

"أنا لا أصدّقك". انقسم عقلي إلى قسمين. من جهة، كنت أرى تلك الصورة القديمة المعلّقة في سويتفيرن لأبي وجدّتي، وابتسامتها المشعّة بحبّ وفخر الأمومة. ومن جهة أخرى، كنت أرى جدّتي كما رأيتها اليوم على الشرفة، بوجهها المليء بالألم، حتّى قبل أن أسكب عليها القهوة الحارقة. هل تعتقدين أنّ والدك رجل يستحقّ المعرفة؟ "ماذا حدث

لكايلا دوغاس؟".

"ومن أين تعرفين كايلا دوغاس بحقّ الجحيم؟".

"لا يكفّ الناس هنا عن الحديث عنها".

قال أبي: "لقد شربت وصدمَت شجرة بسيّارتها". بدا نافد الصبر وسريع الانفعال أمام السؤال، لكنّه لم ينزعج حقّاً. لذلك جرّبتُ تكتيكاً مختلفاً.

سألته: "ماذا حدث على شاطئ كاتي؟".

سألني بعد صمت قصير: "ماذا حدث - أين؟ أنت مشوّشة تماماً الليلة يا أوبري، لا بدّ أنّك مرهقة. أعتقد أنّه عليك الذهاب إلى النوم".

"لقد كتبتَ عن شاطئ مثله في كتابك. إنّه المكان الوحيد في جزيرة النورس الذي كتبتَ عنه. لماذا؟ هل لذلك علاقة بغرق مات رايان؟".

كانت شهقة أبي الحادّة والمصدومة صاخبة في أذني. "كيف يمكنك-؟ أوبري، عليك أن تستعيدي السيطرة على نفسك. لا أعرف سبب تركيزك فجأة على مآسٍ مرّت عليها عقود، ولكنّ وفاة مات كانت نتيجة حادث مروّع ولا علاقة لها بأمّي".

"أظنّ أنّك مخطئ". لا أعرف لماذا أعتقد ذلك - فثمّة فكرة تتسلّل إلى عقلي الباطن، ولكنّها ترفض الظهور بشكل كامل. والدي محقّ بشأن أمر واحد: أنا مرهقة. بدأ جفناي يتدلّيان كما حدث في الخارج، لكنّني طردتُ النعاس من نبرة صوتي وأنا أسأله: "لماذا لا تخبرني بما حدث يا أبي؟ ماذا فعلت؟ كن صريحاً معي لمرّة واحدة في حياتك".

أتى صوته نقيّاً كالجليد: "أوبري، لم يحدث شيء".

"أنت تكذب". ثمّ قطعت الخطّ وسحبت الوسادة مجدّداً إلى المرتبة. قد أكون على بعد ثوانٍ من الاستغراق في النوم، لكنّني واثقة من أنّني على حقّ.

عندما استيقظت، كانت ميلي نائمة بجانبي. أيّاً يكن ما حدث بينها وبين جونا، فهو لم يدم طوال الليل. وجدت هاتفي شبه مدفون تحت شعرها، فسحبته بهدوء ووضعته في جيبي قبل أن أنزلق من السرير وأتوجّه إلى غرفة المعيشة.

لم يكن العمّ آرتشر ممدّداً على الأريكة اليابانية. لا بدّ أنّه استيقظ في وقت ما من الليل وتوجّه إلى غرفته. رأيت كوباً على طرف الطاولة، نصف ممتلئ بسائل صافٍ. فاقتربت واشتممته، وعرفت بكلّ تأكيد أنّه ليس ماء. فكّرت في التخلّص منه، لكنّني أعدته إلى مكانه مجدّداً. فتدخّلي الصغير هذا لن يحدث فرقاً في المعركة التي يخوضها العمّ آرتشر مع نفسه.

كان المنزل صامتاً باستثناء دقّات ساعة طويلة موضوعة في إحدى الزوايا. كانت تشير إلى الثامنة، ومن المبكر إيقاظ أحد. فذهبت إلى المطبخ وبحثت في الخزائن إلى أن وجدت قهوة وفلاتر. أنا لا أتناول القهوة في الصباح، لكنّني أعلم أنّ ميلي لا تستطيع أن تبدأ نهارها من دونها. بمجرّد أن جهّزتُ القهوة لتختمر، انتعلت حذائي الرياضي الذي خلعته عند الباب في الليلة الماضية، ثمّ فتحتُ الباب الزجاجي.

كان الطقس جميلاً في الخارج. صباح صيفي مثالي منعش، وسماء زرقاء مشرقة تتخلّلها سحب خفيفة. في الليلة الماضية، عندما ذهبنا للبحث عن المشواة، لاحظت وجود درّاجة مسندة إلى جدار كوخ البستنة. لا أذكر ما إذا كانت الدرّاجة مقفلة أم لا، لكن إذا

لم تكن كذلك، فسأتمكّن من ركوبها والتجوّل في الحيّ بينما ينام الجميع. ربّما يمكنني حتّى الوصول إلى أقرب شاطئ.

ابتسمتُ عندما وجدت الدرّاجة متاحة للركوب. كانت إطاراتها جميلة ومنفوخة، والمقعد بالارتفاع المثالي بالنسبة إليّ. قدتها خارج الكوخ إلى الفناء الخلفي، وشعرت بالحماسة للحركة وتمرين ساقيّ. ربّما تكون أفضل ذكرى لديّ عن والدي هي تعليمي ركوب الدرّاجة عندما كنت في السادسة من عمري. كان يغطّي بيديه الكبيرتين يديّ الصغيرتين بينما أُمسك بمقابض درّاجتي الوردية و- أوه.

كدت أسقط عن الدرّاجة وأنا أحدّق إلى يديّ، فيما اجتاحت فكرة صادمة عقلي. كنت على وشك التوصّل إليها في الليلة الماضية، عندما تذكّرت صورة والدي وجدّتي المعلّقة في سويتفيرن، لكنّني وضعت بجانبها الصورة الذهنية الخاطئة. كنت أفكّر في وجه جدّتي: نصف المظلّل دائماً بقبّعتها، والذي يسوده الحزن. لكن كان يجدر بي أن أفكّر بيديها، عندما خلعت عنهما القفّاز أمامي للمرّة الأولى، ورأيتهما مجعّدتين ومكسوّتين بالبقع، لكنّهما في ما عدا ذلك خاليتان من الشوائب.

بحثت في جيبي عن البطاقة التي تفتح بوّابة كاتمينت هاوس، فوجدتها معي. تناولت بعد ذلك هاتفي، الذي انخفضت بطّاريته إلى واحد بالمائة. لم يسبق له أن بلغ هذا المستوى المنخفض من قبل، لكن لا بدّ أنّه ما زال بإمكاني إرسال بعض الرسائل النصّية. غير أنّني استطعت إرسال واحدة فقط إلى العمّ آرتشر قبل أن تنطفئ الشاشة.

لا يهمّ. سأحصل على ما أحتاج إليه لإثبات صواب رأيي، وبعد ذلك سأخبرهم بكلّ شيء. دفعت الدرّاجة عبر البوّابة، ثمّ قفزت على المقعد وانطلقت.

الفصل الرابع والعشرون

جونا

استيقظت على رائحة اللحم المقدّد المقليّ، فنهضت من فراشي على الفور. عندما دخلت المطبخ، كان آرتشر واقفاً أمام الفرن، وميلي جالسة إلى الطاولة تحمل فنجان قهوة في كلتا يديها. كانت ترتدي القميص القطني الذي أقرضته إيّاها في الليلة الماضية، بينما انسدل شعرها الأسود المشعّث قليلاً على كتفيها.

سألتهما وأنا أجلس بجانب ميلي: "أين أوبري؟".

أجاب آرتشر: "مكانها غير واضح". كان يستعمل ملقطاً لنقل شرائح اللحم من المقلاة إلى طبق مغطّى بمديل ورقي على المنضدة بجانبه. "ليست هنا، وقد أرسلت لي رسالة نصّية غريبة تثير من التساؤلات أكثر ممّا تجيب".

سألته: "ماذا قالت فيها؟".

ذهب آرتشر إلى الطاولة، ووضع طبق اللحم بجوار نسخة ملفوفة من مجلّة النورس. "قالت، لم يكن ثمّة وحمة".

انتزعت ميلي شريحة لحم قبل أن يتسنّى لآرتشر الوقت لسحب يده بعيداً. فتناولتُ اثنتين أنا أيضاً وسألته: "وما معنى ذلك؟".

قالت ميلي وهي تقسم شريحتها إلى قسمين وتقضم أحد الأطراف: "كنّا نفكّر في هذا الأمر طوال الصباح، أعني، لدى أوبري وحمة، ولذلك..." هزّت كتفيها متابعة: "ما من سبب لإرسال رسالة نصّية لنا حول هذا الموضوع".

جلس آرتشر وبدا عليه التفكير. "أتمنّى لو أنّها تردّ على هاتفها".

قالت ميلي: "لقد انطفأ على الأرجح، وهاتفي يوشك على ذلك هو الآخر".

فتح آرتشر مجلّة النورس وبدأ يتصفّحها، ثمّ تمتم قائلاً: "عندما أغادر، لن أشتاق إلى كون نصف الأخبار اليومية عن والدتي".

تشنّجت ميلي وسألته قائلة: "لا مزيد من الأخبار عن الحفل، أليس كذلك؟".

"كلّا، بعض اللوحات التي باعتها في دار سوذبي تمّ شراؤها بثروة صغيرة". قلب الصفحة. "كما تعلمان، كان ذوق والدي دائماً سيّئاً في الفنّ، ولطالما مازحناها حيال ذلك. لذا لا بدّ أنّ تيريزا كانت ترشدها طوال هذه السنوات حتّى حوّلتها إلى متذوّقة للفنون".

تبادلنا أنا وميلي النظرات، واستطعت قراءة صدى ما أفكّر فيه على وجهها: تيريزا، مجدّداً. لقد تشتّت انتباهنا في الليلة الماضية، لكن أعتقد أنّني أجد تيريزا غير متوازنة. فثمّة أمر غريب في امرأة تقضي معظم حياتها في قصر على شاطئ البحر، من دون رفقة أخرى سوى مديرتها. ولكن قبل أن يتمكّن أيّ منّا من قول شيء، رنّ جرس الباب.

نهض آرتشر عاقداً حاجبيه قدميه. "قد تكون هذه أوبري".

فسألَت ميلي: "هل الباب مقفل؟".

"لم أكن أعتقد ذلك، ولكن..." لم يتابع جملته وهو يغادر المطبخ.

عاد انتباهي إلى ميلي، التي كانت لا تزال تتناول إفطارها. قلت: "مرحباً"، وشعرت بفرح عارم لكوني معها بمفردنا مجدّداً، حتّى ولو لدقيقة واحدة.

ابتلعَت ريقها وتناولت رشفة من قهوتها. "أهلاً".

"يعجبني قميصك".

"شكراً لك، إنّه مريح للغاية".

شرد نظري إلى ساقيها. "إنّه يعطيني... أفكاراً".

"احتفظ بها لنفسك". ولكنّها ابتسمت وهي تقول ذلك. أصبح صوت الهمهمات البعيدة أعلى، قبل أن يدخل آرتشر المطبخ، ومعه هيزل في عقبيه. قالت: "... آسفة لمقاطعة إفطارك"، ثمّ رأتنا أنا وميلي ولوّحَت باعتذار. "إفطاركم جميعاً. مرحباً يا شباب".

"أهلاً"، أجبناها معاً، بينما أشار لها آرتشر للجلوس على كرسيّ فارغ.

قال: "أنت لم تزعجينا على الإطلاق. هل ترغبين في الإنضمام إلينا؟".

"كلّا شكراً، أردت فقط إعطاءكم هذا". فتحَت هيزل سحّاب حقيبة قماشية كانت تحملها على كتفها ومدّت يدها بداخلها. "سألتني ما إذا كان ثمّة شيء آخر في ملفّات جدّي موجّه إليّ أو إليك. في الواقع، بحثتُ بين مجموعة من الأشياء في الليلة الماضية، ووجدت ظرفاً يحمل اسمي. ها هو". ثمّ أخرجت ورقة وأعطتها لآرتشر.

مالت ميلي إلى الأمام متسائلة: "ما هذا؟".

تأمّل آرتشر الورقة ثمّ قلبها وواصل القراءة. "يبدو أنّه تقرير طبّي لوالدتي. إنّه

تشخيص لـ..." صمت عابساً. "لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً".

"ماذا؟" نهضت ميلي لتنظر من فوق كتفه. "ما معنى... اعتلال عضلة القلب الضخامي؟" نطقَت بالكلمات ببطء ووضوح.

قال آرتشر: "إنّها حالة تكون فيها عضلات القلب سميكة بشكل غير طبيعي. يمكن أن تكون الحالة خفيفة أو مميتة، بحسب الدرجة. كان والدي يعاني منها، ولكن لم يعرف أحد حتّى وفاته. لذا لا بدّ أن يكون هذا خطأ. اسم والدتي مكتوب على تشخيص طبّي بعد الوفاة لوالدي".

سألته هيزل: "ومتى توفّي؟".

صمت آرتشر مفكّراً. "نحو عام 1995".

أشارت هيزل قائلة: "هذا من عام 1996، وقد تمّ إجراء مخطّط صدى القلب وكلّ الفحوصات المصاحبة".

قال آرتشر وقد ازداد عبوسه عمقاً: "هاه، إذاً، إن كان ما أقرؤه صحيحاً، فإنّ والدتي تعاني من حالة والدي نفسها. لكنّها عاشت معها لمدّة... ماذا؟ خمس وعشرين سنة؟ لا بدّ أنّها تتعامل مع الحالة بشكل جيّد. أنا لا أفهم لماذا أراد د. باكستر منك رؤية هذا التقرير يا هيزل". أعاد لها الورقة بابتسامة لطيفة. "كنت أتساءل - هل تعتقدين أنّ رسالته لك، وتقرير تشريح الجثة، قد تكونان مجرّد هلوسات رجل يعاني من الخرف؟ فالإرباك الذهني جزء من الحالة، أليس كذلك؟".

قالت بتشكّك: "أظنّ ذلك".

قلت: "لقد قال دونالد كامدن بالفعل إنّ السيدة ستوري مريضة، وذلك في المرّة الأولى التي تحدّثنا فيها معه. وقد أراد منّا أن نغادر الجزيرة بسبب ذلك. لكنّها بدت بخير كلّ مرّة رأيناها فيها".

نظرت ميلي إلى الأعلى بسأم. "أنا لا أعتقد أنّه بإمكاننا تصديق أيّ شيء يقوله دونالد ما لم يكن يفيد دونالد، والشيء الوحيد الذي يبدو أنّه يهتمّ به... أوه. مهلاً"، أضافت ذلك بنبرة أكثر انخفاضاً، وبدا واضحاً أنّ فكرة ما تدور في رأسها. فجأة امتلأ وجهها باللون وأصبحت عيناها حادّتين ومشرقتين. "خال آرتشر، قلتَ هذا الصباح إنّ ذوق ميلدريد في الفنّ تحسّن على مرّ السنين، أليس كذلك؟ وأنّه كان مروّعاً في السابق؟".

سأل آرتشر: "نعم، لماذا؟".

"والبارحة، لم أفكّر في ذلك لأنّ كلّ شيء كان غريباً أساساً، ولكن البارحة في كاتمينت هاوس، سألتُ تيريزا عمّا إذا كانت ترغب في مشاهدة مباراة يانكيز-ريد سوكس معي، فرفضت وقالت إنّها لا تشاهد مباريات البيسبول".

نظر إليّ آرتشر باستغراب: "حقّاً؟ هذا غريب. كانت تيريزا من مشجّعي اليانكيز عندما كنّا نعيش هنا. كانت هي وأليسون الوحيدتين اللتين تشجّعان هذا الفريق".

قالت ميلي بصوت أكثر إلحاحاً: "أعرف. وقد كان لدى كايلا ما تريد قوله لتيريزا، أليس كذلك؟ ثمّ ماتت. وكان لدى د. باكستر ما يريد قوله لك، ثمّ مات. بالتالي، ماذا لو... خال آرتشر، ماذا لو لم يكونا هما الوحيدان اللذين ماتا؟".

شحب وجه آرتشر تماماً. "أنا آسف يا ميلي، ولكنّني لم أعد أفهم".

أخذت التقرير الطبّي من يد هيزل ولوّحت به أمامه. "كانت ميلدريد تعاني من حالة قلبية مميتة، أليس كذلك؟ تمّ تشخيصها في عام 1996. وبعد عام واحد، أخرجَت جميع أولادها من حياتها ولم تعرفوا السبب مطلقاً. إذاً، ماذا لو لم تفعل؟ ماذا لو لم تستطع؟".

كان كلّ من آرتشر وهيزل يحدّقان إلى ميلي وكأنّها فقدت عقلها. لكنّني بدأت أفهم ما تعنيه. نظرت إلى هاتف آرتشر، الذي كان متروكاً على طاولة المطبخ، وصدمتني فكرة مفاجئة. قلت: "الرسالة". للحظة، لم أستطع التنفّس. "رسالة أوبري. قالت، لم يكن ثمّة وحمة".

قال آرتشر: "أعلم، أنا قرأتها لكما".

التفتت ميلي لتنظر إليّ. "يا إلهي، أنت على حقّ. كانت تتحدّث عن ميلدريد". التفتت من جديد إلى آرتشر وقالت لاهثة. "لقد سكبت أوبري القهوة الساخنة على ميلدريد أمس، فاضطرّت لخلع قفّازها. أنا واثقة من أنّ أوبري لم تر وحمة، أعني تلك الوحمة الكبيرة الحمراء التي تحملها ميلدريد على يدها، وأوبري على ذراعها. لا بدّ أنّ أوبري أدركت أنّه لا وجود لها". صمتت بانتظار أن يفهم آرتشر وتتغيّر ملامحه، لكن لم يحدث شيء. "لأنّني أعتقد... ربّما... تلك المرأة التي تعيش في كاتمينت هاوس ليست والدتك، ليست جدّتي. إنّها شخص آخر، شخص احتلّ مكان ميلدريد".

خيّم السكون على المطبخ بحيث استطعت سماع دقّات قلبي. أخيراً، قال آرتشر بصوت بلا انفعال: "احتلّت مكانها. ميلي، هذا جنون. لا يمكن... لا يمكن لشخص أن يحتلّ مكان شخص آخر".

سألَت ميلي: "ولمَ لا؟".

قال آرتشر: "لأنّ... لأنّ... لأنّ الناس سيعرفون!".

أشارت ميلي: "ليس إذا رفضت رؤيتهم بعد ذلك".

بدا وجه آرتشر متشنّجاً ومرعوباً. "كفى يا ميلي، كيلامك غير منطقي على الإطلاق". ثمّ أفلتت منه ضحكة مرتعشة، ومرّر يده على فمه. "أنا بحاجة إلى شراب. هذا - أنت... لا أستطيع-" التفت وبدأ يفتّش في الخزائن. "أمّي لم تمت، حبّاً بالله. لكان الناس عرفوا. تيريزا ودونالد كامدن ود. باكستر-"

"هل تسمع الأسماء التي تخرج من فمك؟". كنت أنا من قاطعه هذه المرّة. فميلي تحتاج إلى الدعم، لأنّ آرتشر يفقد تركيزه. "دونالد كامدن؟ الذي يبدو أنّ وظيفته تقوم على منع أيّ شخص يحمل اسم ستوري من الاقتراب من ميلدريد. دكتور باكستر؟ كان يحاول إخبارك أنّه ثمّة خطب ما. وتيريزا؟ إنّها-"

استدار آرتشر وهو يصيح تقريباً: "لماذا؟". كان الرعب بادياً في عينيه ويداه مقبوضتين إلى جانبيه. "لماذا يقدم أيّ شخص على عمل كهذا؟ تجاهها وليس تجاهنا؟".

أتى صوت ميلي خافتاً وهادئاً، كما لو أنّها تحاول تهدئة حيوان خائف. "حسناً، المال حافز كبير، أليس كذلك؟ من شأنه أن يحفز دونالد كامدن، أنا واثقة من ذلك. وربّما..." استدارت نحو هيزل، التي بدت مصدومة تماماً. "أنا آسفة، ولكن ما من طريقة مهذّبة لقول ذلك. هل حصل جدّك على مبلغ مالي كبير منذ أربعة وعشرين عاماً؟".

قال آرتشر بقسوة: "ميلي، كفى. أنت تبالغين".

بلّلت هيزل شفتيها مجيبة: "نعم في الواقع".

تمتم آرتشر بكلام غير مفهوم وبدأ يفتّش الخزائن بشكل محموم. فحملقت إليها ميلي متسائلة: "حقّاً؟".

"أعني، أنا لم أكن هنا بالطبع، لكنّ أمّي أخبرتني أنّ جدّي كان يعاني من مشكلة مالية كبيرة عندما كانت في الجامعة. كان الوضع سيّئاً لدرجة أنّهم كانوا على وشك أن يخسروا المنزل، ولن تتمكّن من تغطية مصاريف الجامعة، وكانت جدّتي تهدّده بالطلاق. ولكن فجأة، بدأ يكسب المال". ازدردت هيزل ريقها متابعة: "وتقول إنّه ظلّ يكسب طوال الوقت، بعد ذلك".

قالت ميلي: "هاه، ولا بدّ أنّ تيريزا حصلت على المال أيضاً، ولكن قد يكون ثمّة مزيد من الأمور المتعلّقة بها. وقد تكون محقّاً يا جونا، ربّما لم تعد هي نفسها بعد وفاة ابنها، أو ربّما كما قالت أوبري... أوه يا إلهي". للمرّة الأولى خلال هذه المحادثة الغريبة، يظهر الذعر في صوتها. "أوه كلّا، أوبري، أوبري هناك".

قال آرتشر بضحكة مخنوقة: "على الأقلّ، هي ليست هنا". عثر أخيراً على زجاجة من الشراب ففتح الغطاء، ثمّ ملأ كأساً منها حتّى الحافّة. "هنا هو المكان السيّئ".

"خال آرتشر، كلّا! أنت لا تفهم". قبل أن يتمكّن آرتشر من رفع الكأس إلى فمه، أمسكت ميلي بذراعه وأدارته بكلّ قوّتها. "لدى أوبري بطاقة دخول عبر بوّابات كاتمينت هاوس. فقد وجدت واحدة عندما كنّا هناك يوم أمس، واستحوذت عليها". بدأ نبضي يتسارع تماماً مثل ميلي، لأنّني عرفت ما الذي تفكّر فيه. "لقد ذهبت أوبري إلى هناك، أنا واثقة من ذلك". تابعت ميلي، بصوت يائس وهي تمسك بكتفيّ آرتشر. "إنّها في كاتمينت

هاوس الآن. لقد كان والدها يردّد لها طوال الصيف أنّ عليها أن تكون مبادِرة، ولا بدّ أنّها تريد تأكيد ما رأته".

صمت آرتشر. فهزّت ميلي كتفيه بقوّة. "حتّى لو كنت لا تصدّق شيئاً ممّا قلتُه هذا الصباح، صدّق أرجوك أنّ هذا الوضع سيّئ".

"ربّاه". ارتخى وجه آرتشر. استدار في قبضة ميلي لينظر إلى شرابه، وتوقّعتُ أن يمدّ إحدى ذراعيه لتناول الكأس. بدلاً من ذلك، أخذ نفساً عميقاً والتفت إلى هيزل التي كانت لا تزال جامدة في مكانها. "هل أتيتِ إلى هنا بالسيّارة؟".

رفّت هيزل عينيها كما لو كانت تسير في نومها وتحاول الاستيقاظ. "السيّارة مركونة بجانب الرصيف. إنّها رانج روفر". مدّت يدها إلى جيبها ورمت المفاتيح لآرتشر. فالتقطها بإحدى يديه، ثمّ اندفع إلى غرفة المعيشة وخرج من الباب.

أليسون، 18 عاماً

أغسطس 1996

كانت صديقة آرتشر، جيس، قد حصلت على كلب جديد، وقد أغرم به آرتشر. قال بصوت لطيف وهو يركع بجانب الكلب الصغير على رمال شاطئ كاتي الخشنة: "أنا مستعدّ لأقتل من أجلك يا سامي". حاول سامي لعق وجهه، وقد سرّه كلّ هذا الاهتمام. "أجل، صدّقني".

قالت أليسون: "هذا كلام مبالغ فيه".

قال آرتشر وهو يحكّ خلف أذنيّ سامي: "حسناً، ليس شخصاً، ولا كلباً آخر بالطبع، ولا هرّة أيضاً. غير أنّني مستعدّ لقتل جرذ، جرذ مريض أساساً وسيموت على أيّ حال".

جلست أليسون بجانب آرتشر، بينما تكوّر الكلب في حجره. "هل سمعتَ يا سامي، إذا ضايقك جرذ مريض، فإنّ بطلك هنا".

حدّقَت إلى الحشود التي كانت تجوب شاطئ كاتي وتتجمّع حول نيران صغيرة. خلال السنوات القليلة الماضية، أقامت صديقة آرتشر، جيس كالاهان، التي تعيش في المنزل الأقرب إلى وسط الشاطئ الهلالي، حفلة ميلادها هنا. كان شقيق جيس الأكبر يعمل في قسم شرطة جزيرة النورس، وقد ضمن لهم أن يُتركوا وشأنهم ما دامت الحفلة لم تخرج

عن نطاق السيطرة. حتّى إنّ كريس كالاهان ترك برميلين من الشراب قبل أن يغادر لمناوبته في قسم الشرطة.

قال آرتشر في ذلك الوقت: "فلنهتف لأجود شراب في جزيرة النورس". أمّا الآن فأشار: "أعتقد أنّنا الوحيدان اللذان ما زالا بكامل وعيهما هنا".

"على الأرجح". كانت أليسون تعرف لماذا تجنّبت الشراب - ولماذا كانت وراء صخرة مع شقيقها والكلب بدلاً من الانضمام إلى الاحتفالات - لكنّها ليست واثقة من سبب مكوث آرتشر هنا. "لماذا برأيك؟".

"حسناً، لم تكوني مخطئة تماماً عندما ذكّرتني قبل الحفل الصيفي أنّ من عادتي تحويل نفسي إلى أحمق".

"أنا لم أقل ذلك بالضبط. كما أنّني اعتذرت، أتذكر؟ كنت متوتّرة فحسب قبل تلك الليلة الكبيرة، ولم أقصد قول ذلك".

"لكنّك كنت محقّة، فقد كنتُ أبالغ في الشرب. وكانت كلّ الحفلات تنتهي بالطريقة نفسها. فأنا أذهب بنيّة تناول كأسين لا أكثر، ولا ألبث أن أفقد عقلي". انقلب سامي على ظهره ورفع قوائمه في الهواء، فلبّى آرتشر الدعوة وداعب بطنه. "ربّما كنت أريد أن أعرف ما إذا كان بإمكاني قضاء وقت ممتع بدونه".

"وهل تمضي وقتاً ممتعاً؟".

ابتسم آرتشر بابتسامة عريضة وأجاب: "كلّا ليس حقّاً، ولا أقصد الإهانة".

"لا تقلق". كذلك الأمر بالنسبة إلى أليسون. فهي لم ترغب في المجيء هذه الليلة،

ولكنّها لم ترغب أيضاً في عدم الحضور. كانت تعلم أنّ مات سيكون هنا، ولم تشأ البقاء بعيدة بسببه. كما أنّ جزءاً منها اعتقد أنّها قد تتمكّن من الحديث معه أخيراً، وإخباره عن الطفل. ولكن بمجرّد وصولها، أدركت أنّ قضيّتها خاسرة. فقد كان مات يتجوّل في المكان ويسأل الجميع عمّا إذا رأوا كايلا. وكان في حالة من الثمالة الشديدة، بحيث نسي أنّها تعمل لساعة متأخّرة في مكتب دونالد كامدن في عطل نهاية الأسبوع.

قال آرتشر: "الأمواج خرجت عن السيطرة".

قالت أليسون وهي تخفض أكمام سترتها فوق يديها، بينما هبّت رياح قويّة حولهما: "هذا بسبب برودة الطقس، فهي تزيد من ارتفاع الموج".

لم يكن آرتشر يرتدي سوى قميص قطني طويل الكمّين، لذا، بدأ يرتعش برداً. قال: "لقد تركت سترتي في السيّارة، سأذهب لإحضارها". نهض، وراح سامي يقفز حوله. قال للكلب الصغير: "هل أنت قادم أيضاً يا صديقي؟ نعم إنّك قادم، أنت كلب طيّب".

قالت أليسون ضاحكة: "أنت مجنون".

"هل تحتاجين شيئاً؟".

قالت أليسون في نفسها، أريد العودة إلى البيت. "كلّا، سأبحث عن آدم". ربّما يكون على استعداد لمغادرة الحفلة لربع ساعة لإعادتها إلى كاتمينت هاوس. فقد تمكّنت من البقاء لمدّة ساعة تقريباً، وشعرت أنّه انتصار بسيط.

جال نظرها على الحشد وهي تسير، وتراقب بحذر ظهور مات، ولكنّها لم تجده في أيّ مكان. وكذلك الأمر بالنسبة إلى أخويها الأكبر سنّاً. مشت حول الحشد المتحلّق حول

النيران مرّتين، من دون أن تجد أثراً لهم. كان آرتشر قد عاد في ذلك الوقت، وقد لفّ سترته على كتفيه وحمل بإحدى يديه كأساً، واستغرق في حديث مع روب فالنتاين. وحدهم آدم وآندرز ومات كانوا مختفين عن الأنظار. كانت لتعتقد أنّهم غادروا الحفلة لو لم تكن سيّارة البي إم التي يملكها آدم ودرّاجة مات البخارية الخضراء مركونتين في مرآب الشاطئ.

شعرت بعدم الارتياح وهي تمشي لمسافة أبعد على الرمال، بينما كانت الأمواج تتحطّم بصخب هناك. تمنّت ألّا يقدم أخواها على التعارك مع مات. فمع أنّها لا تزال غاضبة منه إزاء سلوكه تجاهها في مقهى أرابيلا، إلّا أنّ اثنين على واحد لم يكن عادلاً.

وصلت إلى أطراف منطقة الاحتفال. هناك، انتشرت مجموعة من الأكواخ التي شكّلت خطّاً فاصلاً بين امتداد آخر للشاطئ أكثر وعورة. غالباً ما كان الناس يستخدمون تلك الصخور كموقع ربط، لكنّها كانت مهجورة الآن. مرّت بها، وأجفلت عندما لفحت وجهها الرياح المحمّلة بالرمال.

بعد الأكواخ، امتدّ رصيف في البحر، وواصطفّت حوله قوارب التجديف الصغيرة المتمايلة. هناك أخيراً، رأت أليسون شخصين يقفان على حافة الرصيف. عرفَت آدم بطوله الذي يتجاوز قامة آندرز الأقصر، فحثّت خطاها.

كانا يحدّقان إلى الأمواج الهائجة، غافلَين عنها. سمعت آدم ينادي بصوت أعلى من صخب الرياح العاصفة: "هل ترى شيئاً؟".

"كلّا، ولن نفعل. ليس مع هذه الأمواج العاتية".

"يا إلهي، آندرز. ذكّرني ألّا أثير غضبك أبداً". وبدت ضحكة آدم خشنة ومتوتّرة.

ذاك الحديث الوجيز، المقترن بتركيز شقيقيها بشدّة على المياه الهائجة، أرسل قشعريرة في مؤخّر عنقها. لم تكن متأكّدة من رغبتها في معرفة ما يتحدّث عنه آدم وآندرز، وكادت أن تستدير للعودة إلى الحفلة. ولكنّ شيئاً ما جعلها تتوقّف، وتمدّ يدها.

"يا شباب!" هزّت أليسون كتف آدم وهي تصرخ في أذنه، فقفز بعيداً. "ماذا تفعلان هنا؟".

استدار آندرز وعيناه تلمعان في ضوء القمر. "كنّا نحلّ مشكلة".

الفصل الخامس والعشرون

أوبري

بمجرّد عبوري البوّابة، ركنت درّاجتي خلف مجموعة كثيفة من شجيرات زهر العسل واقتربت من الممرّ المؤدّي إلى كاتمينت هاوس، وأنا أحسب خطواتي التالية. لا أستطيع الدخول علناً من الباب الأمامي قائلة، مرحباً، هل يمكنك أن تبصقي في فنجان من أجلي؟ لقد أتيت لأخذ قليل من الحمض النووي، وسأنصرف حالاً.

حتّى التفكير في الكلمات جعلني أشعر أنّني أفقد عقلي. فالناس العقلاء لا يقتحمون القصور بحثاً عن دليل على أنّ جدّتهم دجّالة. طوال الطريق إلى هنا وأنا أسأل نفسي ما إذا كان ثمّة تفسير لعدم وجود وحمة على يد جدّتي.

ماذا لو أزالتها بالليزر؟

لقد سألتُ عن هذا الإجراء عندما تعرّضت للمضايقات في مراهقتي. لكنّ والدي قال: "عليك أن تكوني فخورة، تماماً مثل جدّتك، فهي لن تزيل جزءاً منها لإرضاء الآخرين". وكانت تلك نصيحة جيّدة في الواقع، لكنّ أمّي وافقت على السماح لي باستشارة عدد من جرّاحي التجميل، الذي أكّدوا جميعاً الشيء نفسه: كان اللون كثيفاً جدّاً وعميقاً جدّاً. قد يتلاشى قليلاً، ولكنّه لن يختفي تماماً.

ماذا لو كانت تضع المكياج؟

في هذه الحالة، لماذا تضع قفّازاً؟ لماذا تضع قفّازاً دائماً حتّى في أيّام الصيف الحارّة؟

ربّما فاتتك رؤيتها وحسب.

لكنّ ذلك لم يحدث. أنا أعرف تلك الوحمة مثل ظاهر يدي، وذاك هو بالضبط المكان الذي يجب أن تكون فيه عندها. إنّها السمة الوحيدة التي نتشاركها أنا وجدّتي، ولم تكن موجودة. أنا متأكّدة من ذلك.

أتاحت لي الطبيعة الخصبة للأراضي الالتفاف من خلف الشجيرات على طول الطريق حتّى الممرّ، ومن ثمّ حول الجزء الخلفي من المنزل. بعد ذلك توقّفتُ ونظرت إلى الفناء المشمس. كان كبيراً على نحو مدهش، بالنظر إلى أنّ كاتمينت هاوس يبدو قريباً جدّاً من الجرف من بعيد، ولم تتمّ صيانته جيّداً مثل الواجهة. كان العشب طويلاً جدّاً، والشجيرات غير مشذّبة، والأزهار تملأ المكان. استطعت سماع هدير البحر وهو يلاطم الصخور خلف المنزل، وصيحات طيور النورس الخافتة التي تحلّق فوقه.

ماذا أفعل هنا؟

بدأت أتراجع، وقد شعرت بالرعب من نفسي. أنا أتعدّى على ممتلكات الغير، هذا ما أفعله، قاصدة اقتحام منزل طلبت منّي صاحبته بصراحة أن أبتعد عنه. ماذا لو تمّ القبض عليّ بسبب ذلك؟ ولماذا؟ عليّ إخبار شخص آخر بشكوكي وترك الأمر للشرطة، أو لأيّ شخص آخر، لحلّ المسألة.

في تلك اللحظة، رأيتها: نافذة في الطابق الأوّل على بعد خمسة أقدام من الأرض،

شبه مفتوحة. فبدت لي وكأنّها دعوة.

تسلّلت إلى الأمام إلى أن أصبحتُ تحت عتبة النافذة، ثمّ وقفت على أطراف أصابعي لاستراق نظرة إلى الداخل. رأيت أمامي غرفة جميلة وفخمة عُلّقت فيها ثريّا جميلة، ولكن يبدو أنّها تُستخدم كمخزن. كانت فارغة باستثناء أكوام من الصناديق والسجّاد الملفوف والكراسي المكدّسة بشكل مرتّب واحدة فوق الأخرى. وكان الرواق خلف الباب الداخلي المفتوح صامتاً وخافت الإضاءة.

هل سأفعل ذلك حقّاً؟ هل يمكنني ذلك؟ كوّرتُ راحتي حول عتبة النافذة وأنا أشاور نفسي. أنا لم أتمرّن هنا كما فعلت في السباحة التنافسية، ولا يستغرق الأمر طويلاً حتّى يخسر المرء قوّة عضلاته، لكن لطالما أحببت تمارين الدفع.

أخذت نفساً عميقاً، ورفعت نفسي، وفوجئت من مدى سهولة ذلك. راحت قدماي تتدافعان على جدار المنزل، وكدت أفلت قبضتي، ولكنّني تمكّنت من رفع إحدى ذراعيّ إلى الأعلى فوق حافة النافذة، ممّا منحني قوّة كافية لأسحب جسدي بقيّة المسافة. بقيت هناك لبضع ثوان، وأنا ألهث، ثمّ زحفت إلى الداخل.

هبطتُ القرفصاء ورحت أحرّك راحتيّ لأزيل عنها الألم. فكّرت وأنا أنهض، سجّل ذلك يا أبي، الذراع القويّة أحياناً.

لم تكن لديّ أيّ فكرة عن موقعي في المنزل. فخلعت حذائي وتركته بجانب النافذة، ثمّ رحت أسير حافية على الأرض الخشبية إلى أن وصلت إلى الباب. تنقّلتُ بصمت عبر القاعة، وأنا أتوقّف بعد كلّ خطوة، إلى أن وصلت إلى سلّم. وقفت هناك طويلاً، محاولة سماع أيّ إشارة تدلّ على وجود شخص ما في أعلاه، ولكنّني لم أسمع شيئاً.

صعدت الدرج بحذر، وتقدّمت بخفّة إلى أن وصلت إلى الطابق العلوي. لم أكن أعرف في أيّ جزء من المنزل أنا، لكنّ هذا المكان كان هادئاً للغاية بحيث تنقّلتُ فيه بجرأة وبسرعة أكبر. ربّما كنت محظوظة ولم يكن ثمّة أحد في المنزل.

صعدت سلّماً آخر، أكثر انحداراً وضيقاً، وتوقّفت عند باب في الأعلى. وضعت يدي على المقبض وأدرته ببطء كبير، ثمّ دفعتُ الباب الذي فُتح من دون إحداث ضوضاء قوية، ووجدت نفسي في ردهة واسعة. توزّعت أبواب على كلا الجانبين، وبدأ قلبي يخفق عندما أدركت أنّني ربّما وجدت سلّماً خلفياً يؤدّي إلى طابق غرف النوم. ذاك هو المكان الذي أردت الذهاب إليه. فالطريقة الوحيدة للتأكّد من أخذ شيء ينتمي إلى جدّتي هي أخذه من غرفتها.

اقتربت من الباب الأوّل بلا ضجيج وفتحته بسرعة، ثمّ دخلت. على الفور، عرفت أنّها ليست غرفة شخص يستخدمها حاليّاً. فقد كانت مهجورة، ويطغى عليها جوّ من العفن. هذا من دون ذكر الستائر وأغطية السرير التي عفا عليها الزمن ويبدو أنّها لم تُبدَّل منذ سنوات. كان ثمّة بطّانية حمراء على السرير كُتب عليها بأحرف بيضاء كبيرة إعدادية مارتندايل، وعصيّ لاكروس مسندة في إحدى الزوايا.

مهلاً، هل يمكن أن تكون هذه غرفة والدي القديمة؟ تسلّلت إلى مسافة أبعد قليلاً، وألقيت نظرة على صورة مؤطّرة معلّقة على الحائط بجانب النافذة. كانت الصورة نفسها التي رأيتها لوالدي وجدّتي في سويتفيرن: كلاهما يحملان تلك اللوحة القبيحة ويبتسمان ببهجة للكاميرا. ركّزت نظري على يد جدتي التي تهيمن عليها تلك الوحمة الحمراء.

"صورة جميلة، أليس كذلك؟".

استدرت لأرى جدّتي - أو أيّا تكن تلك المرأة - واقفة عند الباب. في البداية، لم ألاحظ سوى أنّها ليست بكامل أناقتها أو تضع قفّازاً. ثمّ لاحظت المسدّس الصغير ذي المقبض اللؤلؤي بإحدى يديها. كان جميلاً جدّاً، يكاد لا يبدو-

قالت وهي تدخل الغرفة: "أوه، إنّه حقيقي. كما أنّه ملقّم. فالحذر واجب على امرأتَين مسنّتين تعيشان بمفردهما".

شعرت أنّ النظرة التي ألقتها عليّ متعاطفة تقريباً. "هل تعتقدين حقّاً أنّنا لم ننتبه عندما فُتحت البوّابة؟".

لعقت شفتيّ اللتين جفّتا فجأة. "إذاً... ماذا؟ هل سمحت لي بالدخول؟".

"لا بل فتحت لك النافذة".

غبية، غبية، غبية، رحت أوبّخ نفسي. "حسناً، لقد أمسكتِ بي". قلت ذلك وأنا أحاول أن أرسم على وجهي ضحكة مذنبة. فخرجَت أقرب إلى الأزيز. "لقد أردت رؤية هذا المكان مرّة أخرى. حاولت العثور على غرفة والدي، وفعلت، لذلك... سأغادر الآن".

"كلّا، لن تفعلي". غاص قلبي وهي تخطو خطوة أخرى إلى الأمام. "لقد تساءلت بالأمس ما إذا كنتِ قد ألقيتِ نظرة فاحصة على يدي، وأعتقد أنّك فعلت؟". تجمّدت في مكاني بحيث لم أستطع حتّى أن أهزّ رأسي. "والآن ها أنت ذا، ابنة آدم. ستكون مأساة شاعرية إذا اعتبرتك سارقة وأطلقت عليك النار في غرفته القديمة، أليس كذلك؟".

قلت الكذبة بشكل مقنع قدر المستطاع: "لقد أخبرت أشخاصاً آخرين. أخبرت الجميع بما رأيته. العمّ آرتشر، وميلي، وجونا و... الجميع".

أمالت جدّتي، أو ميلدريد، أو لا أدري ماذا أسمّيها بعد الآن، رأسها جانباً. "مع ذلك، أنت هنا بمفردك".

شعرت بالدم يتجمّد في عروقي. لقد أرسلت رسالة نصّية واحدة إلى العمّ آرتشر، وثمّة احتمال كبير ألّا يفهم ما قصدته. سألت بصوت مرتجف: "ماذا فعلت بجدّتي؟".

أجابت بيقين وسرعة لدرجة أنّني صدّقتها بالفعل: "لا شيء، لقد ماتت جدّتك لأسباب طبيعية منذ أربعة وعشرين عاماً. وجدتها هنا. كانت تحبّ تمضية بعض الوقت في غرفة آدم في غيابه". لمعت عيناها مضيفة: "كان دائماً المفضّل لديها، على الرغم من كونه الابن الأقلّ اهتماماً".

"أنت تيريزا". قلت ذلك، ولم تنكر. "و... وتيريزا الأخرى..." لم تكن لديّ فكرة كيف أنهي تلك الجملة.

لم تقم بإرضاء فضولي، بل قالت بتأمّل: "هذا غريب. لقد أخذتُ من آدم كلّ ما أمكنني أخذه. وطوال هذه السنوات، لم أشعر قطّ أنّني اكتفيت. ربّما يشفي غليلي أخذ ابنته الوحيدة". شعرت أنّ قلبي يكاد يتوقّف وكدت أقول، أنا لست ابنته الوحيدة، قبل أن تضيف: "ففي النهاية، أخذَ ابني الوحيد".

مال العالم على محوره. "أبي... قتل ابنك؟".

"إن جاز التعبير".

أجفلنا كلانا لدى سماعنا ضوضاء عالية. تحرّكت بشكل تلقائي نحو النافذة، وبلغت حافتها قبل تأمرني تيريزا قائلة: "توقّفي!" فتوقّفت في مكاني. لكنّني استطعت

الرؤية بما فيه الكفاية لألمح سيّارة دفع رباعي سوداء كبيرة تسير فوق العشب. كان مشهداً غريباً، خارجاً عن السياق، ومع ذلك مرحّباً بحيث كدت أضحك بصوت عالٍ.

"تيريزا!" تناهى إليّ صوت امرأة من الأسفل، وكان عالياً ومضطرباً: "تيريزا، وصلت سيّارة إلى المنزل. تيريزا!".

نادت تيريزا مخاطبة إيّاها: "حسناً". بدت هادئة على نحو ملفت بالنسبة إلى شخص قد ينهار منزله في أيّ لحظة. لكنّ السيارة توقّفت على بعد بضعة أمتار من الباب الأمامي، ومع مزيج من الارتياح والتخوّف، شاهدت العمّ آرتشر وهو يترجّل منها.

قالت تيريزا: "إذاً لم تكذبي. حسناً، قمنا بجولة جيّدة، على ما أظنّ". انخفضت اليد التي تحمل بها المسدّس قليلاً، وشعرت بفيض من الأمل إلى أن قسا وجهها. "بإمكانه أن يرى هو أيضاً النهاية الحتمية للأمور. تعالي". خرجت إلى الرواق، وأشارت إليّ لكي أتبعها، ثمّ عبرَت إلى درج الشرفة المطلّ على الطابق الثاني من المنزل. نادت من الأعلى: "اصطحبي ضيفنا إلى الغرفة المشمسة، وأخبريه أنّ أوبري ستحضر حالاً".

سألتُها بقلق: "ما الذي ستفعلينه؟ من فضلك لا تؤذيه". ففكرة حدوث أيّ مكروه للعمّ آرتشر لأنّه لحق بي سبّبت لي الذعر.

أمرت قائلة: "إلى الأسفل". كانت نظرة عينيها قاسية لدرجة أنّني نفّذت ما تقول. وجّهتني يساراً عند أسفل الدرج، ومن ثمّ يميناً في الرواق، ويميناً مجدّداً، إلى أن وجدت نفسي عند مدخل غرفة ذات نوافذ ممتدّة من الأرض إلى السقف من ثلاث جهات. وفي وسطها، وقف العمّ آرتشر بجانب المرأة التي كنت أظنّها تيريزا رايان.

صاح قائلاً: "أوبري!". تقدّم إلى الأمام، فاتحاً فمه ليقول المزيد، إلى أن ظهرت

بجانبي تيريزا الحقيقية، وبيدها مسدّس. توقّف آرتشر في مكانه ونظر إليها. قال بصوت أجش، واضعاً إحدى يديه على صدره. "يا إلهي، هذا صحيح إذاً. ظننت أنّه لا بدّ من وجود خطأ، ولكن... أنت لست أمّي". ارتعشت عضلة في فكّه. "لو أنّني اقتربتُ منك عشرة أقدام من قبل، لعرفتك على الفور".

قالت تيريزا: "ربّما لا، نحن نرى ما نتوقّع رؤيته. ولكنّك تفهم الآن على ما أظنّ لماذا اضطررت لقطع الاتّصال بكم". لم يلن صوتها تماماً، لكنّه كان أقلّ قسوة عندما أضافت: "حتّى معك أنت، الذي تعدّ بريئاً نسبيّاً في كلّ هذه المسألة".

سألها آرتشر: "أيّ مسألة؟ لماذا فعلتِ ذلك؟ ماذا فعلنا لك؟". تنقّلت نظراته بيني وبين تيريزا والمسدّس. "هل للأمر علاقة بما حدث لكايلا؟ أو لمات؟".

قالت تيريزا: "بولا". لم تكن لديّ أيّ فكرة من تقصد، حتّى تقدّمت المرأة الثانية. "الطقس بارد. لماذا لا تشعلين النار في الردهة الجنوبية، ثمّ تتركيننا لنتحدّث عمّا-" صمتت ولمعت عيناها. "عمّا حدث لمات".

سألتها المرأة الأخرى بعصبية: "تيريزا، هل أنت متأكّدة؟".

"نعم". مرّت بولا من أمامنا وذهبت إلى الردهة.

أخذ العمّ آرتشر نفساً عميقاً، وقال: "لقد غرق مات، وهذا مروّع، ولكن-"

قالت تيريزا بحدّة: "مات لم يغرق، بل قُتل. تلك الليلة على شاطئ كاتي، ما كان مات ليدخل الماء من تلقاء نفسه. ربّما كان ثملاً، لكنّه لم يكن أحمق. كان يعرف مدى خطورة التيّار السفلي في ليلة كهذه. لكنّ أخاك الثعبان، آندرز، أخبره أنّ كايلا جرفها المدّ

وتحتاج إلى المساعدة".

بدا العمّ آرتشر في حيرة من أمره. "كايلا؟ لكنّها لم تكن هناك حتّى".

زمّت تيريزا شفتيها. "كلّا، وكان آندرز يعرف ذلك تماماً، لكنّه كذب على مات لإنزاله إلى الماء. وكان يعلم أنّه لن يتمكّن من الخروج على الأرجح. أمّا آدم، فكان واقفاً بجانبهما، وترك مات يذهب". كانت ترتجف الآن، وعيناها الواسعتان تلمعان. "آدم تركه يذهب ببساطة".

آدم تركه يذهب. ضجّت الكلمات في أذنيّ لدرجة أنّني كدت أفوّت سؤال العمّ آرتشر التالي. "وكيف عرفتِ كلّ ذلك؟".

"من كايلا، فقد شرب آندرز حتّى الثمالة ذات ليلة وأخبرها بكلّ شيء. لا أعتقد أنّه يذكر ذلك حتّى، لكنّها أخبرتني. قالت إنّه لطالما كان يشعر بالغيرة من مات، واستاء منه أكثر عندما تسبّب بحمل أليسون في ذلك الصيف الذي مات فيه". ضحكت بمرارة أمام تعبير العمّ آرتشر المصدوم. "ألم تكن تعرف؟ ولا أنا. تخيّل أنّه كان حفيدي، وحفيد والدتك. لكنّ أليسون أجهضته".

سألها آرتشر بذهول: "حقّاً؟".

"نعم". شدّت تيريزا على فمها إلى أن أصبح مجرّد خطّ رفيع. "وكانت تعرف ما حدث لمات. فقد أخبرها آندرز في تلك الليلة، وكان لها الفضل في دقّ ناقوس الخطر وإخبار الجميع أنّه مفقود. ولكنّها فضّلت بعد ذلك حماية أخويها، وتركت الجميع يعتقدون أنّ الوفاة كانت مجرّد حادثة".

قال العمّ آرتشر ببطء: "كايلا أخبرتك بكلّ ذلك، ثمّ ماذا؟ هل قتلتِها؟ هل خدّرتها ووضعتها في سيّارتها؟". أجفلت تيريزا، فتابع العمّ آرتشر. "لقد أعطاني فريد باكستر تقرير التشريح الأصلي. لقد وُجد مسكّن في دمها ليلة وفاتها".

قالت تيريزا وهي تنظر إليّ: "إذاً، لهذا السبب سألَت عن كايلا". أصبحت تتكلّم عنّي فجأة بضمير الغائب. مجرّد إشارة عابرة في الحديث.

سألها العمّ آرتشر بنبرة متصاعدة: "قتلتِ فتاة بريئة ولديك الجرأة للعب دور الضحية؟".

أصرّت تيريزا قائلة: "لم أكن أنا. في الواقع، حدث كلّ شيء في وقت واحد. اكتشفتُ أمر مات، واجتاحني الغضب. كان الشيء الوحيد الذي أردته في العالم هو جعل أخويك وشقيقتك يدفعون الثمن بطريقة ما. ثمّ ماتت والدتك". شرد نظرها وهي تتابع: "لقد كنّا أنا وهي وحدنا في المنزل. اتّصلتُ بدونالد كامدن، لأنّنا، حسناً، كنّا نتّصل بدونالد من أجل كلّ شيء في ذلك الوقت، فقال إنّكم ستبدّدون ثروة أبراهام وميلدريد في غمضة عين. وعندها، خطرت ببالي فكرة".

التوى طرفا فمها في ابتسامة، وبدا المشهد مرعباً إلى حدّ ما. "بدت الفكرة سخيفة في البداية، لكنّها أعجبت دونالد. فلطالما أراد وضع يديه على أموال والديك. لجأنا إلى فريد باكستر، الذي كان غارقاً في الديون، ووعدناه بتسديد كلّ ما عليه إذا استمرّ بالعمل كطبيبي. دفنّا ميلدريد هنا، في أراضي كاتمينت هاوس، وأحضرت شقيقتي، بولا، إلى هذا المنزل لتحلّ مكاني. ثمّ كتب دونالد إليكم جميعاً".

تقلّص وجه تيريزا. "لكنّ كايلا ظلّت تلحّ لرؤيتي. أرادت أن تعرف ما إذا كانت

السيّدة ستوري قد تبرّأت من أولادها بسبب ما أخبرتني به. فتحدّثتُ معها عبر الهاتف عدّة مرّات، محاولة استرضاءها، لكنّها ازدادت قلقاً. وعندما توقّفتُ عن الردّ على مكالماتها، ذهبَت إلى فريد باكستر، فحثّها على عدم القلق بشأن ذلك، وأن تلزم الصمت. فما كان منها إلّا أن سألت دونالد. فظنّ دونالد أنّها ستسبّب مشكلة إذا استمرّت في الكلام في الموضوع وعرف الناس أنّه لديّ سبب لأكره أولاد آل ستوري، فتولّى حلّ المسألة". تسلّلت نبرة دفاعية إلى صوتها أمام تعبير العمّ آرتشر المرعوب. "ما كنّا أنا وفريد لنقبل بذلك، ولكن عندما أدركنا ما حدث، كان الأوان قد فات".

قال العمّ آرتشر بصوت بارد: "حسناً، أنت وفريد لم تكونا قدّيسَين ودودَين دائماً"، ثمّ شهق فجأة. "تبّاً! أهذا ما حدث لفريد أيضاً؟ لقد بدأ يتحدّث هذا الصيف، محاولاً الاعتراف، ولذلك تولّى دونالد حلّ المسألة؟ هل أغرق الرجل في فناء منزله؟".

قام بخطوة إلى الأمام، فشعرتُ بشيء بارد وصلب يضغط على جانب عنقي. صدر عنّي أنين لا إرادي، فتجمّد العمّ آرتشر في مكانه.

قالت تيريزا: "دعنا لا ننسى من يملك السيطرة هنا".

رفع آرتشر كلتا يديه في حركة استسلام. "لن أقترب أكثر، اتّفقنا؟ ولكن كلّ شيء انتهى، عليك أن تدركي ذلك. لا يمكنك إعادة الجنّي إلى الفانوس هذه المرّة".

قالت تيريزا: "ربّما لا، لكنّني أختلف معك في أنّ كلّ شيء انتهى، لأنّ الأمور ستكون على الشكل التالي". قالت بنبرة أبطأ: "آدم هو الأسوأ بينهم، على ما أظنّ. لم يكن لدى آندرز يوماً صفة جيّدة للتحدّث عنها، وأليسون ضعيفة. أمّا آدم، فقد كنت أعشقه. لطالما دافعت عنه عندما كانت ضغوط والديه تزداد عليه. كنت مستعدّة لفعل أيّ شيء

من أجل ذلك الشابّ. ولكن عندما أتيحت له الفرصة للحفاظ على سلامة ابني، لم يستغلّها. ما كان على آدم سوى أن يقول كفى، إمّا لآندرز أو لمات. كانا سيستمعان إليه، ولبقي مات على قيد الحياة".

يا له من فتى أحمق. كان بإمكانه أن يغيّر كلّ شيء بكلمة واحدة. أخيراً، فهمت ما قصده د. باكستر عندما قال ذلك عن أبي، وشعرتُ بتعاطف مفاجئ مع المرأة الواقفة بجانبي. ثمّ سمعتُ نقرة مخيفة بجانب أذني استنزفت كلّ شكل من أشكال العاطفة باستثناء الخوف. قالت تيريزا: "المشكلة مع آدم أنّه لم يعانِ بما فيه الكفاية. فهو لا يعرف ما معنى خسارة الابن".

بدا الذهول والخوف في عينيّ آرتشر. "تيريزا، كلّا".

"ماذا يفترض بي أن أفعل إذاً بابنة آدم؟ هل أتركها تذهب ببساطة؟ مثلما ترك آدم ابني يذهب؟". تسارعت أنفاسي، وسجّل عقلي المذعور فجأة رائحة بنزين، أم أنّه دخان؟

قال العمّ آرتشر بإلحاح: "أنت غاضبة من عائلتي، أنا أفهم، ولديك كلّ الحقّ في ذلك. ولكن إن كنت لا تزالين راغبة في الثأر، فاثأري منّي أنا، وليس من أوبري". ثمّ ثنى يديه على قلبه بعدما كانتا مرفوعتين طوال الوقت، كما لو أنّه كان يعرض عليها هدفاً. "اثأري منّي أنا. لقد كنت هناك، وكان بإمكاني فعل شيء للمساعدة، ولم أفعل. تلك هي قصّة حياتي اللعينة كلّها".

كاد قلبي يتوقّف وأنا أقول: "كلّا".

قالت تيريزا بحدّة: "قالت كايلا إنّك لم تكن تعرف". كانت رائحة الدخان تزداد قوّة. "هل تقول الآن إنّك كنت على علم بما جرى؟" تأرجح نظر العمّ آرتشر بيني وبين

تيريزا والمسدّس قبل أن يستقرّ عليّ في النهاية. لانت خطوط فكّه المتوتّرة، فانقبض قلبي وشعرت بالألم عندما تعرّفتُ على نظرة وجهه. كانت نظرة لم أرها في عينَي أيّ شخص من قبل، نظرة أبوية.

بعد ذلك قال ببساطة: "نعم".

حدث كلّ شيء بشكل ضبابي وبسرعة البرق بعد ذلك. ابتعد المسدّس عن عنقي وتغيّر اتّجاه ذراع تيريزا، فكان ردّ فعلي تلقائيّاً. صدمت كتفي بكتفها، ممّا أدّى إلى اختلال توازنها وسقوطها على الأرض. ضجّ في الغرفة صوت يصمّ الآذان، تلاه صرخة ألم شديدة. شعرت بألم حادّ في كوعي عندما اصطدمت بالأرض، وسقط نصف جسدي فوق تيريزا، ثمّ صرخ أحدهم مجدّداً. أخيراً، رأيت بركة حمراء على الأرض بجانبي وأنا ألتفت يميناً ويساراً، ونظري يبحث بجنون عن العمّ آرتشر.

"أوبري!" كان فوقي، ومسدّس تيريزا يتدلّى من إحدى يديها. عندما سمعتُ صوته، كدت أفقد الوعي من شدّة الارتياح. "هل تأذّيتِ؟".

"لا أعتقد ذلك". نهضتُ من فوق تيريزا، فتأوّهت. كانت ساقها اليسرى مغطّاة بالدماء، وكذلك الأرض تحتها. دفنت وجهها في ثنية ذراعها، ولم تكن تتحرّك، باستثناء أنّها تتنفّس بصعوبة. "أعتقد أنّني أطلقت عليها النار".

قال: "بل أطلقَت النار على نفسها، من الأفضل أن نطلب المساعدة. هل هاتفك معك، لقد نسيت هاتفي".

"إنّه مطفأ". وقفتُ، بينما بدأ الأدرينالين الذي كان يتدفّق في جسدي بالانخفاض، وشعرت أخيراً برائحة الدخان القويّة. بدا الهواء خارج الغرفة المشمسة ثقيلاً وضبابياً.

بولا، لماذا لا تشعلين النار في الردهة الجنوبية.

هذا ما قالته تيريزا قبل أن تغادر أختها الغرفة. وقفتُ عند الباب وألقيت نظرة إلى الردهة. فسمعت ضوضاء طقطقة وهسهسة آتية من مكان ما، وبدت الأرض زلقة ورطبة.

تيريزا، هل أنت متأكّدة؟

أجل.

قلت: "ثمّة خطب ما".

وفي تلك اللحظة، اشتعلت الردهة بالنيران.

"ربّاه!" صاح العمّ آرتشر، بينما تراجعتُ متعثّرة إلى الغرفة المشمسة. "علينا الخروج من هنا! تعالي". مدّ يده لإنهاض تيريزا على قدميها. فتأوّهَت احتجاجاً، وراحت تعرج كدمية من القماش. فما كان منه إلاّ أن رفعها بين ذراعيه. "اذهبي إلى السلّم يا أوبري! إلى يسارك".

"لا يمكننا ذلك!" في غضون ثوان، تغيّر المشهد أمامنا. امتدّت النيران إلى كلّ مكان، وراحت تتراقص وتلتفّ في القاعة. تصاعد الدخان نحونا وكدت أختنق عندما ضربتني الموجة الأولى، فعدت إلى الغرفة المشمسة، وامتلأت عيناي بالدموع الحارقة.

"بل علينا ذلك". ثمّ مرّ العمّ آرتشر من أمامي حاملاً تيريزا بين ذراعيه. لكنّه تراجع بالسرعة نفسها، وهو يلهث. قال: "حسناً، سنغيّر الخطّة". رمى تيريزا في أحد المقاعد الجلدية في زاوية الغرفة، ثمّ حمل المقعد الثاني وقذفه على أقرب نافذة. فتحطّم الزجاج

وتطاير في كلّ مكان.

غطّيتُ أنفي وفمي بيديّ مع تدفّق مزيد من الدخان إلى الغرفة، بينما حمل العمّ آرتشر مظلّة طويلة قديمة الطراز من حامل مزخرف ولوّح بها على حواف النافذة لإزالة أطراف الزجاج المؤذية. فتناولتُ مظلّة أخرى لمساعدته، ولكن عندما نظرتُ إلى الأرض، غاص قلبي. "إنّها مرتفعة جدّاً".

قال العمّ آرتشر: "سنصنع حبلاً". ثمّ سحب بطّانية عن ظهر الأريكة. أمّا أنا، فمزّقتُ الستائر الخفيفة المعلّقة على النافذة واستدرتُ لأرى ما يمكن إيجاده في الغرفة. سمعنا صوت هدير عند الباب، وشاهدت برعب ألسنة اللهب وهي تصل إلى أعلاه، قبل أن تمتدّ إلى أقرب خزانة كتب. في البداية، كان مجرّد خطّ برتقالي صغير امتدّ على طول الرفّ العلوي، ثمّ اشتعلت الكتب بالنار.

كانت الأريكة الأقرب إلى النافذة المكسورة قديمة الطراز وثقيلة. فربط العمّ آرتشر طرف البطّانية بإحدى أرجل الأريكة في عقدة مزدوجة متينة، والطرف الآخر بالستارة التي أحملها. بدت بلا وزن بين يديّ، فسألته بقلق: "هل ستفي بالغرض؟". ربط الأطراف بإحكام، واختبر متانتها، ثمّ ربط عقدة أخرى. سألته مجدّداً: "أهي متينة بما فيه الكفاية؟".

نظر العمّ آرتشر حول الغرفة. كانت خزانة الكتب تشتعل بالنار والسقف فوقها يضيء أيضاً. أصبح الدخان الآن باللون الرمادي والأسود، يخطف الأنفاس من الرئتين حتّى مع تدفّق الهواء النقيّ عبر النافذة. وما لبثت النيران لعقت السجّادة وانتشرت فوق سطحها. قال وهو يرمي الطرف الآخر من خارج النافذة: "يجب أن تفي بالغرض. أنت أوّلاً يا أوبري. حافظي على استرخاء جسمك وحاولي الهبوط على قدميك".

لم يكن ثمّة وقت للجدل. أمسكت بالبطّانية تحت عقدتها الأقرب من الأريكة ورفعتُ نفسي فوق حافة النافذة. جرحَت شظايا الزجاج ذراعيّ ومعصميّ، وتناثرت الدماء على البطّانية ذات اللون الأخضر الشاحب. رحتُ أعبط بأسرع ما يمكن، وسرعان ما انتهت البطّانية، ومن ثمّ الستارة، ولم أكن قد ابتعدت كثيراً بعد. لم أعرف كم المسافة التي تفصلني عن الأرض، ولكن لا يهمّ. فما من مكان أذهب إليه سوى الأسفل.

هكذا أفلتُّ الستارة وسقطت.

هبطت على قدميّ أوّلاً، ثمّ انهارت ركبتاي، وسقطتُ بقوّة على جانبي. كان كلّ شيء يؤلمني، ولكن لم يكن الأمر سيّئاً للغاية، بل استطعت أن أتدحرج وألقي نظرة على المنزل. كان الطابق الأرضيّ يشتعل بالكامل، والدخان يتصاعد من النافذة التي خرجت منها. تدلّت الستارة في الهواء وكان طرفها السفلي على بعد نحو ستّة أقدام من الأرض، لكنّني لم أر أيّ أثر لعمّي أو تيريزا.

وضعت يديّ حول فمي وصرخت: "عمّي آرتشر! اخرج!" قاومت الذعر المتصاعد مرّة أخرى، وحاولت الوقوف. فشعرت بألم في رجلي اليمنى أجبرني على الركوع على ركبتيّ. "المسافة ليست كبيرة، أسرِع!".

بقيت النافذة خالية. فآلمتني رئتاي، وصعب عليّ الصراخ. لكنّني واصلت مناداة عمّي باسمه مراراً وتكراراً حتّى تجرّح حلقي.

أخيراً ظهر، حمداً لله. كان يحمل تيريزا على كتفه، الأمر الذي جعل خروجه من النافذة بطيئاً للغاية. كانت إمّا فاقدة للوعي أو ترفض المساعدة، وبينما شاهدته وهو يكافح من أجل سحب الدخان المتصاعدة، خطرت ببالي فكرة غاضبة.

أسقِطها، أسقِطها وحسب.

لكنّه لم يفعل. راح ينزل ببطء، إلى أن أضاءت النيران البرتقالية النافذة بالكامل وارتخى الحبل. فبدءا يسقطان، وسمعت صرخة مرعبة أشبه بصرخة حيوان يحتضر. استغرق الأمر ثوان حتّى أدركت أنّه كان صوتي.

"عمّي آرتشر!" زحفت نحو الكتلة الجامدة من الأطراف والملابس التي سقطت على بعد بضعة أقدام منّي. كان وجه تيريزا يتّجه نحوي، وعيناها مفتوحتان وجامدتان. أطلقتُ صرخة أخرى لا إرادية، وزحفت من أمامها إلى أن وصلت إلى ذراع عمّي. "أرجوك"، همست، وأنا أسحب معصمه وأقلبه إلى الأعلى. "أرجوك".

عندما شعرت بنبض خافت تحت إبهامي، بدأت أبكي لأوّل مرّة طوال هذا اليوم.

الفصل السادس والعشرون

ميلي

احترق كاتمينت هاوس بأكمله في ذلك اليوم.

كانت أخت تيريزا، واسمها الحقيقي بولا دوناهو، قد سكبت البنزين قبل إشعال النار والخروج. أمضت الشرطة طوال الأسبوع في تمشيط جزيرة النورس ومراقبة المطارات المحلّية، ولكن لم يتمّ العثور على أثر لها. أنا أكيدة أنّها خرجت من البلاد بجواز سفر مزوّر وتعيش من الأموال التي سرقتها هي وتيريزا من ميلدريد وأخفياها خارج الجزيرة. كان ذلك مثيراً للغضب. على الأقلّ، لم يتمكّن دونالد كامدن من الفرار، وتمّ القبض عليه في مكتبه، وهو الآن في السجن بانتظار المحاكمة.

لوت أوبري كاحلها عندما سقطت من النافذة، وأصيب الخال آرتشر بارتجاج في المخّ وخلع في كتفه. ووفقاً للأطبّاء، من المحتمل أن تكون تيريزا رايان قد فارقت الحياة بسبب استنشاق الدخان قبل ارتطامها بالأرض.

أصبحت الأراضي المحيطة بكاتمينت هاوس مسرح جريمة الآن، ولم يُسمح لنا بالاقتراب منها. لكن في اليوم التالي للحريق، ذهبنا أنا وأوبري وجونا إلى المنعطف الذي لمحنا فيه المنزل للمرّة الأولى. لم يكن أيّ من الدمار مرئيّاً من مسافة بعيدة، ولكن كان ثمّة

شيء مقلق للغاية لدى رؤية الامتداد غير المنقطع من السماء في الموقع الذي كان يلوح فيه المنزل في الأفق. لقد اختفى كلّ تاريخ إرث أبراهام وميلدريد مع المنزل الذي أمضت فيه أمّي طفولتها.

وصلت أمّي في اليوم التالي، وتولّت المسؤولية كما تفعل دائماً. أصرّت قائلة بمجرّد أن وطأت قدمها كوخ الخال آرتشر: "لا يمكنكِ البقاء هنا، هذا المكان لا يتميّز بما فيه من الكفاية من الخصوصية. فوسائل الإعلام في حالة جنون". هكذا انتقلنا إلى منزل فاخر من منازل آل ستوري. منذ ذلك الحين، وأمّي تعمل كحلقة وصل مع الشرطة، والأطبّاء، والمراسلين، والمحامين الذين كانوا يحاولون حلّ ألغاز أكثر من عقدين من الاحتيال.

غير أنّ الأمر الوحيد الذي لم تفعله كان التحدّث عمّا جرى لمات رايان على شاطئ كاتي في تلك الليلة الصيفية قبل خمسة وعشرين عاماً.

أردت أن أسألها بمجرّد نزولها من الطائرة التي أقلّتها إلى مطار جزيرة النورس، لكنّها عانقتني وقالت: "لا أسئلة، اتّفقنا؟ دعينا نجتاز هذا اليوم وحسب".

ومنذ تلك اللحظة، وهي تردّد ذلك كلّ يوم. وأنا أحاول أن أمنحها مساحة، لأنّني أعلم أنّه بالإضافة إلى كلّ ما تتعامل معه، عليها أن تتصالح مع حقيقة أنّ الأمّ التي كانت تأمل دائماً في استعادة علاقتها بها قد ماتت منذ أربعة وعشرين عاماً، وأنّ ميلدريد ستوري لم تكن شرّيرة في النهاية، بل امرأة أُخذت من أولادها من دون أن تتاح لهم الفرصة لوداعها.

غادر الخال آندرز جزيرة النورس بمجرّد ظهور المقالة الأولى. وقد أجرى مقابلة واحدة منذ ذلك الحين، مع فوكس نيوز، وقال عن قصّة كايلا: "كلّها مجرّد أكاذيب لفّقتها

حبيبة سابقة تشعر بالمرارة. أتمنّى أن ترقد بسلام بالطبع".

لم يمنح الخال آدم أيّ مقابلات، لكنّه قال الشيء نفسه من خلال متحدّث رسمي. ومن المفارقات أنّ مبيعات كتابه الذي مضى عليه عقد من الزمان تجاوزت الحدود عندما شاعت القصّة. وفي هذه اللحظة، عند الساعة 5 مساءً بالضبط، تلقّت أوبري رسالة نصّية منه يخبرها فيها أنّ كتابه أصبح على قائمة نيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعاً.

وضعت هاتفها جانباً بعبوس، وتمتمت قائلة: "أعتقد أنّ بعض الناس لا يواجهون عواقب أفعالهم أبداً".

كان الجميع باستثناء والدتي في المطبخ، منشغلين بإعداد الغواكامولي لعشاء هذه الليلة. كنّا في الأسبوع الأخير من شهر يوليو، وبالتالي لا يزال موسم الصيف في أوجه في جزيرة النورس، ولكن ليس بالنسبة إلينا. فأوبري وجونا سيغادران غداً، وسأتبعهما بعد ذلك بوقت قصير. إذ يريد والداي أن أبقى مع أبي وثريّا، بينما تتولّى أمّي حلّ تداعيات ما جرى هنا.

"لست أدري"، قال آرتشر ذلك وانقبض وجهه وهو يقطّع الأفوكادو بيد واحدة. كان كتفه يسبّب له كثيراً من الألم، لكنّه يرفض تناول المسكّنات. "ما زال يتعيّن على والدك العيش مع نفسه. لديّ إحساس أنّ هذه كانت مشكلته طوال الوقت".

يبدو أنّ هذه هي العقوبة الوحيدة التي ستنزل بالخالين آدم وآندرز على موت مات رايان. فخالي آندرز على حقّ، ذلك أنّ كلام فتاة ماتت منذ أربعة وعشرين عاماً، قيل لامرأة ارتكبت عملية احتيال جسيمة قبل أن تموت في حريق طلبَت من امرأة أخرى إشعاله، ليس كافياً لإدانة أيّ شخص.

لكنّ محكمة الرأي العامّ كانت قاسية مع ذلك. فقد نشرت صحيفة نيويورك بوست السؤال التالي: أهي جريمة قتل؟ على الصفحة الأولى منذ يومين، وردّت وسائل التواصل الاجتماعي بإيجاب مدوٍّ. وقد ترتفع مبيعات كتاب الخال آدم مؤقّتاً، ولكن بالنسبة إلى معظم الناس، فهم يقرأونه بكُره.

لم تفارق الكآبة أوبري، ولذلك غيّر الخال آرتشر الموضوع. قال وهو يضع قطعاً غير متساوية من الأفوكادو في مطحنة الطعام: "أخبرينا عن منزلك الجديد".

ابتسمَت عندما سمعت سؤاله. فقد أتت والدتها ليوم واحد ثمّ اضطرّت للمغادرة، لإنهاء الترتيبات في الشقّة التي ستنتقل إليها هي وأوبري عندما تعود أوبري إلى أوريغون. "إنّها شقّة لطيفة حقّاً مؤلّفة من ثلاث غرف نوم، تقع في منتصف الطريق تقريباً بين المدرسة والمستشفى التي تعمل فيها أمّي".

قال الخال آرتشر: "يبدو ذلك رائعاً".

ابتسمت له أوبري ابتسامة خجولة. "ربّما تأتي لزيارتنا، إذا أردت".

كانت تقضي هي والخال آرتشر كثيراً من الوقت معاً منذ أن أنقذا بعضهما البعض من كاتمينت هاوس. أعلم أنّ جزءاً من أوبري سيرغب دائماً في نوع العلاقة بين الأب وابنته التي لم يستطع الخال آدم تقديمها، ولكنّ رابطة العمّ وابنة الأخ يمكن أن تكون مميّزة أيضاً.

أجاب الخال آرتشر: "سأفعل بالتأكيد، ولكن ليس قريباً". بدت الخيبة على وجه أوبري، فأضاف بسرعة: "سألتحق بمركز إعادة التأهيل في كيب كود في الأسبوع المقبل، ولست متأكّداً من المدّة التي سأمضيها هناك، لكنّها لن تقلّ عن الشهرين".

هتفنا أنا وأوبري معاً: "هذا رائع".

"حتّى إنّني تأخّرت". كان كأس شرابه على طاولة المطبخ كالعادة، لكنّه لم يلمسه منذ أن جلسنا. "بعد ذلك، لست متأكّداً. سأعيش كلّ يوم بيومه". بدا منهكاً فجأة، وهو ينهض عن المقعد. "هل تمانعان في إنهاء العمل؟ سأحاول أخذ قيلولة".

تمتمنا موافقين، بينما كان يغادر. خيّم الصمت علينا لبضع دقائق إلى أن سأل جونا: "إذاً، ماذا ستفعلان عندما تصلان إلى المنزل؟".

قالت أوبري على الفور: "سأبدأ العلاج الفيزيائي، فقد تبيّن أنّ السباحة جيّدة لالتواء الكاحل، وأريد الاستمرار فيها". مدّت يدها إلى فصّ ثوم وبدأت بتقشيره. "ربّما أعود حتّى إلى الفريق".

فاجأني قرارها لدرجة أنّني سكبت كثيراً من زيت الزيتون في مطحنة الطعام، واضطررت إلى إعادة البعض منه بالملعقة. "حقّاً؟".

قالت أوبري: "سيتمّ تعيين مدرّبة جديدة، بما أنّ المدرّبة القديمة ستذهب في إجازة أمومة". أصبح تعبيرها كئيباً للحظات، لكنّ البهجة عادت إليها مجدّداً. "إنّها امرأة أدارت برنامجاً صيفياً شاركتُ فيه مرّة. وقد اتّصلت بي لإلقاء التحيّة وأخبرتني أنّها تأمل عودتي. أنا أحبّها حقّاً". وكزتني بكتفها قائلة: "وماذا عنك؟ ماذا ستفعلين في منزل والدك؟ إنّه في نيويورك هو أيضاً، أليس كذلك؟".

أجبتها وأنا أعيد زيت الزيتون إلى الوعاء: "نعم. تنصّ التعليمات على ألّا ألفت الأنظار".

اتّسعت عيناها ببراءة زائفة: "ما معنى ذلك؟ لا مزيد من لقطات المصوّرين لك على الشاطئ؟".

أجبتها وقد احمرّ خدّاي: "كانت مرّة واحدة". الشاطئ هنا خاصّ، لكنّ طائرات الهليكوبتر لا تكفّ عن التحليق فوقنا لالتقاط صورة. وقد التقط أحدهم صورة مقرّبة وواضحة على نحو مدهش لي أنا وجونا ونحن نقبّل بعضنا في المياه. "لقد حدث ذلك مرّة واحدة".

تنحنح جونا قائلاً: "ربّما تكون الأمور أبسط في مكان أكثر ازدحاماً بحيث يمكننا الاندماج في الحشد". رفعتُ حاجبيّ باستغراب وأنا أنظر إليه، فأضاف: "كمدينة مثلاً. فبروفيدنس ونيويورك ليستا بعيدتين عن بعضهما البعض، وثمّة حافلة لا تتجاوز كلفتها ثلاثة عشر دولاراً تعمل بينهما. هذا ما سمعته".

سألته أوبري مبتسمة: "عندما تحقّقتَ بقلق من موقع غريهاوند؟".

هزّ كتفيه مجيباً: "ربّما".

قاومتُ ابتسامة وأنا أقول: "ظننتُ أنّه عليك العمل طوال الصيف".

"ليس طوال الصيف". شرد قليلاً ثمّ أضاف: "علماً أنّكما أصبحتما وريثتَين الآن، لذا... لا أدري، قد أجد الأمر غريباً".

لم تكن تركة آل ستوري من الأمور التي تحدّثنا عنها كثيراً منذ انكشاف حيلة تيريزا ودونالد، لكنّها موجودة دائماً. عندما أتت أمّي إلى الجزيرة، أحضرت معها العقد الماسّي الذي وعدتني به، لكنّني جرّبته مرّة واحدة. ولسبب ما، لم يناسبني بقدر ما كنت أظنّ.

كذلك نزعتُ ساعة جدّي. ومن الغريب كم بدت ذراعي أخفّ وزناً من دونها.

لا شيء في ثروة آل ستوري يبدو حقيقياً حتّى الآن. لكنّ جونا حقيقي، ولست أكثر استعداداً منه لوداعه على نحو دائم. قلت له: "لن يكون الأمر غريباً على الإطلاق".

ابتسم، فتناولتُ ملعقة ووجّهتها إليه قائلة: "لكن اعلم أنّني لا أستقلّ الحافلة أبداً. هذه مسألة غير قابلة للنقاش".

بعد ساعات، وبعد ذهاب أوبري إلى النوم وانشغال جونا في لعبة فيديو مع عدّة لاعبين مع أصدقائه الذين يشاركون من منازلهم، خرجتُ للتجوّل، ورأيت أمّي وخالي آرتشر جالسَين على كرسيَين موضوعَين على الشاطئ بالقرب من المنزل. كدت أعود إلى الداخل، غير راغبة في إزعاجهما، لكنّ أمّي رأتني ولوّحت لي.

قال خالي آرتشر: "دعيني أحضر لك كرسيّاً"، ونهض قبل أن أشير له ليتوقّف.

"لا بأس، أنا لا أحبّ تلك الكراسي على أيّ حال". رأيتُ منشفة ملفوفة على طرف كرسي أمّي، فبسطتُها على الأرض وجلست أمامهما.

قالت أمّي: "كنت أخبر آرتشر بمدى سعادتي لتقرّبكما من بعضكما أنت وأوبري". كان ثمّة طاولة بينها وبين الخال آرتشر، وُضع عليها كأس واحد من الشراب. حملته أمّي وأخذت منه رشفة قبل أن تضيف: "إنّها جوهرة. يصعب عليّ أن أصدّق الآن مدى ضآلة الجهود التي بذلتُها على مرّ السنين لمساعدتك في التعرّف على قريبَيك".

تكلّمتُ بنبرة خفيفة، لأنّني أحاول عدم التفكير في المسافة التي ستفصلني عن أوبري. لا شكّ في أنّ محادثاتنا بعيدة المدى لن تتوقّف. "حسناً، في حالة جي تي، كان ذلك

من حسن حظّي".

هزّ الخال آرتشر رأسه قائلاً: "ما زلت أعلّق بعض الأمل على ذلك الصبيّ. كان يحاول وحسب القيام بما يريده هذا الصيف. وأنا واثق أنّ جزءاً منه يأسف لما حدث".

قلت: "جزء صغير جدّاً، شحمة أذنه ربّما".

قالت أمّي: "لطالما رفضتَ الصفات السيّئة في الناس يا آرتشر".

كان من الغريب رؤيتها هي وخالي آرتشر ينزلقان إلى عاداتهما القديمة هذا الأسبوع - عاداتهما القديمة جدّاً، من سنوات المراهقة - على عكس السلوك المؤدّب والرسمي الذي أذكره من طفولتي. فقد لاحظت التقارب بينهما في مقاطع فيديو قديمة، ولكنّني لم أر ذلك في حياة الواقع، وكدت أصدّق أنّها مجرّد خدعة كاميرا. غير أنّها لم تكن كذلك.

قال آرتشر: "أظنّ أنّنا نشترك في ذلك". ثمّ ضمّ يده في قبضة وضربها برفق على ذراع أمّي. "لم تستطيعي حتّى رؤية مساوئ أخوينا".

تحرّكت أمّي بتوتّر على كرسيّها. "هل ما زال بإمكاني تأجيل النقاش؟".

قال الخال آرتشر: "ليس عليك التحدّث في أيّ موضوع لا ترغبين فيه، لكنّني أودّ إخبارك أنّني آسف لما مررتِ به في ذلك الصيف، مع الحمل وكلّ ما جرى. كنت أعلم أنّه ثمّة خطب ما، لكن لم تكن لديّ أيّ فكرة عن حقيقة الأمور".

قالت أمّي: "وكيف ستعرف؟ فأنا لم أخبرك. كما أنّه انتهى تقريباً قبل أن يبدأ". أخذت رشفة أخرى وتابعت قائلة: "شعرت بالحزن والارتياح في آن. أحسست لفترة أنّني

أكره مات، لكنّني لم أفعل حقّاً. كنت غاضبة من الطريقة التي تصرّف بها. ثمّ أخبرني آندرز بما فعل، وتوفّي مات بطريقة مروّعة، ولم أعرف ماذا أفعل".

انتظر الخال آرتشر قليلاً، وعندما استمرّ صمت أمّي، سألها بهدوء: "هل فكّرتِ يوماً في إخبار أحد؟".

"كلّ يوم". قبضت أمّي على جذع الكأس بقوّة حتّى خشيتُ أن تكسره. "لقد عشت في صراع كبير. شعرت بالذنب لأنّني استفززت آندرز عندما أخبرته عن كايلا ومات. وكذلك لأنّ آندرز جعل الأمر يبدو كما لو أنّه أقدم على ذلك من أجلي، وكلّ ما فكّرت فيه آنذاك: هل أبلغتُه بطريقة ما أنّني أردت ذلك؟ هل كان خطأي؟ استغرق الأمر أكثر من عام حتّى أدركت أنّ آندرز تصرّف، كما هو الحال دائماً، بدافع من مصلحته الشخصية. وبحلول ذلك الوقت، لم أعد أعرف كيف أطرح المسألة من جديد أو ما هي الجدوى من ذلك. بعدئذٍ، أرسل دونالد كامدن تلك الرسالة".

أنهت أمّي كأسها ووضعته بيد مرتجفة. "شعرت أنّنا كنّا نستحقّ ذلك. بالطبع، كلّنا ما عداك أنت. مع أنّه كان من المستحيل أن تعرف والدتي بما حدث لمات، وبالطبع لم تعرف". أطلقت ضحكة ساخرة وتابعت: "والآن، تلحّ عليّ فكرة واحدة - ماذا لو أنّني قلت شيئاً في ذلك الوقت؟ هل كانت الأمور ستختلف الآن؟ لربّما بقيت الوالدة معنا و-"

قاطعها الخال آرتشر قائلاً: "أليسون، ما كان ذلك ليحدث. فقد كانت تعاني من مرض في القلب".

"لا أدري، أشعر أنّني المسؤولة عن كلّ المآسي التي وقعت". أصبح صوت أمّي أكثر عمقاً وهي تضيف: "لا سيّما الآن، عندما علمت أنّ كايلا رحلَت بسبب ما فعلتُه-"

صحّح لها الخال آرتشر قائلاً: "رحلت كايلا لأنّ دونالد كامدن نذل وجشع وبلا قلب". للمرّة الأولى طوال هذه الليلة، بدا غاضباً. "وإن كان ثمّة من هو مسؤول عن كلّ ما جرى، فهو آندرز، وهذا أمر مثير للسخرية على نحو مريع. فأنا أعتقد أنّه أحبّ كايلا حقّاً، بقدر ما يستطيع آندرز أن يحبّ أحداً. ولا بدّ أنّه يشعر بالألم من معرفة أنّ ما فعله لمات تسبّب في النهاية في وفاتها". راح الخال آرتشر ينقر بأصابعه بانتظام على الذراع الخشبية لكرسيّه، واحداً تلو الآخر، من سبّابته إلى خنصره، ومن ثمّ في الاتّجاه المعاكس. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد. "أنا لا أحكم عليك يا أليسون، بل أنا غاضب من آدم لأنّه صمت عندما كان بإمكانه أن يُحدث فرقاً، ولست غاضباً منك لأنّك لزمتِ الصمت بعد ذلك. فأنا نفسي لا أعرف ما كنت سأفعل في هذه الحالة. أنت تذكرين ما كان الوالد معتاداً على قوله، العائلة أوّلاً، دائماً".

كانت أمّي لا تزال تبدو على وشك البكاء. "لو قُدّر لأبي أن يعرف بما حدث لما أفاق من صدمته".

"بسببهما". لان صوت الخال آرتشر وهو يضيف: "أنت لم تؤذِ أحداً عمداً. لذا سامحي نفسك يا أليسون، فخمسة وعشرون عاماً هي فترة طويلة للتمسّك بالشعور بالذنب".

قالت أمّي: "أنا أحاول".

رنّ هاتف محمول على الطاولة بينها وبين الخال آرتشر، فسألته أمّي وهي تنظر إلى الأسفل: "من تكون شارلوت؟".

أجاب الخال آرتشر: "إنّها مساعِدة في مكتب دونالد كامدن. طلبتُ منها أن

تتواصل معي إذا سمعت عن أيّ تطوّرات مثيرة للاهتمام، بالطبع سرّاً. لذا لا تخبري أحداً". وضع إصبعه على شفتيه وهو يتناول هاتفه.

سألته أمّي بتعجّب: "كيف تعرف الجميع؟".

قال وهو ينهض متّجهاً إلى الشاطئ: "أنا أتحدّث إلى الناس، عليك أن تجرّبي. مرحباً، شارلوت. ما الأخبار؟".

خيّم الصمت علينا أنا وأمّي. بعد ذلك، دُهشتُ تماماً عندما مدّت يدها إلى الأسفل وملّست على شعري. لا أذكر آخر مرّة فعلت فيها ذلك، لكنّني بالتأكيد لم أكن أتجاوز ستّ سنوات من العمر. قالت بشرود: "جعلني حَملي في ذلك الصيف أشعر بوحدة كبيرة. لم أستطع أن أخبر أمّي، ولكنّني تمنّيت لو أنّها عرفت بطريقة ما. ميلي، إذا وجدتِ نفسك في موقف كهذا، أتمنّى أن تعلمي أنّني سأقدّم لك دعمي الكامل".

قاومتُ ميلاً طبيعياً للقول، ربّاه، أمّي، أرجوك لا تتحدّثي عن ذلك، لأنّني أردتها أن تتحدّث عمّا جرى. ليس من الناحية التي تتعلّق بي، لكنّني سآخذ ما يمكنني الحصول عليه في الوقت الحالي. "أنا أعرف".

ضحكَت قائلة: "حقّاً؟ مع أنّني لست متأكّدة من أنّني أظهرتُ لك كما ينبغي دعمي على مرّ السنوات".

"حسناً، كان لديك كثير من الهموم".

قالت بجفاف: "سأعتبر ذلك تأكيداً على أنّه بإمكاني تحسين أمومتي".

"أمّي، هل..." تردّدتُ، ثمّ قرّرتُ المتابعة. "هل أخبرتِ أبي يوماً بما حدث؟".

"لم أخبره بكلّ شيء". أبعدت أمّي خصلة شعر خلف أذني قبل أن تسحب يدها. "والدك ألطف رجل عرفته على الإطلاق. لقد فعل الكثير على مرّ السنين لمساعدتي على التكيّف مع ما حدث لمات، ومسألة الحمل. لكنّني لم أستطع إخباره بالقصّة كاملة. لم أتمكّن من قول ما فعله آندرز، أو إخباره أنّني قمت بحماية أخي". انخفض صوتها، فلويت عنقي لإلقاء نظرة على وجهها، لكنّ ضوء القمر كان خافتاً للغاية. "كانت الحقيقة أشبه بسرطان بداخلي في تلك المرحلة، دفعته عميقاً لكي لا يخرج. فكان... يوتّرني ويجعلني دائمة الغضب. وقد تحمّل والدك العبء الأكبر من دون أن يعرف السبب على الإطلاق".

شعرت بالحزن يثقل صدري وأنا أفكّر كم كان من الممكن لحياة أمّي أن تكون مختلفة لو أنّها أزالت ذلك العبء عن كاهلها. "أعتقد أنّه كان سيفهم".

قالت بهدوء: "أظنّ أنّك على حقّ".

خيّم علينا الصمت قليلاً، واكتفينا بالإصغاء إلى الأمواج التي تتكسّر على الشاطئ والهمهمة غير الواضحة لصوت الخال آرتشر. بعد ذلك تنحنحت أمّي وقالت: "كنت أنوي إخبارك يا ميلي كم أنا معجبة بالطريقة التي توصّلتِ بها إلى الحقيقة. أنت تتمتّعين بذهن حادّ". انتظرتُ أن تتبع ذلك الجملة المحتومة - لو أنّك ثابرتِ بتلك الطريقة في المدرسة، لحصلتِ على امتياز في وقت قصير - ولكنّها لك تقلها، بل أضافت: "وبقلب طيّب"، فشعرتُ بلسعة الدموع في عينيّ.

عاد الخال آرتشر حاملاً هاتفه وهو يتنفّس بصعوبة. فوقفت أمّي وأسرعَت إليه. سألته: "هل أنت بخير؟ هل كتفك يؤلمك؟ أنت تستمرّ في إرهاق نفسك".

قال بصوت متوتّر: "أنا-كلّا. كانت شارلوت".

"أعلم، لقد أخبرتَنا".

"صحيح. المسألة..." وضع هاتفه في جيبه ومرّر يده عبر شعره. "طلبتُ منها إخباري إذا طرأ أيّ شيء، وثمّة مستجدّات بالفعل. لم يخبرونا بعد لأنّ الإجراءات ما زالت طويلة، ولكن - أليسون، لم يكن كاتمينت هاوس مؤمّناً، لا المنزل ولا أيّ من التحف الفنّية أو المجوهرات أو الأثاث".

التفتُّ إلى والدتي، التي كانت ترفّ جفنيها بحيرة. سألَته أخيراً: "ماذا؟ لِمَ؟ كيف يمكن لمنزل كهذا ألّا يكون مؤمَّناً؟".

قال: "لا شيء مؤمَّن. فقد انقضت مدّة كلّ بوالص التأمين، ولم تُدفع أيّ فواتير منذ أكثر من عام. وكلّ المنازل التي تملكها أسرتنا - بما فيها هذا المنزل - قيد الرهن. كما أنّ حسابات الاستثمار فارغة. كان دونالد وتيريزا يبيعان التحف الفنّية للعيش منها. وكلّ شيء إمّا بيع أو احترق في الأسبوع الماضي".

لم تنبس أمّي ببنت شفة. وضع الخال آرتشر يده على كتفها وتكلّم ببطء، وبصوت مليء باللطف والقلق، مثل طبيب يقدّم تشخيصاً صادماً.

"أنفقوا كلّ شيء، حتّى آخر قرش. لقد تبدّدَت أملاك آل ستوري".

الخاتمة

جونا

بعد خمسة أشهر

نقرت ميلي الكرات، فتطايرت هذه الأخيرة فوق اللبّاد الأخضر الناعم. كانت تتحسّن تدريجيّاً في البلياردو. ففي آخر مرّة زرتها في نيويورك، اصطحبتني إلى "مجمّع ترفيهي" فاخر كانت جميع الطاولات فيه مضاءة بأضواء الفلورسنت، وكادت أن تهزمني.

قال إنزو من خلف البار: "إنّها على وشك أن تتفوّق عليك يا جونا". كان قد عاد إلى العمل في إمبراطورية البلياردو بعد يوم الشكر مباشرة، على الرغم من أنّه لا يزال يناوب مرّتين في الأسبوع في مخزن الأدوات المنزلية، تحسّباً.

سألتُ ميلي بينما كانت تشاهد آخر الكرات وهي تسقط في أحد الثقوب: "هل كنت تتمرّنين من دوني؟".

ألقت عليّ نظرة ماكرة من تحت رموشها وقالت: "أنا أتعلّم بسرعة".

تلك هي النظرة التي تهزمني فيها دائماً. نسيت أين نحن، واقتربت منها، ثمّ أخذت منها عصا البلياردو لكي أضمّها إليّ. كان شعرها الحريري طويلاً ومنسدلاً على كتفيها، فأبعدته عن وجهها قبل أن أعانقها، ونسيت كلّ شيء عن الأسابيع الثلاثة الطويلة

التي انقضت منذ أن رأيتها آخر مرّة.

نسيت أيضاً وجود إنزو إلى أن تنحنح قائلاً: "والدتك في موقف السيّارات". فابتعدتُ قبل ثوانٍ من دخول أمّي.

ليس لأنّها تمانع، فهي تحبّ ميلي، وكانت هي التي دعتها لتمضية فترة الميلاد معنا، لكنّني أحاول أن أجنّب ميلي الحرج لكي لا تتردّد في العودة.

... بالقطار طبعاً، فهي لم تكن تمزح بشأن الحافلة.

قالت أمّي لإنزو وهي تضع كومة كبيرة من الأوراق على البار: "وصل البريد، وثمّة كتالوغ جديد من ServMor Bar Supply، إذا كان الأمر يهمّك".

قال وهو يأخذ كومة الأوراق: "إنّه يهمّني". منذ أن عمل إنزو في مخزن للأدوات المنزلية، أصبح مدمناً على مشاريع تحسين الإمبراطورية. فنحن لا نفتح قبل ساعة أخرى، ولكنّه أتى باكراً لتثبيت ما قال إنّه درابزين أكثر متانة للبار.

التفتت أمّي إلينا أنا وميلي. "أنا ذاهبة لأعدّ لنفسي طبقاً من البرغر والبطاطس المقلية قبل أن نفتح. هل تريدان شيئاً؟".

قلت وأنا أنظر إلى ميلي: "سآكل مثلك".

قالت: "وأنا أيضاً. شكراً سيّدة نورث".

"لا داعي للشكر! وأنت يا إنزو؟".

"كلّا أنا لست جائعاً".

"حسناً، أنا بحاجة إلى عشر أو خمس عشرة دقيقة". ثمّ اختفت في المطبخ، بينما حمل إنزو الكتالوغ وبقيّة البريد تحت إبطه.

أعلن وهو يبتعد من وراء الحانة: "سأقرأ هذه في المكتب خلال الدقائق العشر القادمة. افعلا ما شئتما في هذه الغرفة الفارغة".

كنت قد ابتعدت لمسافة مقبولة عن ميلي عندما دخلت أمّي، ولكنّني أغلقتُ الفجوة الآن مبتسماً. سألتها وأنا أحيط خصرها بيديّ: "أين كنّا؟".

وقفت على أطراف أصابعها واقتربت منّي، ثمّ عادت وابتعدَت قائلة: "كنّا على وشك الاتّصال بأوبري، هل تذكر؟ لقد وعدتني أن أتحدّث معها عبر فيس تايم عند الساعة الرابعة".

"تبّاً"، غير أنّني لم أكن أعنيها، بل كنت متشوّقاً لمعرفة أخبار أوبري أنا أيضاً.

لم أكن متأكّداً ممّا سيحدث عندما غادرنا نحن الثلاثة جزيرة النورس في نهاية شهر يوليو. فقد عشنا أكثر فترات حياتنا جنوناً وغرابةً، وكان من الصعب أن نعرف ما إذا كانت العلاقات المتينة التي كوّناها مع بعضنا البعض ستستمرّ في حياتنا العادية، لا سيّما مع كلّ الفوضى المتعلّقة بمسألة التركة. فقد تحوّل الأمر إلى مواجهة بين أفراد آل ستوري: أليسون وآرتشر من جهة، يحاولان تحرير ما بقي وتسوية الأمر بشكل عادل؛ وآدم وآندرز من جهة أخرى، يتهرّبان من الدائنين والمساءلة ويرفعان دعاوى قضائية ضدّ أيّ شخص سبق له العمل مع دونالد كامدن.

في البداية، لم أصدّق أنّ كلّ الأموال تبدّدت. لكن تبيّن أنّ ذلك صحيح في نهاية المطاف. فقد عاش دونالد، وتيريزا، وفريد باكستر، وبولا حياة من البذخ لمدّة أربعة

وعشرين عاماً، وأحاطوا أنفسهم بنوع من الرفاهية التي لا يمكن تخيّلها. قاموا برحلات باهظة الكلفة، واشتروا تحفاً فنّية لا تقدّر بثمن ومقتنيات أخرى لم يكلّفوا أنفسهم عناء تأمينها، ورمّموا ممتلكات آل ستوري بإسراف لدرجة أنّ أسعار الفنادق العالية لم تستطع مواكبة كلّ ذلك الإنفاق. من ناحية أخرى، لم يتخلّص د. باكستر تماماً من مشاكله المالية، بل كان يبدّد الملايين في فيغاس كلّ عام. أمّا دونالد كامدن، فكان بالكاد يعمل. احتفظ بالمكتب والموظّفين كغطاء حتّى يبدو بصورة محترمة، وكان ينفق على ذلك كلّ عام أكثر ممّا يجني.

عندما هدأ الغبار واستقرّت الأمور، كان المبلغ المتبقّي لآدم وآندرز وأليسون وآرتشر، ضئيلاً نسبيّاً، "فقط ما يكفي لدفع تكاليف إعادة التأهيل"، على حدّ تعبير آرتشر. ولكن على الأقلّ، بما أنّه كان بكامل وعيه لمدّة خمسة أشهر، فإنّ هذا المال لم يذهب هباءً.

كان آرتشر الأقلّ اكتراثاً لمسألة الإفلاس. عاد إلى جزيرة النورس للعمل مع روب فالنتاين، وكان راضياً على نحو غريب بطلاء المباني التي كانت عائلته تملكها. قال لميلي عندما زرناه في عطلة نهاية الأسبوع في يوم المحاربين القدامى: "لقد مزّق الجشع هذه العائلة". كان يبدو بحالة جيّدة، نظراته صافية وذقنه حليقة، وإن يكن قد خسر شيئاً من وزنه. "وبصراحة، لو بقي شيء ذو أهمّية حتّى الآن، لتكرّرت الأحداث نفسها مجدّداً. وأنا لا أريد أن أقضي حياتي في الصراع مع آدم وآندرز على ثروة الأسرة، ولا أريدها أن تفسد حياتكم كما فعلت بنا... وبدونالد وتيريزا وبقية هذا الطاقم الفاسد".

قالت ميلي على مضض: "ربّما، ولكن مع ذلك، لم تكن تلك أموالهم لينفقوها!".

وافقها آرتشر قائلاً: "كلّا، أنت محقّة. دعونا ننظر إلى الجانب المشرق، مع ذلك. أنا

لا أريدها، حقّاً. أشعر أنّني أكثر سعادة وأنا أعيش حياة هادئة في وطني ممّا كنت عليه منذ سنوات. وأليسون لا تحتاج إليها، فقد أسّست مهنة رائعة بمفردها. وكذلك الأمر بالنسبة إلى ميغان، ما يعني أنّ أوبري ستعيش حياة رغيدة. هذا ناهيك عن منح تعليم السباحة التي تنتظرها. أمّا بالنسبة إلى آدم وآندرز..." ابتسم مضيفاً: "فهما لا يستحقّان الثروة".

كان كتاب آدم ستوري قد خرج من قائمة الكتب الأكثر مبيعاً بعد أسبوعين. ولفترة من الوقت، توقّعنا أن يُؤلّف كتاباً آخر، لكنّ القصّة الوحيدة التي يهتمّ الناس لسماعها قصّتُه هو، وكان يرفض أن يرويها.

ما زال آندرز ستوري وعائلته يعيشون في بروفيدنس، لكنّنا لم نذهب إلى المدرسة نفسها أنا وجي تي، الذي أنهى سنته الأخيرة في إحدى المدارس المستقلّة خارج نيوبورت. ومع أنّها بعيدة، إلّا أنّه استفاد من كونها مليئة بشباب لا يعرفونه إلّا بالاسم. فقد ذاعت فضيحة ستوري على نطاق واسع على الساحل الشرقي لأشهر، ولم يستطع الهرب منها بالكامل. أمّا آندرز، فكان يؤسّس شركة جديدة، لا أعرف عنها شيئاً بخلاف ما أعلن عنه في مجلّة بروفيدنس في الأسبوع الماضي.

وعد قائلاً: "كلّ ما تعلّمته، وكلّ ما أمثّله، وكلّ ما لديّ، سيُصَبّ في هذا المشروع الجديد".

وضعت والدتي الصحيفة جانباً باشمئزاز بعد أن قرأت ذلك وقالت: "بعبارة أخرى: لا شيء".

كانت شقيقة تيريزا، بولا، لا تزال طليقة. ولا بدّ لي من الاعتراف أنّها أكثر من يثير

اهتمامي. فهي الحصان الأسود في المجموعة، دائماً في الظلّ، لم يكن يجري في حياتها كثير من الأحداث عندما ماتت ميلدريد ستوري، لدرجة أنّها استطاعت أن تتخلّى عنها لتنتحل شخصيّة تيريزا. حاولت وسائل الإعلام جمع مواصفاتها، ولكن لم يكن لديها الكثير. فقبل أربعة وعشرين عاماً، كانت امرأة خمسينية تعيش في إحدى ضواحي هامشاير، وتعمل في شركة الكهرباء. وذات يوم، رحلت. تركت وظيفتها، وأعطت إشعاراً بشأن شقّتها، وأعلنت أنّها ستغادر الولاية. ولم يهتمّ أحد بما فيه الكفاية للسؤال عن السبب.

قلت لميلي ذات مرّة إنّني أجد ذلك محزناً. فحدّقت إليّ قائلة: "لا تنسَ أنّك تتحدّث عن المرأة التي أحرقت كاتمينت هاوس، وكان من الممكن أن تقتل أوبري والخال آرتشر! لذا، إيّاك أن تشعر بالأسف من أجلها".

"لستُ آسفاً"، وكان هذا صحيحاً. فأنا أكره بقدر ميلي فكرةَ أن تكون بولا على أحد الشواطئ الأجنبية تحتسي الكوكتيل. لكنّني أذكر تماماً مدى صعوبة انتحال شخصيّة إنسان آخر، حتّى ولو لوقت قصير. وأتساءل في بعض الأحيان كيف نجحت في القيام بذلك طوال هذه المدّة. وكانت الإجابة بحدّ ذاتها تصدمني في كلّ مرّة: لأنّه ما من أحد في العالم سيتساءل عن غيابها، باستثناء الأخت التي وافقت على انتحال شخصيّتها.

حسناً، ربّما كنت أشعر بقدر من التعاطف، لكنّني حريص على عدم إخبار ميلي بذلك. لأنّ ميلي... يا إلهي. ما زلت لا أصدّق أنّها أصبحت حبيبتي. نحن نرى بعضنا قدر الإمكان، وعندما نتحدّث عمّا سنفعله بعد التخرّج، ينتهي الأمر بنا دائماً ببحث كيفيّة السكن في مدينة واحدة.

ومن يدري، ربّما نجتمع نحن الثلاثة مجدّداً. فقد عُرضت على أوبري منحة

للتدرّب على السباحة في براون، وهو أمر لا يصدّق، لكن عُرض عليها أيضاً كثير من المنح الأقرب إلى بيتها. غير أنّ ميلي أخذت على عاتقها مهمّة جذب أوبري إلى الساحل الشرقي، بدءاً من الآن.

جلسنا بالقرب من بعضنا البعض على مقعد خلف المساحة المخصّصة لطاولة البلياردو، وحملت ميلي هاتفها بيننا. بمجرّد أن اتّصلت برقم أوبري، خلعت سترتها لتريها قميص جامعة براون الذي حصلنا عليه هذا الصباح.

ظهرت أوبري على الشاشة، وهي تحمل طفلاً صغيراً على ذراعها. قلتُ: "آه، إنّه آيدن". ثمّ فوجئت عندما ألقيت نظرة أفضل على وجه الطفل. آخر مرّة رأيته عبر فيس تايم، كان حديث الولادة. لكنّه الآن يبلغ الشهرين من العمر، وبدأ يشبه إنساناً حقيقياً، لا بل إنساناً معيّناً كما اتّضح. "تبّاً يا أوبري، إنّه نسخة عنك".

ابتسمَت قائلة: "أعرف، أليس رائعاً؟ وهذا يثير جنون أبي، لا سيّما وأنّه أصرّ دائماً أنّني أملك جينات أمّي فقط". مرّرت يدها الأخرى على شعر الطفل الأشقر الخشن. "أعتقد أنّه ثمّة أكثر من طريقة ليبدو الإنسان شبيهاً بآل ستوري".

لا ينبغي أن يفاجئني ذلك، فأوبري التي أعرفها أحبّت أخيها غير الشقيق على الفور. فالفوضى التي ولد منها لم تكن ذنبه. مع ذلك، من الرائع أن تكون أوبري مقرّبة منه إلى هذا الحدّ، في حين أنّه كان من الممكن أن تحقد عليه بكلّ سهولة.

كتفت ميلي ذراعيها على صدرها، ونسيت أمر القميص بينما كانت ترمق آيدن بحذر. كان الأطفال يسبّبون لها التوتّر، حتّى عندما تشاهدهم من خلال الشاشة. سألَتها: "هل سيبكي؟".

طمأنتها أوبري قائلاً: "إنّه لا يبكي على الإطلاق، بل هو سعيد دوماً".

استراحت ميلي من جديد على المقعد، وبدت غير مقتنعة ولكنّها مستعدّة لمنح الطفل الوقت. "وكيف حال والديه؟". خرجت منها الكلمة الأخيرة وكأنّها تبصق شيئاً سيّئ الطعم.

أخذت أوبري تهزّ آيدن وهي تجيب: "في الواقع... الجميع يقولون إنّ الأطفال يصعّبون العلاقة، أليس كذلك؟ في الواقع، قد يكون هذا الطفل سهل المعشر، إلّا أنّ مجيئه لم يكن سهلاً حقّاً. فهما ما عادا يتحدّثان عن الزواج. حصلت المدرّبة ماتسون على منصب جديد في منطقة على بعد عدّة مدن، ولكنّها تودّ البقاء في المنزل مع آيدن. وأبي يرفض بالطبع إيجاد وظيفة، وقد أنفق أساساً الأموال التي حصل عليها من التركة وعائدات الكتاب. وأعتقد أنّ المدرّبة ماتسون بدأت أخيراً تدرك الورطة التي وقعَت فيها، وهي غير سعيدة".

مالت ميلي إلى الشاشة، واختفى خوفها من الطفل تماماً. قالت: "سأبدأ بمناداتك كارما، أيّها الصغير". ابتسم آيدن، بينما حاولت أوبري من دون جدوى كتم ضحكتها.

قالت: "أنت رهيبة"، ثمّ نظرت إليّ وسألَت: "وكيف حال العمل؟".

رفعتُ إبهامي إلى الأعلى مجيباً: "يتحسّن تدريجيّاً".

ابتسمت قائلة: "أنا متشوّقة للزيارة، وآسفة لأنّني لم أستطع المجيء هذا الأسبوع. فجدول المباريات يرهقني حاليّاً. لكن لا بدّ لي من المجيء في عطلة الربيع حتماً، فأنا أيضاً أودّ الذهاب إلى الجزيرة ورؤية العمّ آرتشر".

قالت ميلي وهي تستقيم في جلستها: "ممتاز، وتكونين قد قبلت عرض براون بحلول ذلك الوقت، وكما ترين"، مرّرت يدها على قميصها قائلة: "أنا أجهّز خزانة ملابسي للاحتفال".

ربّت أحدهم على على كتفي، فاستدرت قبل أن أرى ردّ فعل أوبري. قال إنزو، وهو يمدّ يده: "بطاقة بريدية لك".

سألتُه بارتباك: "حقّاً؟" فمن غير المعتاد أن تصلني رسائل بريدية. "شكراً لك". كانت واجهة البطاقة تُظهر أفق مدينة نيويورك، ففكّرتُ على الفور في ميلي. شددتُ خصلة من شعرها وسألتها: "هل أرسلتِ لي بطاقة بريدية؟".

أبعدَت يدي ونظرها لا يزال مثبّتاً على الهاتف: "انتظر لحظة، أنا مشغولة هنا".

قلبتُ البطاقة ورأيت اسمي وعنوان الإمبراطورية. لم يكن ذلك خطّ ميلي الأنيق، بل كانت الكلمات قريبة من بعضها، بحيث ذكّرتني بالرسالة التي تلقّيناها من ميلدريد عندما وصلنا لأوّل مرّة إلى جزيرة النورس، والتي أخبرتنا فيها أنّها اضطرّت للذهاب إلى بوسطن. مع أنّني أظنّ أنّ تيريزا هي التي كتبتها في الواقع، أو بولا.

تبّاً، بولا. الحصان الأسود.. المرأة التي لا يفكّر فيها أحد.

سرت قشعريرة في مؤخّر عنقي وأنا ألقي نظرة على ميلي. كانت لا تزال غارقة في محادثة عميقة مع أوبري، ولذلك حوّلتُ نظري إلى البطاقة وقرأتُ ما كُتب فيها.

جونا،

سمعتُ أنّكم بخير، أنت وميلي وأوبري، وأنا سعيدة حقّاً.

أنا لا أكنّ لكم أيّ ضغينة، ومع أنّه من غير المحتمل أن تبادلوني أنت وقريبتاك هذه المشاعر، إلاّ أنّني آمل لو تفعلون.

من محتالة إلى محتال آخر، أودّ أن أقدّم لك نصيحة: أبعِد والدَيك عن مشروع آندرز ستوري الجديد. إذ ينتابني إحساس قويّ أنّه سيتحوّل في يوم من الأيّام، كما يقولون، إلى رماد.

الأسرة أوّلاً، دائماً

ب

